

أمسيات قرب
قرية ديكانكا
نيقولاي جوجول

- Author : Nikolai Gogol
- Title: Evenings on a Farm Near Dikanka
- Translated by: Ibrahim Zaki Khorshid
- Afaq's first edition: 2019
- Cover Design by: Hossam Al Sawah
- Publishing Consultant: Sawsan Bashier
- General Manager: Mostafa Alsheikh

♦ المؤلف: نيقولاى جوجول

♦ العنوان: أمسيات قرب قرية ديكانكا

♦ ترجمة: إبراهيم زكي خورشيد

♦ طبعة آفاق الأولى 2019

♦ تصميم الغلاف: حسام السواح

♦ مستشار النشر: سوسن بشير

♦ المدير العام: مصطفى الشيخ



رقم الإيداع:

٢٠١٨ / ٨٩٦٥

الترقيم الدولي : ISBN :

978 - 977-765 - 165 - 3

جميع الحقوق محفوظة. لا يسمح بإعادة إصدار هذا الكتاب أو أي جزء منه. أو تخزينه في نطاق استعادة المعلومات، أو نقله بأي شكل من الأشكال دون إذن مسبق من الناشر.

All rights are reserved. No part of this book may be reproduced, stored in a retrieval system, or transmitted in any form, or by any means without prior permission in writing from the publisher.

Afaq Bookshop & Publishing House

1 Kareem El Dawla st. - From Mahmoud Basiuny st. Talaat Harb

CAIRO – EGYPT - Tel: 00202 25778743 - 00202 25779803 Mobile: +202-0111602787

E-mail: afaqbooks@yahoo.com – www.afaqbooks.com

١ شارع كريم الدولة - من شارع محمود بسيوني - ميدان طلعت حرب - القاهرة - جمهورية مصر العربية

ت: ٠٠٢٠٢ ٢٥٧٧٨٧٤٣ - ٢٥٧٧٩٨٠٣ ٠٠٢٠٢ - موبايل: ٠١١١١٦٠٢٧٨٧

نيقولاى جوجول

أمسيات قرب قرية ديكانكا

رواية

ترجمة

إبراهيم زكي خورشيد

آفاق للنشر والتوزيع

بطاقة الفهرسة
إعداد الهيئة العامة لدار الكتب والوثائق القومية
إدارة الشؤون الفنية

جوجل، نيقولاي.

نيقولاي جوجل : أمسيات قرب قرية ديكانكا

ترجمة: إبراهيم زكي خورشيد

ط 1 القاهرة - دار آفاق للنشر والتوزيع - 2019

384 ص، 21 سم.

رقم الإيداع 8965 / 2018

الترقيم الدولي 3 - 165 - 765 - 977 - 978

1 - الأدباء (روايات)

2 - جوجل، نيقولاي

الجزء الأول

مقدمة الجزء الأول

«أمسيات قرب قرية ديكانكا: أليس هذا بعجيب؟ وما عسى أن تكون هذه الأمسيات؟ وكيف يقحمها على العالم رجل يربي النحل! اللهم ارحمنا! كأنما لم ينتف من ريش الإوز ما يفي بالحاجة إلى الأقلام، ولم يصنع من الخرق ما يكفي من الورق، ولم تقنع بقع المداد بما لوثت من أصابع الناس على اختلاف طبقاتهم! ثم تأبى النزوة بمربي نحل إلا أن يحذو حذوهم! أي، إن ما يطبع في أيامنا هذه لأكثر مما يسد حاجة المرء إلى ورق اللف!».

لقد دار في خلدي منذ شهر أن الناس سوف يتناولوني بمثل هذا الحديث، فإن قروياً على شاكليتي إذا أخرج أنفه من مكانه ودسه في هذا العالم الكبير، كان مثله كمثلك أنت سواء بسواء إذا قصدت داراً لسيد عظيم من الوجهاء، يهرع إليك الجميع ويلتفون حولك حتى تحس بأنك كالأبله المأفون. ولو اقتصر الأمر على خدم الطبقات العليا لهان عليك الأمر كثيراً، ولكن كل دعي حقير

تعس يتسكع في الفناء الخلفي خليق بأن يضايقك أ يضًا، ويهب هؤلاء فيدقون الأرض بأقدامهم ويصيحون بك: «إلى أين؟ وماذا تريد؟ اخرج أيها الفلاح»، وإني لمستطيع أن أقول لكم.. ولكن ما جدوى الحديث؟ لخير لي أن أذهب مرتين في السنة إلى ميرجورود حيث لم يرَ وجهي مساعد قاضي الناحية ولا القس الموقر في السنوات الخمس الماضية، من أن اختلف إلى مجالس علية القوم. على أنك إذا اختلفت إلى مجالسهم حق عليك أن تواجه النتائج مهما يكن من أمرها.

ونحن في ديارنا أيها القراء الأعزاء -وأنا لا أقصد الإساءة «فلا يضيرنكم أن يوجّه مربّي نحل مثلي الخطاب إليكم كما لو كنتم بعض أصدقائه أو خلانه القدماء؟ أجل، لقد جرت العادة في ديارنا أن الفلاحين في الدساكر يدأبون على التسلق إلى مصاطب الموافد يهجعون إليها طول الشتاء متى فرغوا من عملهم في الحقول، ونضع نحن مربّي النحل نحلنا في قبو مظلم، فإذا حل ذلك الوقت من السنة الذي تختفي فيه الكراكي من السماء وثمار الكمثرى من الشجر، رأيت بلا ريب نورًا يتلألأ في مكان من طرف الدسكرة عندما يأتي المساء، وسمعت على البعد ضحكًا وغناءً وعزفًا على القيثارة الروسية «البلاليكا»، وقد تسمع أحيانًا صوت كمان ولغظ وضوضاء.

تلك هي الحفلات التي نقيمها في المساء! وهي أشبه ما تكون

بحفلة الرقص، وإن كنت لا أنكر أنها لا تشبهها تمامًا، ذلك أنك لا تذهب إلى حفلة راقصة إلا لتقفز متبخرًا هنا وهناك، أو تتشاب ويدك على فمك. أما حفلاتنا فإن الفتيات يجتمعن فيها معًا في كوخ واحد لا ليرقصن بل ليشغلن بمغازلهن ومنادفهن، ويحق لك أن تقول إنهن يقمن بعملهن أولًا، فالمغازل تطنّ والأغاني تنساب متصلة متداركة، ولا ترفع إحداهن رأسها عن شغلها، حتى إذا اقتحم الفتیان الكوخ ومعهم عازف الكمان ساد الهرج والمرج، وبدأ اللهو والمرح، واندفع القوم إلى الرقص، ولن أستطيع أن أحدثكم عمّا يأخذون به أنفسهم من ألعاب.

ولكن أمتع ما يفعلون جميعًا هو أن يجتمعوا ويبدأوا في حل الألغاز، أو يكتفوا بتبادل الحديث، يا إلهي! أي قصص كانوا يقصون! وأي نوادر من الأيام الخالية كانوا ينبشون! ويا للأمور المخيفة التي كانوا يصفون! على أن ما كان يُروى من القصص في كوخ بانكو مربى النحل الأحمر الشعر لم يكن له مثيل في أي مكان آخر. أما السبب الذي جعل القرويين يلقبوني بذي الشعر الأحمر، فأني عاجز حقًا عن تبيانه. وإني لأعتقد أن شعري قد أصبح الآن أميل إلى المشيب منه إلى الاحمرار، ولا يخفى عليكم أن المرء في ناحيتنا إذا لُقّب مرة بقلب لصق به طول عمره. ويجتمع خيار القوم ذات مساء في كوخ مربى النحل ويجلسون إلى المائدة، وما عليك بعدئذٍ إلا أن تنصت إليهم! وأرجو أن تعلم أن هؤلاء

الضيوف ليسوا بحال من الطبقة الوضيعة، أو من الفلاحين، بل إن زيارتهم لخليقة بأن يشرف بها رجل أعلى مكانة من مربى النحل، فهل تعرف مثلاً فوما جريجوريفتش قندلفت كنيسة ديكانكا؟ أي رأس يحمله هذا الرجل بين كتفيه! وأي قصص ينطلق بها لسانه! ولتجدن في هذا الكتاب قصتين من قصصه. ولا يرتدي فوما أبداً سترة من غزل البيوت كتلك التي نعهدها في غيره ممن يعتلون مثل منصبه في القرى، وحاشاه أن يفعل ذلك! بل إنه ليلقاك دائماً حتى في أيام العمل، مرتدياً عباءة في لون عصيدة البطاطس الباردة مصنوعة من نسيج ناعم، اشترى الiardة منه بستة روبلات من بلتاوة. أما حذاؤه الطويل الرقبة، فلم يقل أحد في الدسكرة قط أن رائحة القطران تنبعث منه، وما من أحد يجهل أنه يجلوه بأحسن أنواع الشحم، وأنا أعلم أن كثيراً من الفلاحين يسرهم أن يضعوا بعض هذا الشحم في ثريدهم، ولا يحق لإنسان أن يزعم أبداً أنه يمسح أنفه في طرف قميص عباءته، كما يفعل الكثيرون من أرباب مهنته، حاشاه! بل إنه ليخرج من صدره منديلاً أبيض نظيفاً طوي في عناية وطرزت أهدابه بالقطن الأحمر، ثم يستعمله على خير وجه يُستعمل فيه، ويعود فيطويه كشأنه اثنتي عشرة طية، ثم يرده إلى مكانه في صدره.

وثمة رجل آخر: شاب مهذب ظريف، حتى لنحسبه في يسر مساعداً للقاضي أو ملاحظاً لأرض، فإذا قصّ عليك قصة رفع إصبعه،

وأخذ يمعن النظر في أنملته، وهو يعتمد إلى التلاعب بالألفاظ وتنميق الكلمات مما لا تجد له مثيلاً إلا في كتاب، وتروح تنصت إليه ثم تنصت حتى تملكك الحيرة ويرتبك عقلك، فلا تستطيع مهما جهدت أن تعرف لما يقول رأساً من ذنب. ترى من أين التقط كل هذه الكلمات؟ وقد سخر به فوما جريجوريفتش يوماً لهذا السبب، وقص عليه قصة فتى كان يتلقى دروساً في اللاتينية على شماس، ثم عاد إلى أبيه عالماً باللغة اللاتينية، حتى لقد نسي لغة بلادنا، وأخذ يلحق بآخر كلمة مقطوعاً لاتينياً، فالمجرفة عنده مجرفوس والسماك سمكوس. واتفق يوماً أن رأى وهو في صحبة أبيه في الحقول مجرفة، فسأله «ماذا تُسمِّي هذه يا أبي؟»، ولم ينظر الفتى إلى موضع قدمه فوطئ أسنان المجرفة فارتفع مقبضها قبل أن يستطيع أبوه الإجابة، وأصابته في رأسه، فصاح وهو يضع يده فوق جبهته ويقفز نصف ياردة في الهواء: «ألا لعنة الله على هذه المجرفة، وليطوح الشيطان بأبيها من فوق الجسر!»، وهكذا تذكر اسمها أخيراً.

ولم ترق هذه القصة في عين قصاصنا المُدَّعي، فنهض من مقعده دون أن ينبس ببنت شفة، ووقف في وسط الغرفة وقد انفرجت ساقاه، ومال برأسه قليلاً إلى الأمام، ودس يده في الجيب الخلفي لسترته التي يحاكي لونها لون البازلاء الخضراء، وأخرج صندوق سعوطه المستدير المطلي باللك، ونقر على وجه القائد المنقوش

على الصندوق، ثم أصاب من السعوط المخلوط بمسحوق خشب الدردار وأوراق نبات الكاشم قدرًا مليحًا، وثني مرفقه ورفع يده إلى أنفه ونشقه دفعة واحدة دون أن يستعين بإبهامه، أجل، فعل ذلك كله دون أن ينبس ببنت شفة، ولم يتمم بشيء إلا عندما أخرج من جيب آخر من جيوب سترته منديلًا أزرق من القطن منقوشًا بمربعات، بل إنني لأظن أن هذا الشيء كان يدور حول الحكمة التي تنهى المرء عن أن يلقي بدرره أمام الخنازير، وقلت أحدث نفسي: «إن خلافًا سوف ينشب»، فقد بدا لي من أصابع فوما جريجوريفتش أنه يهيم بإبداء سخطه، ومن حسن التوفيق أن زوجتي العجوز قد تخيرت تلك اللحظة بالذات لوضع الكعك الساخن والزبد على المائدة. وأقبلنا جميعًا نصيب نصيب منهما ما نُصيب، ومد فوما جريجوريفتش يده ليتناول كعكة ساخنة، فصرفه ذلك عن أن يومئ بها إيماءة نابية، وراح الجميع كشأنهم يتحدثون بمهارة زوجتي في الطهو.

ولدينا قصاص آخر، ويحسن بنا ألا نفكر فيه ليلاً، فإن في جعبته من القصص المخيفة ما يقف له شعر رأسك، وقد أهملت قصصه عمدًا، ذلك أن خيار الناس قد يملكهم الفزع، حتى يخافون من مربى النحل خوفهم من الشيطان نفسه، ولو مد الله في عمري إلى أن أدرك العام الجديد وأخرج مجلدًا آخر، فمن يدري لعلني أوقع الرعب في قلوب قرائي الكرام بشيء من قصص الأشباح والعجائب التي شاهدها الناس في الأيام الخالية في هذا

البلد المسيحي، ولعلكم تجدون فيها بعض قصص يرويها مربى النحل نفسه لأحفاده، وأنا زعيم بأن لديّ منها ما يكفي ملء عشر مجلدات لو شاء الناس أن يقرأوا ويعوا، ولم أصب أنا بأفة الكسل، فتعوقني عن التفتيش عن هذه القصص في زوايا مخيلتي.

ولكن دعنا من هذا! فقد نسيت ما هو أهم: ذلك أنني أرجوكم أيها السادة أن تسلكوا الطريق العام رأسًا إلى ديكانكا عندما تأتون لزيارتي، وقد وضعت الاسم على صفحة الغلاف عن قصد حتى يكون وصولكم إلى دسكرتنا أسهل وأيسر، ولا شك عندي في أنكم سمعتم الكثير عن ديكانكا، وليس منزل مربى النحل فيها سبة في جبين منزلها. أما الحديقة فأنا زعيم بأنكم لا تجدون مثلها في مدينتكم سانت بطرسبرج، وما عليكم عندما تبلغون ديكانكا إلا أن تسألوا أي غلام من الغلمان الصغار الذين يرتدون قميصًا قذرًا ويرعون الإوز: «أين يقيم بانكو الأحمر الشعر مربى النحل؟»، فيجيبكم بقوله: «هناك»، وهو يشير بإصبعه، وإذا شئتم قادكم إلى الدسكرة، ويجدر بي أن أسألكم شيئًا واحدًا هو ألا تسيروا مختالين واضعين أيديكم خلف ظهوركم، فإن طرق قرينتنا ليست في نعومة طرق المركبات المؤدية إلى قصوركم، فقد كان فوما جريجوريفتش يسوق عربته قادمًا من ديكانكا في العام الأسبق، فسقط في حفرة هو وفخه الجديد وفرسه الأشقر وكل ما كان في العربة، بالرغم من أنه كان يسوق بنفسه ويلبس نظارة أيضًا.

على أننا سنقدم إليكم حين تصلون أطيب ما ذقتم في حياتكم
من البطيخ، وصدقوني إنكم لن تجدوا في أي دسكرة أخرى شهذاً
أشهى من شهدنا، فإذا جئتم بقرص من أقراصه انتشر في الغرفة
عبير لا يخطر ببال، وبدا لكم صافياً صفاء الدمعة أو البلورة الثمينة
التي ترونها في الأقراط. وما بالكم بالفطائر التي ستحفكم بها
زوجتي العجوز! يا لها من فطائر كالسكر أو هي السكر بعينه! فما
إن تمس شفاهكم حتى يذوب الزبد فيها أو يكاد. تالله إن هؤلاء
النسوة لقادرات على أن يأتين بكل شيء! وقد ذقتم في حياتكم
خمر الكمثرى المطيبة بالخوخ البري أو احتسيتم فودكا الزبيب
الممزوجة بالبرقوق، أو البليلة باللبن؟ يا إلهي! ما أكثر ما عندنا
من لذائد وأطيب! وما إن تشرعون في أكلها حتى تعلموا أنها من
خصائص المآدب ولا شك، ولقد حدث في العام الماضي.. ولكن
ما بالي أنساق في الحديث هذا الانسياق؟ حسبكم أن تأتوا لزيارتنا
بأسرع ما يمكنكم، فنقدم لكم من الطيبات ما يجعل ألسنتكم
تتحدث بها مع كل من تلقون من الناس.

بانكوا الأحمر الشعر

مربي النحل



سوق سوروتشنستي

-١-

لقد سئمت الكوخ. فآه لو أخذتموني من
هنا إلى حيث الضجيج والعجيج والفتيات
يرقصن فرحات، والفتيان يمرحون ويلهون!
(من قصة شعرية قديمة)

لشد ما يبهج القلب ويروع النفس أن تشهد يومًا من أيام الصيف
في أوكرانيا! وما أمتع الدفء تحس به عندما يتألق ضوء الظهيرة في
غمرة السكون والحرارة القائضة، ويبدو أديم السماء في زرقته وامتداده
الفسيح وقد استدار كالقبة البديعة الحسن وسان غارقًا في نعيم الكسل
والاسترخاء، يعانق الأرض الجميلة، ويضمها إلى صدره الأثيري ضمًا
قويًا، لا تغشاه سحابة، ولا تُسمع من تحته نائمة ولا صوت، ويشمل
السكون كل شيء ويكاد يسلبه الحياة إلا من قنبرة تغرد في طبقات الجو
العليا، فتنساب أنغامها الفضية على الأرض المفتونة الوالهة، وينبعث
في السهب من حين إلى حين صياح النمرس أو صغير السمان، وتقف
أشجار البلوط الشامخة مسترخية خلية البال، كأنها نفر من الضاربين

في الأرض يهيمنون بلا غاية ولا قصد، وتلوح من أشعة الشمس بوارق
تخطف البصر فتضيء حشدًا بهيجًا من أوراق الشجر، وتلقي على غيره
من الأوراق ظلًا أسود كالليل يخالطه إذا هبت الريح وشي من ذهب،
وتحوم هوام الجو كومضات الزمرد والياقوت أصفره وأحمره حول
حدائق المطابخ البهيجة التي يتسمنها عباد الشمس المهيب الجليل،
وتصطف أكداس الدريس الشهب وحزم القمح الذهبية كالخيام في
السهل منتشرة في أرجائه الفسيحة، وتنوء الأوراق العريضة لشجر
الكرز والبرقوق والتفاح والكمثرى بما تحمل من فاكهة، وتنسبط
السماء كالمرآة الصافية ويرفل النهر في بساط سندسي مزهواً فخورًا!
ألا ما أمتع الصيف في أوكرانيا وأفتنه وأبعثه على الراحة
والاسترخاء!

وقد تمثل هذا النعيم والبهاء كله في يوم حار من أيام شهر أغسطس
عام ألف وثمانمائة.. ألف وثمانمائة.. أجل، كان ذلك من نحو ثلاثين
عامًا حين كان الطريق فيما وراء قرية سوروتشنستي بعشرة فيرستات يعج
بالناس يهرولون إلى السوق من المزارع، قاصيها ودانيها، وقد سارت
العربات الممتلئة بالسّمك والملح منذ الصباح الباكر في رتل لا ينتهي
على طول الطريق، وكانت جبال من القدور المحزومة بالقش تسير في
بطء وكلال، كأنما أدركتها الملالة والسّام من حبسها في الظلام، وإنما
يلوح من بينها هنا وهناك «سلطانية» أو جرة باهرة الطلاء تطل مزهوة
من خلف الحاجز الممسك بذلك الكوم العالي المكّس فوق العربة،
مجتذبة أنظار أولئك الذين تستهويهم هذه الكماليات. وراح كثير من

المارة ينظرون بعين الحسد إلى الفخراي الطويل القائمة صاحب هذه الكنوز، وهو يسير في بطء وتمهل خلف بضاعته، يرد بين الفينة والفينة طرائفه من الفخار بعناية إلى مواضعها من القش الذي سئمه. وكان زوج من الثيران الكليلة يجر على جانب من الطريق بمعزل عن رتل العربات، عربة تكدست فوقها أكوام عالية من الأكياس والقنب والكتان والأدوات المنزلية على اختلافها، يتبعها صاحبها وقد تسربل بقميص نظيف من الكتان وسروال قذر من الكتان أيضًا، وراح يمسح بيده في تكاسل وبلادة وجهه الأسمر من أثر العرق الذي يتقاطر من شاربهِ الطويل الذي ذر عليه الذرور ذلك الحلاق العاتي الذي يحل بالمليح والقبيح على السواء من غير دعوة، أجل ذلك الحلاق الذي ظل آلاف السنين يذر الذرور قهراً على الناس ولم ينج منه أحد من بني الإنسان. وسارت إلى جانب الرجل فرس شُدت إلى العربة، وقد نَمَّ انكسارها ووداعتها عما بلغته من سن عالية.

وكان كثير من المارة، وبخاصة الفتيان، يخلعون قبعاتهم وهم يمرون بفلاحنا، ولم يحملهم على ذلك شاربهِ الأشيب أو خطوته الوقور، بل شيء آخر كان لا يقتضي من المرء إلا أن يرفع عينه قليلاً ليكشف عن سر هذا الاحترام، ذلك أن ابنته الجميلة كانت تجلس فوق العربة، فتاة ذات وجه مستدير، وحاجبين أسودين تقوسا في استواء فوق عينين صافيتين عسليتين، وشفَتين ورديتين ضاحكتين، وقد التفت الشرائط الحمر والزرق في ثنايا ضفائرها الطويلة فتوجت هي وباقية من الأزهار البرية رأسها الفاتن، وبدا للأُنظار أن كل شيء يثير اهتمام

الفتاة، فقد كان كل شيء جديدًا يثير العجب، وكانت عيناها الجميلتان تتوبان طوال الوقت متنقلتين من شيء إلى شيء، وأي عجب في أن يثور اهتمامها، وقد كانت هذه أول مرة تزور فيها سوقًا من الأسواق؟ وما بالك بفتاة في الثامنة عشرة من عمرها تجد نفسها في سوق لأول مرة؟ ولم يك أحد من المارة يدري مقدار ما بذلته من جهد لإقناع أبيها باصطحابها معه، وقد كان الرجل مستعدًا للاستجابة إلى طلبها قبل ذلك، لولا زوجة أبيها الحقود التي تعلمت أن تسوس قياده بالمهارة التي يقود هو بها فرسه العجوز الآن إلى السوق لبيعها جزاء لها على ما قضت في خدمته من سنين طويلة. ألا تبتًا لتلك المرأة المزعجة! ولكننا ننسى أنها كانت هي أيضًا تجلس على قمة الحمل وقد ارتدت سترة خضراء أنيقة من الصوف، زيتتها بذيول صغيرة تقلد بها فراء القاقم الثمين، على الرغم من أن هذه الذيول كانت حمر اللون، كما ارتدت نقبة رائعة ذات مربعات بارزة من سمات الجلال على وجهها المستدير الأحمر الذي كان ينم عن طبيعة نكدة شرسة، ترد كل متطلع إلى الانصراف عنه سريعًا إلى وجه الفتاة الصبوح المشرق.

وترأى نهر بسيول لأعين مسافرينا، بل هم قد أحسوا على البعد منه بجوه الرطيب المنعش، فهشت له نفوسهم بعد أن نالت منها الحرارة اللافتة كل منال، وبدت لمحات من الماء البارد تتألق من ثنايا الأوراق الداكنة والأوراق الخضرة الزاهية لأشجار التامول والخور التي انتشرت في أرجاء السهل بلا نظام ولا عناية، وفتح النهار البديع صدره الفضوي المشرق وقد حنت عليه هدائل الأشجار الخضرة وافرة غزيرة،

وكان يغير مجراه كل عام تقريباً، ويتخير مجرى جديداً، ويحوط نفسه بمناظر جديدة مختلفة الألوان والأشكال، أجل كان يفعل ذلك عن وعي وإدراك، كأنه عادة فاتنة تبرز مرآتها الأمانة في هذه الساعات الساحرة قوامها البديع وجبينها الوضاء الشامخ وكتفيها اللتين اكتستا بلون الزنبق وعنقها المرمرى تغشاه أمواج من شعرها الأسود، ثم تطرح في ترفُّع وأنفة حليلة من الحلي لتستبدل بها أخرى، وقد استرسلت في نزواتها استرسالاً لا يُعرف له آخر. وكانت صفوف من طواحين الماء ترفعه في أمواج كبيرة بعجلاتها الثقيلة، ثم تعود فتقذف به الأرض في عنف وقوة، وتمخضه مخضاً يستحيل معه إلى زبد ينتشر محدثاً هديرًا عظيمًا.

وفي تلك اللحظة بلغت العربة الجسر هي والأشخاص الذين وصفناهم، وانبسط النهر أمامهم بكل ما حباه الله من جمال وجلال كأنه صفحة من زجاج، وانعكست على أديمه السماء والغابة الخضراء والزرقاء الداكنة والرجال وعربات القدور وطواحين الماء، فبدت جميعاً منقلبة رأساً على عقب، ولكنها لسبب من الأسباب لم تغص في أعماق النهر الزرق الجميلة.

واستغرقت غادتنا الفاتنة في التأمل سارحة ببصرها في هذا المنظر البديع، وبلغ من استغراقها أنها نسيت أن تقضض بزور عباد الشمس التي كانت مشغولة بأكلها طول الطريق، وطرق أذنها فجأة صوت يقول: «يا لها من فتاة!»، فتلفتت فرأت جماعة من الشبان يقفون على الجسر، وقد تألق واحد منهم في ملابسه أكثر من أصحابه، وارتدى سترة بيضاء وقبعة رمادية من فراء أستراخان، وراح ينظر في مِرْح إلى المارة واضعاً

يديه في خاصرته، ولم يسع الفتاة إلا أن تلاحظ وجهه الطلق الذي لفحته الشمس، وعينيه المتألفتين اللتين كانتا فيما يلوح تحاولان جاهدتين أن تنفذا إلى أعماقها، وأرخت الفتاة بصرها إذ طاف بذهنها أن هذا الشاب قد يكون هو الذي نطق بهذه الكلمات.

ومضى الشاب ذو السترة البيضاء يقول وعيناه لا تتحولان عنها: «يالها من فتاة رائعة!، وإنني لأبذل كل ما أملك في سبيل قبلة منها! ولكن انظروا إلى تلك الحيزبون التي تجلس في مقدمة العربة»!

وانفجر الشبان ضاحكين جميعاً، ولكن زوجة الفلاح البطيء الحركة التي كانت قد ارتدت من الملابس أكثر مما ينبغي، لم تسرها هذه التحية، فاضطرم خداهما الوردان بنار الغضب، وانهالت على رأس الشاب بسيل من الشتائم المتنقاة.

«ألا فليزهق الطاعون روحك أيها المراكبي الخبيث! ولتنزلن برأس أبيك قدراً فتحطمه! ولتتشر قدمه على الجليد، هذا الكافر الملعون! وليحرق الشيطان لحيته في جهنم!».

وقال الشاب وهو يحدق فيها النظر، كأنما أذهلته هذه السهام الحادة من التحيات المفاجئة: «بالله أنصتوا إليها! وانظروا كيف تطلق هذه الحيزبون لسانها بمثل هذه الكلمات! إنها لتبلغ من العمر المائة ولا تنقص يوماً!».

وردت العجوز الشمطاء عليه قائلة: «مائة؟ أيها الوثنى، اذهب واغسل وجهك أيها الوغد الحقير! إنني لم أر أمك قط، ولكنني أعلم أنها قدرة وأن أباك قدر، وعمتك قدرة! مائة حقاً! أيها الخنزير الأمخط!».

وكانت العربية تبتعد عن الجسر، فغابت الكلمات الأخيرة عن
الأسماع، إلا أن الشاب لم يكن يريد فيما يظهر أن ينتهي الأمر عند هذا
الحد، فبادر من غير ترو إلى التقاط حفنة من الطين ورماها بها، وأصابته
الرمية أكثر مما كان يُرجى لها، وتناثر الطين فلطخ القبعة الملونة كلها،
وازدادت قهقهة الأوغاد المعربين علوًا وصخبًا، وغلى رجل الغيظ
في صدر الحيزبون البدينة، بيد أن العربية كانت قد ابتعدت كثيرًا، فصبت
جام غضبها ونقمتها على رأس كنتها البريئة وزوجها البطيء الحركة،
وكان الرجل قد ألف هذه الاعتداءات منذ وقت طويل، فلزم الصمت
في إصرار وعناد، وأخذ ينصت ساكن الجأش إلى شقشقة لسان زوجته،
ولم ترعو المرأة، بل مضى لسانها الذي لا يدركه التعب في الشقشقة
حتى بلغت العربية بيت صديقهم وخلهم القديم، وهو قوزاقي يُسمّى
تسيوليا يقيم في ضواحي القرية. وتلاقى الأصدقاء القدماء بعد فراق
طويل، ونسي مسافرونا هذا الحادث المؤسف إلى حين في غمرة
حديثهم عن السوق، وأخلدوا إلى الراحة بعد رحلتهم البعيدة.



رباه! أي شيء لا تجده في تلك السوق،
إن فيه عجلات وزجاجًا للنوافذ، وقطرانًا
وتبغًا وأحزمة وبصلًا، وحوانيت لبيع السلع
الصغيرة على اختلاف أنواعها.. وهيئات أن
تشتري ما في السوق جميعًا وإن امتلأ جيبك
بثلاثين روبلاً نقدًا وعدًا!

(من ملهاة أوكرانية)

أو قد سمعت شلالًا يتدفق ماؤه فيصطخب الجور من حولك
ويختلط فيه الهدير وأصوات مضطربة غريبة مبهمّة؟ ألا يملكك فورًا
هذا الشعور نفسه وأنت تضرب في لجة سوق من الأسواق التي تقوم في
القرى حين يمتزج الناس جميعًا في كتلة واحدة أشبه بالوحش المخيف
الهائل يتحرك جسمه كله في ساحة السوق وفي الطريق الضيق، يصبح
ويضحك ويضوضي؟ ويختلط الصخب والسباب والخوار والثغاء
والضجيج والعجيج في هدير واحد مهوش مضطرب، فترى الثيران
والأكياس والدريس والنور والقذور والفلاحات والكعك والقبعات،
أجل ترى كل شيء وقد بدا في ألوان زاهية براقة متنافرة يندفع في هرج

ومرج أمام ناظريك، وتطغى بعض الأصوات المختلفة على بعض، فلا تستطيع أن تلتقط كلمة واحدة أو تظفر بها في خضم هذا الطوفان، بل لا تستطيع أن تميز صيحة واحدة، وتسمع الأيدي تتقارع في كل مكان متصافحة دليلاً على إبرام صفقة من الصفقات، وترزح عربة بما تنوء من حمل وتتحطم، وتطرق أذنك أصوات قعقة الحديد وارتطام الألواح الخشبية تهوي إلى الأرض، فيتصدع رأسك من الدوار، ولا تعرف أي طريق تسلك!

وكان صاحبنا الفلاح الذي عرفناه وشيئاً قد أخذ منذ حين يشق طريقه وسط الزحام ومعه ابنته الكحيلة العين، ومضى الرجل إلى حمل عربة من العربات وتحسس بيده حملاً آخر وسأل عن الأثمان، وظلت أفكاره تحوم حول عشرة الأكياس من القمح والفرس العجوز التي جاء بها إلى السوق لبيعها، وتجلى على وجه ابنته شيء من الضيق لاحتكاكها بعربات الدقيق والقمح. لقد كانت نفسها تتوق إلى غشيان المكان الذي تعرض فيه الأشرطة الحمر وأقراط الصفيح والصلبان المصنوعة من النحاس والدنانير الذهبية عرضاً جذاباً تحت مظلات من الكتان، على أنها كانت تجد في المكان الذي كانت تلم به أشياء كثيرة جديدة بالانتباه، فقد سرها غاية السرور منظر نورية وفلاح قرع كل منهما يد صاحبه قرعاً عنيفاً بعد أن عقدا صفقة حتى صرخا من الألم، ومنظر يهودي ثمل يلكز امرأة في ردفها، ومنظر بائعتي سمك تتبادلان السباب وتتضاربان بسرطان الماء العذب، ومنظر روسي يربت لحية تيسه بإحدى يديه، أما اليد الأخرى... ولكنها شعرت في تلك اللحظة

بشخص يجذبها من كُفِّ صدارتها المطرزة، فالتفتت فرأت الشاب المشرق العينين ذا السترة البيضاء يقف أمامها، ففزعت وخفق قلبها كما لم يخفق من قبل قط لفرح استخفه أو حزن ألم به، فقد أحست بشعور غريب لذيذ، لم تستطع أن تدرك كنهه.

وقال لها الشاب في صوت خفيض وهو يأخذ بيدها: «لا تراعي يا فاتنتي! لا تراعي! فلن أقول شيئاً يصيبك منه ضرر!».

وحدثت الفتاة نفسها قائلة: «لعلك لا تفعل، ولكن ثمة شيئاً غريباً، وقد يكون هذا الشيء هو إبليس اللعين! وإني لأعلم أن هذا الذي يلم بي بعيد عن الصواب، ولكني لا أجد في نفسي القوة على سحب يدي». وتلفت الفلاح وهمّ بأن يقول شيئاً لابنته، وإذا به يسمع كلمة «القمح» تتردد، فحملته هذه الكلمة ذات السحر على أن يلحق من فوره بتاجري قمح كانا يتحدثان بصوت مرتفع، وأصم أذنه عن سماع أي شيء آخر.



ألا ترى أي فتى هو؟ إنه لفتى قلَّ أن تجد له
ضريباً في هذا العالم، فهو يحب الفودكا كأنها
الجنة!

«الإنباذة لكوتليار يفسكي»^(١)

وسأل أحد التاجرين، وكان يبدو عليه أنه من أهل الحضر، يرتدي
سروالاً مصنوعاً من قماش خشن من غزل البيوت وقد لطخه القطران:
«إذنْ فأنت تظن أيها الجار أننا لن نبيع قمحنا بثمن مناسب».

فقال صاحبه، وكان رجلاً علا جبهته ورم كبير، يرتدي سترة زرقاء
تناثرت الرقع فيها: «إني لا أظن، بل أقول قول الواثق، وإني لعلی
استعداد أن أضع حبل المشنقة حول رقبتی، وأتدلى من تلك الشجرة
كما تتدلى المقانق (السجق) في الكوخ قبل عيد الميلاد إذا بعنا بوشلاً
واحداً».

ورد الرجل الذي يرتدي ذلك السروال من غزل البيوت: «على
رسلک أيها الجار، فما جاء أحد بقمح سوانا».

(١) كوتليار يفسكي: شاعر أوكراني معاصر لجوجل. و «الإنباذة» صورة هزلية لملحمة فرجيل!

وقال والد غادتنا الحسناء بينه وبين نفسه، ولم تك قد فاتته كلمة واحدة من حديث التاجرين: «فلتقل ما شئت، فإني أدخر عشرة أكياس».

وقال الرجل الذي يعلو جبينه ورم متطيرًا: «إيه، وإنك لترى أن الأمر لا يعدو ما أقول، وهو أن الشيطنة إذا دخلت في شيء فلن تصيب منه أكثر مما تصيب من مسكوفي جائع».

وقال الرجل الذي يرتدي السروال من غزل البيوت: «وماذا تعني بالشيطنة؟».

وقال صاحب الجبين الوارم وهو ينظر إليه شزرًا من طرف عينيه الحزینتین: «ألم تسمع ما يقوله الناس؟».

«وما بالهم؟».

«جميل منك أن تقول ما بالهم! ولكن مساعد القاضي - لا قدر له أن يمسح شفثيه مرة أخرى أبدًا بعد أن يصيب من خمر النبلاء المصنوعة من البرقوق ما يصيب - قد خصص للسوق بقعة مشؤومة ينشق جنباك قبل أن تنصرف في حبة واحدة من القمح. أو ترى تلك الصومعة القديمة المتهدمة التي تقوم هنالك في سفح التل؟». (وما إن بلغا في الحديث هذا الحد حتى اقترب منهما الفلاح الفضولي، وأصبح كله آذانًا مصغية)، «إن جميع الألعاب الشيطانية تجري في هذه الصومعة، وما من سوق قامت في هذه البقعة إلا حفت بها المتاعب. وقد مر بها كاتب الناحية في ساعة متأخرة من الليلة الماضية، فأطل عليه فجأة من غرفة الدار العليا خطم خنزير، وقبع الخنزير بصوت عال جهير ارتعدت له فرائصه، وأغلب الظن أننا سنعود لمشاهدة السترة الحمراء مرة أخرى».

«أي سترة حمراء؟».

ووقف شعر صاحبنا الفلاح الذي كان ينصت باهتمام إلى حديث الرجلين عندما سمع هذه الكلمات، وتلفت فرعًا، فرأى ابنته هي والشاب واقفين وقد طوق كل منهما خصر صاحبه بذارعه، وراحا يتهامسان متعابئين بكلمات رقيقة عذبة غير عابئين بكل ما في العالم من سترات، وبدد هذا المنظر ما تملك الفلاح من رعب وأعاد إلى نفسه الطمأنينة والهدوء.

«إيه أيها الجار! يبدو لي أنك تعرف كيف تضم فتاة إلى صدرك! لقد قضيت ثلاثة أيام بعد زواجي من خفسكا المسكينة، رحمة الله عليها، قبل أن أتعلم كيف أضمها إلى صدري، وكان الفضل في ذلك لصديق كان شاهد عرسي، وهو الذي لمح بذلك من طرف خفي».

وأدرك الشاب أن أبا فاتنته لم يكن من أرباب البديهة الحاضرة، فأخذ يدبر الأمر لنيل الحظوة عنده.

«يلوح لي أيها الصديق العزيز أنك لا تعرفني، أما أنا فقد عرفتك في الحال».

«أحقًا ما تقول؟».

«أجل، وإن شئت ذكرت لك اسمك ولقبك وكل شيء يتصل بك، وأن اسمك هو سولوبي شيريفيك».

«أصبت، سولوبي شيريفيك».

«انظر إليَّ جيدًا - ألا تذكرني؟».

«كلا، لا أذكرك، ولست أقصد بذلك أن أسيء إليك، فقد رأيت في حياتي وجوهًا كثيرة جدًا على جميع الأنواع والأشكال، فكيف تريد مني أن أذكرها جميعًا».

«يحز في نفسي كثيرًا أنك لا تذكر أين جولو بوبنكو».

«وي! هل أبوك هو أواخريم؟».

«ومن يكون سواه؟ وإن لم يكن هو، فلعله يكون جدي العجوز الأصلع نفسه».

وعندئذ خلع الصديقان قبعتهما، وراح كل منهما يُقبِّل الآخر، وصح عزم ابن جولو بوبنكو على أن ينفذ إلى قلب صديقه الجديد دون أن يضيع في ذلك وقتًا.

«إن حقيقة الأمر يا سولوبي هي أنني تعلقت بابتك كما تعلقت هي بي، حتى صح منا العزم على أن نقضي بقية أيامنا معًا».

وقال شيريفيك وهو يضحك ويلتفت إلى ابنته: «مرحى يا باراسكا، ولعل الله قد وفقكما حقًا، أنت وهو، إلى أن ترعيا مرعى واحدًا كما يقولون! هلم هلم، هل اتفقتما؟ هات يا زوج ابنتي الجديد، وقدم لي كأسًا نعقد بها الصفقة!».

وألفى الثلاثة أنفسهم في حانة السوق المشهورة، وهي خباء ليهودية زيتته بحشد من الأواني والزجاجات والقناني من كل صنف ونوع.

وقال شيريفيك وقد لعبت الخمر برأسه قليلًا، إذ رأى زوج ابنته المرتقب يملأ إبريقًا سعته ١٢٥ درهمًا ويجرعه دفعة واحدة دون أن

يطرف له جفن، ثم يقذف به إلى الأرض فيهشمه تهشيمًا: «يا لك من شاب حاذق فطن! وأنا أحب فيك هذا! ما قولك يا باراسكا؟ ألم أجد لك زوجًا مليحًا؟ انظري كيف يحب الشراب عبًّا!».

ومضى الرجل بصحبة الفتاة إلى عربته وهو يضحك ويترنح، أما الشاب فقد شق طريقه إلى المظلات التي عرضت فيها أدوات الزينة، وكان فيها تجار من جادياخ نفسها، بل من ميرجورود. وهما مدينتان مشهورتان من أعمال بلتاوة، واختار أحسن غليون من الخشب المحلي برباط أنيق من النحاس، ومنديلًا أحمر منقوشًا بالزهر، وقبعة، ليقدمها في الزفاف هدايا إلى حميه، وإلى من هم جديرون بهذه الهدايا.



إذا أراد الرجل شيئاً وأرادات زوجته شيئاً
آخر، فأنت تعلم لمن تكون الغلبة!
«كوتليارفسكي»

«مرحي يا امرأتي، لقد وجدت زوجاً لابنتي».

«عجباً لك! هل هذا هو الوقت المناسب للبحث عن الأزواج؟ يا
لك من أبله مأفون! ولا شك أنه قد كتب عليك يوم ولادتك أن تلازمك
هذه الصفة! وإلا فخبرني هل في الخلق من أحد رأى أو سمع برجل
وقور يتصيد الأزواج في وقت كهذا؟ لخير لك أن تفكر في وسيلة
تخلص بها من القمح الذي بين يديك! ولا شك عندي أيضاً في أنك
قد عثرت على شاب مليح فصيح! إنني لأتوقع أن يكون هذا الشاب هو
أحقر سائل في هذه الناحية كلها!».

«إيه، ليس فيما تقولين ظل من الحقيقة! ولشد ما أتمنى أن تري
أي فتى هو! إن سترته البيضاء وحدها لأغلى من صدارتك الخضراء
وحذائك الأحمر، فكيف بك إذا رأيته يعب الفودكا عباً؟ ألا فليذهب
بي الشيطان وليذهب بك أنت أيضاً، إن كنت قد رأيت من قبل شاباً مثله

يجرع نصف لتر من الفودكا دون أن تطرف له عين!».

«صدقت! فإنه إن كان سكيرًا أفًا كان على مشربك وهواك. ولا ضير من أن أراهن بأنه هو ذلك الوجد الذي أقلق منا الخواطر على الجسر، ولشد ما يحز في نفسي أنني لم ألقه بعد، حتى أردته إلى جادة العقل والصواب».

«وماذا لو كان هو الشاب نفسه يا خيفريا؟ وما بالك تقولين إنه وغد؟».

«أتسألني لماذا أقول إنه وغد؟ هلا تستمعون إلى هذا الرأس العجوز الفاسد! أين كانت عينك الخاملتان عندما كنا نسوق العربنة مارين بالطواحين؟ رجل تهان زوجته تحت أنفه الكريه ولا يحرك ساكنًا!».

«لست أرى فيه عيبًا على كل حال، فهو فتى ولا كل الفتيان! وكل ما فعله أنه لطح وجهك القبيح بالروث فحسب».

«ويحًا لك! فإني أرى أنك لا تتركني أقول كلمة واحدة! ماذا دهاك؟ لا شك أنك قد أصبت كأسًا قبل أن تبيع شيئًا!».

وعندئذ أدرك شيريفيك أنه قد انساق في القول أكثر مما يجب، فأسرع وغطى رأسه بيديه، ولا شك أنه توقع أن زوجته الغاضبة ستمسك شعره ببرائتها الزوجية!

وقال يحدث نفسه وهو يتراجع مشفقًا من ثورة زوجته الحانقة: «يا للجنة، ولبئس المصير الذي ينتهي إليه زواجنا! أو حق عليّ أن أرفض

فتى مليحًا لغير ما عذر أو سبب؟ رحماك يا الله! لم رميتنا بهذا البلاء
نحن المساكين الخاطئين؟ وكيف اقتضت إرادتك أن تخلق لنا النساء
على ما في هذا العالم من شرور كثيرة جمّة؟».



لا تذوي يا شجرة الدلب، فيما زلت خضراء
يانعة، ولا تقلق أيها القوزاقي اليافع، فما زلت
شاباً غض الأهاب.

«من أغنية أوكرانية»

جلس الشاب صاحب السترة البيضاء بجوار عربته يحملق شارد
الفكر في زحمة الناس الذين كانوا يوضون من حوله، وأخذت
الشمس الواهنة تنحسر عن الأرض بعد أن ظلت تسطع هادئة مطمئة
البال طيلة ساعات الظهيرة، وراح ضوء النهار يخبو في وهج سني
فتان، وتلاّأت قمم المظلات والخيم البيض بريق يخطف الأبصار
يغشاه وشي وردي باهت، وتألقت ألواح الزجاج في إطارات النوافذ
التي كدست للبيع، وكانت الأقداح الخضر والقناني التي على موائد
مظلات الشراب تومض وميض النار، وبدت تلال البطيخ واليقطين
كأنها صبت من الذهب والنحاس الداكن، وقل الكلام، وثقلت ألسنة
الباعة المتجولين والفلاحين والنور من التعب والكلال، وازدادت
حركتها كسلًا وتراخيًا، وبدأت الأنوار تشعشع هنا وهناك، وانطلق
البخار الطيب النكهة من لقيمات القاضي التي كانت تغلي، وانساب

فوق الطرقات التي خيم عليها السكون.

وصاح رجل من النور طويل القامة لفحت الشمس وجهه وهو يضرب صديقنا الشاب على كتفه: «ما الذي يحزنك يا جريتسكو؟ هلم، وبع لي ثيرانك بعشرين روبلاً!».

«إن حياتك كلها ثيران في ثيران، وأنتم معشر النور لا تفكرون إلا في الكسب، تغشون الشرفاء وتخدعونهم!».

«آه، أرى أن مرارتك قد انشقت من الغضب! ترى أضاق صدرك لأنك ربطت نفسك بفتاة؟!».

«كلا، ليس هذا من خلقي، فإني أحفظ عهدي، وما أفعله ألزمه دائماً، على أن ذلك الشيخ العجوز شيريفيك لا تنطوي جوانحه فيما يبدو لي على ما يساوي نصف كوبيك من الضمير، فقد وعد ولكنه نكث الوعد، ولا ضير في لومه فهو غبي أحمق وحسب، وكل هذا من صنع تلك العجوز الشمطاء التي سخرت بها جماعتنا من الفتيان على الجسر اليوم! ولو أنني كنت القيصر أو أي وجيه من أشرف القوم، لشنقت جميع أولئك الحمقى الذين يسلمون قيادهم للنساء».

«هل تبيعنا الثيران بعشرين روبلاً إذا نحن حملنا شيريفيك على أن يزوجك باراسكا؟».

وحملق جريتسكو فيه متعجباً، فقد كان يشوب وجه ذلك النوري الأسمر شيء ينم عن الحقد والخبث واللؤم، وإن كان في الوقت نفسه ينطوي على الغطرسة والكبر، وكان كل من ينظر إليه خليقاً بأن يجد في

تلك النفس الغريبة خصلاً وصفات عظيمة، وإن كان لا يستحق عليها من جزاء في عرف الناس على ظهر هذه الأرض إلا المشنقة! وكان فم الرجل غارقاً تماماً بين أنفه وذقنه الحاد الطرف تعلوه دائماً ابتسامة ساخرة، وعينان صغيرتان تضطربان كالنار، ويرق محياه بومضات في كل آن من الدس والوقية والإقدام، وقد بدا ذلك كله متمشياً مع الزي الغريب الذي كان يرتديه، فقد كانت سترته السمراء الداكنة التي يترأى للناظرين أنها خليقة بأن تستحيل تراباً إذا لمسها لامس، وشعره الأسود الطويل يسترسل على كتفيه في جدائل معقدة، وحذاؤه الذي يتعله في قدميه العاريتين اللتين لفحتهما الشمس، أجل كان ذلك كله فيما يلوح جزءاً لا يتجزأ منه.

وأجاب الشاب وهو لا يزال يحدق النظر في النوري بنظرات مستشفة: «سأبيعها لك بخمسة عشر روبلاً لا عشرين، ولكن لا تخدعني».

«خمسة عشر؟ اتفقنا! وإياك أن تنسى، خمسة عشر! هاك خمسة روبلات على الذمة!».

«وإذا خدعتني؟».

«كان ما في ذمتك لك».

«حسن! هات يدك إبراماً لهذه الصفقة!».

«اتفقنا».

كان الله في عوننا! فإن زوجي مقبل وليكونن
هنا بعد لحظة وليضربنني، أما أنت يا بان
خوما فلن تفلت بجلدك منه أيضًا!

«من ملهأة أوكرائية»

«من هنا يا إفناسي إيفانوفيتش! فإن السياج أكثر انخفاضًا في هذا
الموضع. ارفع قدمك ولا تخف، فقد مضى العجوز الأحمق صحبة
خله يقضي ليلته نائمًا تحت العربة حتى يطمئنا إلى أن المسكوفيين لن
يسرقوا شيئًا».

وهكذا شجعت زوجة شيريفيك العاتية ابن القس الذي كان يتعلق
بالسياج في ضعف وخور، فتسلق إلى قمة السياج، وبقي في موضعه
مترددًا لحظة كأنه شبح نحيل مخيف يبحث عن خير مكان يستطيع
أن يقفز منه إليها. وهبط الفتى آخر الأمر مرتطمًا بالأرض بين العشب
الغزير، فغمغمت خيفريا في قلق واضطراب قائلة: «يا إلهي! أرجو ألا
تكون قد أصبت نفسك بضر! حمدًا لله على أنك لم تدق عنقك!».

وهمس ابن القس في صوت ينم عن الألم وهو ينتصب على قدميه:
«صه، إني بخير، إني بخير يا عزيزتي خافرونيا نيكيفوروفنا، اللهم إلا ما

أصابني من القريض، ذلك العشب الذي يشبه الأفعى، على ما وصفه به
قمصنا الراحل».

«هيا بنا ندخل إلى المنزل فليس فيه من أحد، وكنت قد بدأت أظن
أنك أصبت بآلم في معدتك، فقد غبت عني طويلاً يا إفساسي إيفانوفتش،
كيف حالك؟ لقد سمعت أن أباك المبجل قد وفق في أعماله توفيقاً طيباً!».
«لم يوفق توفيقاً يستحق الذكر يا خافرونيا نيكيفوروفنا، فإن أبي لم
يتلقَ طوال أيام الصيام إلا خمسة عشر كيساً أو نحوها من دقيق الربيع،
وأربعة أكياس من الدخن، ومائة رغيف، أما الدجاج فلم يبلغ عدده
الخمسين، وكان معظم البيض فاسداً». ثم أردف ابن القس يقول وهو
ينظر إليها نظرة حب وحنان ويقترب منها: «إنما العطايا الحلوة حقاً لا
تأتي إلا منك يا خافرونيا نيكيفوروفنا!».

فقالت وهي تضع بعض الأقداح على المائدة، وتثبت أزرار قميصها
في دلال كأنها لم تفكها عمداً: «هاك عطية يا إفساسي إيفانوفتش! فطائر
باللبن المخثر، ولقيمات قاض مصنوعة من القمح، وقطائف وكعكاً!».
وقال ابن القس وقد راح يأتي على الكعك ويسحب إليه الفطائر
باليد الأخرى: «أراهن أنها من صنع أمهر يد خلقها الله من أيدي
بنات حواء، ولو أن قلبي يتوق حقاً إلى عطية منك أحلى من القطائف
ولقيمات القاضي!».
وقالت الحسناء الربلة وهي تتظاهر بأنها لم تفهم ما يرمي إليه: «لا
أدرى حقاً أي أطيب أخرى تريد يا إفساسي إيفانوفتش!».

وهمس ابن القس، وهو يمسك فطيرة بإحدى يديه، ويطوف
خصرها المليء بذراعه الطليق: «حبك طبعاً! أي خافرونيا نيكيفورفنا
يا زينة النساء!».

وقالت خيفريا وهي ترخي ببصرها إلى الأرض حياءً وخجلاً: «لا
أدري والله ماذا تعني يا إfnاسي إيفانوفتش! ولست أعجب إن حاولت
بعد أن تقبلني!».

واسترسل الشاب يقول: «أما ذلك فلا أكتملك أنني عندما كنت في
الجامعة، وإني لأذكر هذا الحادث كأنه وقع اليوم».

وفي تلك اللحظة طرق آذانهما صوت نباح وقرع على الباب
فهرعت خيفريا إلى الخارج مسرعة وعادت وقد شحب وجهها: «لقد
افتضح أمرنا يا إfnاسي إيفانوفتش، فثمة قوم كثيرون يقرعون الباب،
ويخيل إلي أنني سمعت صوت تسيوليا».

وغص حلق الشاب بالفطيرة، وجحظت عيناه حتى أوشكتا أن
تخرجا من رأسه، كأنما حل بها وشيكا شخص جاء من العالم الآخر.

وقالت خيفريا وقد تملكها الفزع: «تسلق إلى ذلك المكان!»،
وأشارت في الوقت نفسه إلى بعض الألواح الخشبية المثبتة في عرض
الروافد تحت السقف تماماً، وقد حملت من سقط المتاع أشكالا وألوانا.

واستثار الخطر شجاعة صاحبنا، فارتقى الموقد، وتسلق منه في
حذر إلى الألواح الخشبية، في حين هرعت خيفريا مسرعة إلى الباب،
وكان الطرق يشتد ويزداد إلحاحا.

ولكن هنا تحدث الأعاجيب يا مولاي!

«من ملهاة أوكرانية»

وكان قد وقع في السوق حادث غريب، إذ انتشرت في جميع أرجائها شائعات بأن السترة الحمراء شوهدت في مكان ما بين السلع، فقد خيل إلى خبازة أنها شاهدت الشيطان في صورة خنزير ينحني على العربات كأنه يبحث عن شيء. وسرعان ما طار النبأ إلى كل ركن من أركان المخيم الذي شمله السكون الآن، وظن الجميع أن تكذيب هذا النبأ جريمة من الجرائم، بالرغم من أن المرأة العجوز التي كان محلها يجاور خيمة الشراب كانت تصيب من خمر جارتها ما تصيب، حتى عجزت عن السير في خطوات مستقيمة متزنة. وأضيف إلى ذلك رواية أخرى عن تلك العجيبة التي شاهدها كاتب الناحية في الصومعة المتهدمة، واتصل نبؤها إلى الأسماع الآن بعد أن بالغ الناس فيها مبالغة عظيمة، وما إن بدا الليل يرخي سدوله حتى أخذ القوم يتكأ كأون، وقد فارقهم هدوء البال والطمأنينة واستعصى عليهم جميعاً أن يغمضوا عيونهم فزعاً ورعباً، أما ضعفاء القلوب منهم الذين كانوا قد التمسوا

لأنفسهم مضجعاً في كوخ يأويهم سحابة الليل فقد خرجوا عائدين إلى ديارهم، ومن بينهم شيريفيك هو وابنته وصديقه تسيبوليا، وكان هؤلاء وأصدقاؤهم الذين تطوعوا لمرافقتهم هم الذين قرعوا الباب بتلك الشدة التي أَلقت الرعب في قلب خيفريا، وكان تسيبوليا قد نالت منه الخمر قليلاً، فقد ساق عربته حول الكوخ مرتين قبل أن يتمكن من العثور عليه، وكان ضيوفه أيضاً قد جنحوا إلى اللهو والمرح، فشقوا طريقهم في غير ما كلفة إلى الكوخ، ودخلوه قبل مضيفهم، وجلست زوجة شيريفيك على أحرّ من الجمر عندما بدأوا ينقبون في كل من أركان الكوخ.

وسألها تسيبوليا وهو يدخل الكوخ: «ما بالك؟ أنتفضين من الحمى؟».

وأجابت خيفريا وهي تخالس النظر قلقلة إلى ما فوقها: «نعم، فإني مريضة».

فقال تسيبوليا: «هلمي يا زوجتي، واثني بالقينة من العربة، فسأنتي عليها مع هؤلاء القوم الصالحين، ولبست النسوة أولئك اللائي أوقعن في قلوبنا من الرعب ما يخجل المرء من أن يعترف به»، واسترسل في القول وهو يكرع جرعة من إبريق الفخار: «أجل أيها الرفاق؟ فلم يك ثمة ضرورة حقاً تلجئنا إلى الحضور إلى هنا! وإني لأراهنكم على قبعة جديدة بأن النساء ظنن أنهن مستطيعات أن يسخرن منا، فهبوا أنه كان هو الشيطان نفسه، فمن يكون الشيطان؟ ابصقوا عليه! ولو قد وقف أمامي في هذه اللحظة لسخرت منه، ولعنة الله عليّ إن لم أفعل!».

وصاح أحد الحاضرين: «وما بال وجهك قد علاه كل هذا

الشحوب؟»، وكان هذا الضيف أطول من القوم جميعاً برأس، لا ينفك عن الظهور بمظهر الرجل الباسل.

«أنا؟ لا شك أنك كنت تحلم!».

وضحك الضيوف، وابتسم البطل المزهو بنفسه ابتسامة السرور والرضا.

وقال آخر: «كأنني به يستطيع الآن أن يصفر ويشحب لونه! إن خديه في مثل حمرة الخشخاش، وليس هو تسيوليا^(١) الآن، بل هو بنجرة، أو قل السترة الحمراء التي أفزعت القوم ذلك الفرع الشديد».

ودارت القينة على الضيوف المجتمعين حول المائدة، فارتفعت روحهم المعنوية، وكان شيريفيك لا يزال يساوره القلق من السترة الحمراء التي أبت أن تريح نفسه المستطلعة، فهتف يقول لصديقه: «حدثني بالله يا صديقي! فقد دأبت على استصلاح أمر هذه السترة اللعينة، فلم يجبني أحد إجابة صريحة».

«ليست هذه السترة بالأمر الذي يصح الكلام فيه والليل يوشك أن يرخي سدوله، على أنني سأحدثك بأمرها إرضاء لك ولهؤلاء الأصدقاء الأعزاء الذين يتوقون مثلك إلى معرفة هذه العجائب سواء بسواء، فأنصت إلي!».

وعندئذ حك تسيوليا كتفيه، وجفف وجهه بطرف قميصه، واتكأ بذراعيه على المائدة، وأنشأ يقول:

(١) تسيوليا في الأوكرانية معناها «البطل!».

«يُحكى أن شيطاناً طُرد من الجحيم، ولا يدري السبب في طرده إلا الله».

وقاطعه شيريفيك قائلاً: «ولكن كيف؟ أجل كيف حدث أن شيطاناً طُرد من الجحيم؟».

«لست أدري يا صديقي، ولكنه طرد من الجحيم حقاً كما يطرد الإنسان كلباً من بيته، ولعله فكر في أن يأتي عملاً صالحاً، فدلوه على طريق الباب، وتملك الشيطان المسكين حنين شديد إلى دياره، وأضناه الشوق إلى الجحيم، حتى هان عليه أن يشنق نفسه، على أنه لم يجد في الأمر حيلة، فأخذ يُروِّح عن نفسه بشرب الخمر، واستقر به المقام في تلك الصومعة المتهدمة التي رأيتموها في سفح التل، وهو مكان لا يمر به رجل صالح اليوم إلا رسم علامة الصليب، وأصبح هذا الشيطان فاسقاً خليعاً حتى بز في خلاعته الشبان جميعاً، وراح ينفق جميع يومه في الخمارة».

وما إن بلغ الرجل في حديثه هذا الموضع، حتى قاطعه شيريفيك الصارم مرة أخرى:

«ما هذا الذي تقول؟ كيف يسمح إنسان لشيطان بأن يدخل الخمارة؟ اللهم أنزل علينا جميعاً بركتك! أليست له مخالب وقرون؟».

«آه! صدقت كل الصدق - ولكنه كان يرتدي قبعة وقفازاً، فمن ذا الذي كان يستطيع أن يعرفه؟ وأدمن الشيطان الشراب حتى شرب بكل ما كان معه من نقود، فأقرضوه كثيراً، ولكنهم أمسكوا يدهم عنه آخر الأمر، فاضطر إلى رهن سترته الحمراء بأقل من ثلث قيمتها عند اليهودي الذي كان يبيع الفودكا في تلك الأيام في سوق سوروتشنستي. أجل رهنها

وقال لليهودي: «تذكر أيها اليهودي أنني سأعود في طلب سترتي في خلال سنة، فاحرص عليها!» ثم اختفى ولم يعد يراه أحد. وكان نسيج السترة أفضل من أي نسيج تستطيع الحصول عليه حتى من مروجورود نفسها، كما كان لونه الأحمر يتوهج توهج النار، بحيث يعز عليك أن ترد بصرك عنه. ولاح لليهودي أن السنة التي استمهلها الشيطان إياها حقبة طويلة لا يستطيع أن ينتظر حتى تنتهي، فحك رأسه واستقر رأيه آخر الأمر على بيعها، وباعها بخمسين روبلاً أو نحوها لسيد كان ماراً به».

«ونسي اليهودي كل ما يتعلق بالأجل المضروب، إلا أن رجلاً جاء ذات مساء وقال له: «هلم أيها اليهودي، وأعطني سترتي!»، ولم يعرفه اليهودي أول الأمر، فلما أمعن النظر فيه تظاهر بأنه لم يره من قبل، وقال له: «أي سترة؟ ليست عندي سترة، ولا أعرف من أمر سترتك شيئاً!»، وانصرف الرجل الآخر، وما إن أوشك الليل أن يرخي سدوله حتى أغلق اليهودي باب غرفته من دونه، وأخذ في عد النقود التي احتفظ بها في صناديقه، وألقى على كتفيه قطعة من النسيج، وأخذ يتلو صلاته على سنة اليهود، وإذا به يسمع فجأة حفيفاً فرفع رأسه، ورأى الخنازير تدس أنوفها في النوافذ جميعاً!».

وفي تلك اللحظة نفسها طرق آذانهم صوت غامض لا يختلف عن قباع الخنازير، فاصفرت وجوه القوم جميعاً، وتجلت قطرات من العرق على وجه تسيبوليا.

وصاح شيريفيك وقد تملكه الرعب: «ما هذا!!».

فأجاب تسيبوليا مرتعد الأوصال فرقاً: «لا شيء».

وقال واحد من الضيوف: «ماذا؟».

«هل قلت شيئاً؟».

«كلا!».

«من الذي قبع؟».

«الله يعلم ما الذي دهانا! فليس هنا من أحد سوانا».

وأخذوا يتلفتون حولهم فزعين مروعين، وبدأوا ينقبون في أركان الغرفة، وكانت خيفريا أقرب إلى الأموات منها إلى الأحياء.

وقالت بصوت مرتفع: «لستم إلا جماعة من النساء لا أكثر ولا أقل! أتسمون أنفسكم قوزاقاً؟ وي! ما أحراكم أن تقبعوا في أماكنكم تندفون الصوف وتغزلونه! لعل أحدكم.. أو ربما صرت أريكة رجل منكم فلم يلبث الاضطراب أن شاع بينكم حتى لكأنكم طائفة من المجانين!».

وأخجل كلام خيفريا القوم، وحملهم على أن يستجمعوا شتات أنفسهم، وجرع تسيبوليا جرعة من الإبريق، واسترسل في رواية قصته قائلاً: «وأغشى على اليهودي خوفاً ورعباً، ولكن الخنازير تسلفت الكوخ بقوائمها التي تبلغ في طولها مبلغ قوائم أبي ساق، ودخلت من النوافذ وأعادته إلى وعيه في لمح البصر بسيور مجدولة من الجلد، جعلته يقفز قفزات أعلى من هذه الروافد، ووقع اليهودي على أقدام الخنازير، واعترف لها بكل شيء، إلا أنه لم يك في الإمكان رد السترة بسرعة، فقد سرقها من السيد في الطريق نوري باع امرأة إياها، وأعادتها المرأة إلى سوق سورونشنستي، على أن الناس أحجموا من بعد عن شراء أي شيء

منها، وعجبت المرأة لذلك، واستبد بها العجب، ثم أدركت آخر الأمر سر انصراف الناس عنها، ولا شك أن السترة الحمراء كانت هي السبب في بوار تجارتها، ولم يكن بعجيب إذن أن تشعر المرأة بالاختناق كلما ارتدت هذه السترة، فبادرت إلى إلقائها في النار بلا تفكير ولا روية، بيد أن السترة الشيطانية أثبت أن تحترق! وقالت المرأة تحدث نفسها: «إنها لعطية من الشيطان!»، وأفلحت في دسها في عربة فلاح كان قد جاء إلى السوق يبيع زبدة، وتملك السرور ذلك الفلاح الغبي، وأحجم الناس جميعاً عن طلب شيء من زبده، وقال الرجل بينه وبين نفسه: «لا شك أن يدًا شريرة قد دست هذه السترة علي!»، وتناول فأسه وقطعها إرباً إرباً، ثم نظر إليها، فإذا بكل قطعة منها تنضم إلى الأخرى حتى استوت جميعاً، وعادت السترة سليمة كما كانت! فرسم علامة الصليب، وانهاه عليها بالفأس مرة أخرى، ونثر القطع في أرجاء المكان كله ثم رحل. وراح الشيطان منذ ذلك الحين يجوب أنحاء السوق كلما انعقدت متخذاً صورة خنزير يقبع ويجمع قطع سترته. ويقول الناس الآن: «إنه لم يعد ينقص السترة سوى الكم الأيسر، وأصبحوا من يومها يجتنبون هذا المكان، وانقضت عشر سنوات منذ أقيمت السوق فيه، إلا أن مساعد القاضي في ساعة نحس...».

وجمدت بقية العبارة على شفتي المتحدث، فقد انبعث من النافذة قعقة عالية، وسقطت الألواح الزجاجية ترن على الأرض، وأطل من النافذة وجه خنزير بشع الخلقة، وراح يحملق وهو يدير عينيه كأنه يتساءل: «ماذا تفعلون هنا أيها القوم الصالحون؟».

كان ذيله بين ساقيه كأنه الكلب، وقد سرت
الرعدة في جميع أوصاله كأنه قايين، وتقاطر
الدم من أنفه.

(من «الإنياذة» لكوتلياريفسكي)

وأخرس الرعب لسان كل من كان في الغرفة، وجلس تسيبوليا
جامدًا كالصخر وقد فغر فاه وجحظت عيناه، حتى كادت تنطلقان من
محجريهما كأنهما رصاصتان، وتوقفت أصابعه الممدودة في الهواء
وكفت عن الحركة، وقفز العملاق الرابض الجأش قفزة عالية وقد
امتلاأت جوانحه خوفًا ورعبًا، فارتطم رأسه والرافدة، وتزحزحت
الألواح وسقط ابن القس مرتطمًا بالأرض ارتطامًا سُمع له هبدة وصوت
شيء يتحطم.

وصاح واحد من القوم في صوت اليائس، وقد اعتلى أريكة من
الأرائك فزعًا مرتاعًا، وراحت ذراعاه وساقاه تضطرب وتضطرب: «آه،
آه، آه».

وصاح آخر وهو يخفي رأسه تحت فروة من فراء الأغنام: «النجدة!».

وأيقظ الرعب الذي حل بهذا الرجل الآخر تسيوليا من سباته،
فزحف مرتجف الأوصال يلوذ بنقبة زوجته مختفياً تحتها، وتسلق
العملاق الرابض الجأش إلى الموقد على الرغم من ضيق فتحة، وأغلق
بابه من دونه، ووضع شيريفيك قدرًا على رأسه بدلًا من القبعة، واندفع
صوب الباب كالقذيفة إذا لسعه الماء الساخن، وأخذ يركض في الشوارع
كمن به جنة، ولم يحمله على التمهّل في سيره إلا التعب والكلال،
وكان قلبه يضرب كأنه معصرة من معاصر الزيت، وتصبب العرق منه
كالأنهار، وأوشك أن يقع على الأرض من فرط ما ناله من إعياء، وإذا به
يسمع فجأة شخصًا يركض خلفه، فضاقت أنفاسه.

وصاح وقد فقد صوابه من الرعب وأخذ يضاعف جهده: «الشیطان!
الشیطان!»، ثم سقط بعد لحظة على الأرض مغشيًا عليه.

وانبعثت صيحة من خلفه: «الشیطان! الشیطان!»، ولم يشعر إلا
بشيء يقع فوقه محدثًا صوتًا كصوت الارتطام، وفقد وعيه وانبطح في
عرض الطريق فاقد الحس لا حراك به كجثة مسجاة في نعشها الضيق.



كان من الأمام إنساناً عادياً كسائر البشر، أما
من الخلف فكان -علم الله- كالشيطان!
(من قصة شعبية)

وجلس فجأة واحد من الجمع الذين التمسوا المبيت في العراء
وقال: «هل سمعت هذا يا فلاس؟ لقد كان واحد من الناس يتحدث هنا
عن الشيطان!». «

ودمدم رجل من النور بقربه وهو يتمطى: «وأي شأن لي في هذا؟!
فليتحدثوا عن كل ما في الجحيم من الشياطين، فإن ذلك لا يهمني!». «
ولكنه كان يصرخ مستغيثاً كأنه يشنق!». «

إن المرء ليصيح هائفاً بأي شيء في نومه».

«ربما، ولكن يجب أن نلقي نظرة على الأقل، أضى لنا نوراً!». «

وانتصب النوري الآخر على قدميه وهو يدمدم بينه وبين نفسه،
وأشعل سيلاً من الشرر استطار كومضات البرق ونفخ في الصوفان،
ثم حمل في يده «الكاجانتس» وهو المصباح الأوكراني المألوف الذي

يتألف من جرة مكسورة ممتلئة بدهن الضأن، وسار يضيء الطريق أمامه.

«قف! إن ثمة من يرقد هنا! سدّد الضوء نحو هذا الموضع!».

ولحق بهما بعض رفاقهما.

«ما الذي وجدت يا فلاس؟».

«يبدو لي أنهما رجلان أحدهما فوق الآخر، ولا أستطيع أن أثبت: من منهما الشيطان؟».

«عجباً، هو ذلك الذي يعلو الآخر؟».

«إنه امرأة!».

«إذن فهكّ الجواب، إنها هي الشيطان!».

وانفجر الجمع ضاحكين حتى أوشكوا أن يوقظوا الشارع كله.

وقال واحد من النظارة: «امرأة تركب رجلاً! لعمرى إنها تعلم كيف تركبه!».

وقال آخر وهو يلتقط قطعة مكسورة من القدر التي كان نصفها فقط لا يزال يعلو رأس شيريفيك: «انظروا أيها الرفاق! ما أبدع القبة التي يرتديها هذا الفتى الظريف!».

وعلت ضوضاء الجماعة وضحكاتهم، فدبت الحياة في جثتي صاحبيّنا، وأخذ شيريفيك وزوجته، اللذان كانا ممتلئين بالرعب مما حلّ بهما، يحملقان في فزع في وجوه النّور السمر التي بدت لهما في الضوء الخافت المتراقص كوجوه عشيرة همجية من الأقزام سبحت في دخان الجحيم الكثيف وغشيها ليل دامس لا ينجاب له ظلام.

ألا سحقاً لك يا شبح الشيطان، واغرب عنا
بوجهك!

(من ملهاة أوكرانية)

وتنفس نسيم الصباح العليل، فشمّل أهل سوروتشنستي الذين
كانوا ينفضون سلطان الكرى عن عيونهم، وتصاعدت سحب الدخان
من جميع المداخل لتلقي الشمس الطالعة، وبدأت السوق تجيش
بديب الحياة، وأخذت الأغنام تنغو والجياد تصهل، وعلا نقيق الإوز
وصوت نساء السوق، فشملاً أرجاء المخيم كله مرة أخرى، واختفت
بانبلاج الصبح تلك القصص المرعبة عن السترة الحمراء، التي أثارت
الفرع في ساعات الليل الحافلة بالغموض والأسرار.

وكان شيريفيك يتمطى ويتشاءب مغالباً النوم في صومعة صديقه
تسيبوليا المسقوفة بين الثيران وأكياس الدقيق والقمح، والظاهر أنه لم
يكن يود أن يفارق أحلامه، إلا أن صوتاً قطع عليه حبل خيالاته، صوتاً
ألفه لموقده، ذلك الملبجأ الأمين الذي كان يقضي فوقه ساعات الكسل
والاسترخاء، أو ألفه الحانة التي يملكها ابن عمه، ولا تبعد عن داره إلا
عشر خطوات أو نحوها.

وصرخت زوجه الحنون في أذنه جاذبة ذراعه بكل من أوتيت من
قوة: «انهض! انهض».

ولم يجبها شيريفيك، بل نفخ أوداجه، وأخذ يلوح بذراعيه كأنه
يقرع طبلاً.

وصاحت المرأة متحاشية ذراعيه اللتين أوشكتا أن تضربا وجهها:
«أيها الأبله المخبول!».

واستوى شيريفيك جالساً، وفرك عينيه وتلفت حوله.

«فليأخذني الشيطان يا عزيزتي إن لم أك قد تخيلت وجهك طبلاً،
ولم أجد بداً من أن أقرعه، كما يفعل الجندي المسكوفي بليل، أجل
أقرعه بوجوه تلك الخنازير التي كان تسيوليا يحدثنا بأمرها».

«كفاك هراء! هلم وخذ الفرس إلى السوق! فما نحن إلا قوم
هازلون، لقد جئنا إلى السوق، ولم نبع حفنة من القنب».

فأمن شيريفيك على كلامها بقوله: «هذا صحيح، وسيضحكون منا
الآن بلا شك».

«أسرع! أسرع! إنهم يضحكون منك الآن فعلاً!».

واسترسل شيريفيك يقول وهو يتثائب ويحك ظهره محاولاً كسب
الوقت: «ولكنني لم أغتسل بعد».

«ما أنسبه من وقت تشغل فيه بالنظافة! متى كنت تهتم بأمرها؟ هاك
منشفة، امسح بها وجهك الدميم».

واختطفت شيئاً كان مُلقى منقوشاً بجوارها، ثم ألقت به في دعر،

وكان هذا الشيء هو ردن السترة الحمراء!

ورأت زوجها وقد شل الفزع حركته وأخذت أسنانه تصطك،
فاستعادت رباطة جأشها، وعادت تكرر عليه القول: «أسرع وامض إلى
عملك».

وغمغم بينه وبين نفسه وهو يحل زمام فرسه ويقودها إلى السوق:
«يا للتوفيق الذي سنلاقيه في البيع الآن! لا عجب أنني أحسست وأنا
أنهيًا لهذه السوق الملعونة بهمّ ثقيل يجثم على قلبي كأنما أنقض
أحدهم ظهري ببقرة نافقة، وقد حاولت الثيران مرتين أن تعود أدراجها
إلى المنزل، أما وقد بدأت الآن أفكر في الأمر، فإني لأذكر أننا شرعنا في
رحلتنا يوم اثنين، فسألت أحوالنا جميعًا! واستبد القلق بهذا الشيطان
الملعون! وربما ذهب بك الظن إلى أنه قد يرتدي سترته بعد أن غاب
أحد كميهما، ولكن كلا، فإنه لا يستطيع أن يترك أهل الاستقامة يسيرون
في طريقهم! ولو كنت أنا الشيطان - لا قدر الله - فهل تظنين أنني كنت
أسعى - ليلًا باحثًا عن متاع من الخرق الملعونة؟».

وفي هذه اللحظة انبعث صوت أجش قطع تأملات شيريفيك،
وانتصب واقفًا أمامه نوري طويل القامة.

«ما الذي تعرضه للبيع أيها الرجل الصالح؟».

ولزم شيريفيك الصمت لحظة، ثم نظر إلى النوري من قمة رأسه
إلى أخمص قدميه، وقال في صوت هادئ لا اضطراب فيه، ولم يتلعثم
أو يترك العنان:

«تستطيع أن ترى بعينيك ما أبيع».

فقال النوري وهو ينظر إلى العنان الذي كان شيريفيك ممسكًا به

السرج:

«أجل السرج، إذا كانت الفرس تشبه السرج!».

«إنني لأحسب أنك علفتها قشًا أيها الجار!».

«قشًا؟».

وعندئذ هم شيريفيك أن يجذب العنان ليقود فرسه إلى الأمام، مظهرًا لهذا المفترى العياب الصفيق الوجه مبلغ كذبه، إلا أن يده تحركت في سهولة عجيبة ولطمت ذقنه هو، وألقى شيريفيك ببصره، فوجد في يده عنانًا مقطوعًا كان قد ربط بعنان الفرس، يا للهول! لقد وقف شعر رأسه، إذ رأى قطعة من كم أحمر! فبصق ثم رسم علامة الصليب، وهرب من هذه العطية غير المنتظرة، وجرى بأسرع مما يجري رجل في نصف عمره، ثم اختفى وسط الزحام.



ضربوني من أجل ما في يدي من قمح
يخصني.

(مَثَلٌ)

وصاح بعض الغلمان في الدرب الذي ينتهي به الشارع: «أمسكوه!
أمسكوه!»، وأحس شيريفيك بأيد قوية تمسك به فجأة.
«قيدوه، فإنه الرجل الذي سرق فرس رجل أمين».
«خبروني بارك الله فيكم! لم تقيدوني؟!».
«انظروا كيف يسأل عن السبب! ما الذي حملك على أن تسرق
فرساً من شيريفيك الفلاح؟».
«لقد فقدتم عقولكم أيها الغلمان! فهل سمع أحد قط برجل يسرق
نفسه؟».

«هذه حيلة قديمة! حيلة قديمة! وإلا فماذا دهاك حتى كنت تركض
بأقصى سرعتك كأن الشيطان نفسه كان في أعقابك؟».
«إن أي إنسان ليركض إذا كانت سترة الشيطان...».

«هذه الخدعة لا تنطلي علينا أيها الرجل الساذج! رويدك، ولتتالن جزاءك من مساعد القاضي، وليعلمنك ألا تسير ملقيًا الرعب في قلوب الناس بحكايات ترويه عن الشيطان!».»

وانبعثت صيحة من الطرف الآخر من الشارع: «أمسكوه! أمسكوه! فهذا هو! هو بعينه!».»

ورأى شيريفيك صديقه تسيبوليا في أشد حالات الفزع والرعب، وقد رُبطت يداها خلف ظهره، وراح بعض الغلمان يقودونه.

وقال واحد منهم: «إن ثمة أمورًا غريبة تحدث هنا! ولتسمعن إلى ما يقول هذا النصاب! وحسبكم أن تنظروا إلى وجهه حتى تتبينوا أنه لص! وقد سألناه: لم أطلق لساقيه العنان كالمجانين؟ فقال: «إنه دس يده في جيبه ليخرج صندوق سعوطه، فإذا بها تجذب بدلًا منه قطعة من سترة الشيطان، لم تلبث أن استحالت إلى شعلة حمراء، فولى الأدبار!».»
«وي! إن الطيور على أشكالها تقع! وخير لنا أن نقيدهما معًا!».»



قال صاحبنا الشقي المسكين: «ما ذنبي إليكم
أيها القوم الصالحون؟ وما بالكم تعذبونني؟
وماذا فعلت حتى تسيئوا إلي؟»، ثم هتف وقد
انخرط في البكاء وانهمرت الدموع السخينة
من عينيه، وأمسك بخاصرته: «لماذا؟
لماذا؟».

(أرتيموفسكي - جولاك «السيد والكلب»)

وسأل شيريفيك صاحبه تسيوليا وهو يرقد مقيدًا بجواره في كوخ
مسقوف: «لعل يدك امتدت حقًا إلى شيء يا صديقي؟».

«أو منك أيضًا أسمع هذا أيها الصديق؟ ألا شُلَّت ذراعاي وساقاي
إن كنت قد سرقت شيئًا في حياتي، اللهم إلا كعيكات بالقشدة مسكرة
كنت أسرقها من أمي، وإنما كان ذلك قبل أن أبلغ العاشرة».

«لِمَ حل بنا هذا البلاء أيها الصديق؟ ولكن مصيبتك أهون من
مصيبتى، فإنك لم تتهم إلا بسرقة غيرك، ولكن ماذا فعلت أنا الشقي
التعس حتى أستحق هذه التهمة النكراء وأُرمى بسرقة فرسي من نفسي؟

يخيل إليّ يا صاح أنه قد كتب علينا يوم ولادتنا أن يجافينا التوفيق!».

«ويل لنا نحن البائسين المنبوذين!».

ثم انفجر الصديقان يتتحبان:

قال جريتسكو وهو يدخل الكوخ: «ماذا دهاك يا سولوبي؟ ومن قيدك هكذا؟».

وصاح شيريفيك وقد تهللت أساريره: «آه، جولو بوبنكو! هذا هو الشاب الذي كنت أحدثك عنه يا صديقي، إلا فلينفذ فيّ الله قضاءه في التو واللحظة إن لم يك قد جرع من الخمر إبريقاً كاملاً في مثل حجم رأسك تقريباً دون أن تهتز له شعرة!».

«فما الذي حملك إذن على الحط من قدر شاب مليح كهذا؟».

واسترسل شيريفيك يقول مخاطباً جريتسكو: «يخيل إليّ أن الله جازاني على ما أسلفت في حقه من إساءة، فاصفح عني أيها الشاب الكريم، وأقسم لك أنه ليسعدني أن أسدي إليك أي معروف، ولكن ماذا كنت تنتظر مني أن أفعل؟ إن الشيطان قد ركب امرأتي العجوز!».

«لست ممن يذكرون الإساءة يا سولوبي، فإن شئت أطلقت سراحك!».

ثم غمز بعينه للفتيان الآخرين، فهب أولئك الذين كانوا يحرسونهما إلى فك وثاقهما: «ولكنك مطالب بأن تفي بوعدك أيضاً، ألا وهو الزفاف! ولنحتفل به ولنرقص حتى نحس بالألم يسري في سيقاننا سنة بطولها من بعده!».

وقال شيريفيك وهو يضرب كفًا بكف: «مرحى! مرحى! إني لأشعر بالسعادة تغمرني كأنما قد حمل المسكوف امرأتي وهربوا بها، وما الذي يدعوني إلى معاودة التفكير في الأمر؟ ليكونن الزفاف اليوم إن خطأ وإن صوابًا، وهذا هو كل ما في الأمر!».

«تذكر يا سولوبي هذا الوعد، وسأوافيك بعد ساعة، ولتذهب الآن إلى دارك فتجد من يطلب منك شراء فرسك وقمحك».

«كيف؟ هل عثرت على الفرس؟».

«أجل».

وعقد الفرع لسان شيريفيك، فوقف بلا حراك يشيع جريتكو بنظراته، وقال النوري الطويل القائمة للشاب الذي كان يغذ السير: «ما قولك يا جريتكو؟ أظن أنك لا تستطيع أن تزعم أنني أفسدت الأمر! لقد أصبحت الثيران الآن من حقي، أليس كذلك؟».

«بلى!».



لا تراعي، لا تراعي يا حبيبي، والبسي حذاءك
الأحمر، وطئي أعداءك تحت قدميك حتى
يصلصل كعبك المكسوان بالحديد وتخرس
ألسنة أعدائك فلا يبدوا حراكًا!

(أغنية زفاف)

جلست باراسكا وحيدة في الكوخ تتأمل وتتفكر مسندة ذقنها
الجميل إلى يدها، وطافت برأسها الجميل أحلام وأحلام، وكانت
تداعب شفتيها القرمزيتين ابتسامة من حين إلى حين، ويخالجها شعور
سار مفرح، فترفع حاجبيها الأسودين، ثم تغشاها سحابة من شجن،
فتقطبهما فوق عينيها العسلتين الصافيتين.

وهمست في لهجة تنم عن الشك: «ولكن كيف تكون الحال إذا
لم يتحقق ما قال؟ وكيف إذا رفضوا أن يزوجوني إياه؟ وكيف وكيف..
كلا، كلا، هذا لا يمكن أن يكون أبدًا! إن زوجة أبي تفعل ما تشاء، فلم لا
أفعل أنا ما أشاء؟ وقد طبعت على العناد الشديد، أنا أيضًا. إلا ما أمله!

وما أبدع عينية السوداوين في تألقهما! ولكم يطيب لي أن أسمعه يقول:

«حييتي باراسكا!»، وبا لسترته البيضاء التي تناسبه! على أن حزامه يجب أن يكون أكثر تألقاً! وسأنسج له حزاماً عندما تستقر بنا الحال في كوخ جديد».

وأخذت من صدرها مرآة صغيرة لها إطار من الورق الأحمر كانت قد اشترتها من السوق، وراحت تحديق فيها وقد خالجهما شعور خفي بالرضا، ثم مضت تقول: «لا أتمالك نفسي من السرور عندما أفكر في أنني سألقاها يوماً في مكان ما.. ولسوف تنفجر غضباً قبل أن أنحني لها! أجل يا زوجة الأب، لقد نلت من كنتك ما فيه الكفاية، ولن أنحني لك إلا إذا نبتت الأزهار في صميم الصخر وحتت شجرة السنديان عليّ كما تحنو شجرة الصفصاف. ولكن لقد كدت أنسى.. فأني أريد أن أجرب لبس قبعة المرأة المتزوجة، ولو كانت قبعة زوجة أبي، هل تناسبني؟».

ثم نهضت وقد أمسكت المرأة بيدها وحتت رأسها لترى خياله فيها، وراحت تسير في الغرفة بحذر كأنما تخشى الوقوع، فلم تر أديم الغرفة تحت قدميها، بل رأت السقف تعترضه الألواح المستندة إلى الروافد، وهو الذي وقع منه ابن القس أخيراً، كما رأت الأرفف وقد رصت عليها القدور.

وهتفت ضاحكة: «عجباً، إنني أبدو كالطفل يخشى أن يخطو خطوة!».

وشرعت تدق الأرض بقدميها في لطف، وكلما مضت في ذلك ازدادت جراءة، ثم وضعت آخر الأمر يدها اليسرى على ردفها، وراحت ترقص مجلجلة بكعبيها المكسوين بالمعدن، مادة المرأة أمامها صادحة

بأنشودتها المحبوبة:

أيتها «الونكة» الخضراء الصغيرة^(١)

التفي واهبطي إلي!

وأنتِ أيتها الحبيبة الكحيلة العين

أقبلني علي!

أيتها الونكة الخضراء الصغيرة

التفي واهبطي ثم اهبطي إلي!

وأنتِ أيتها الحبيبة الكحيلة العين

أقبلني عليّ أكثر وأكثر!

وأطل شيريفيك من الباب في تلك اللحظة، فرأى ابنته ترقص أمام
المرآة، فوقف ساكنًا، وظل يرقبها طويلًا وهو يضحك من هذه النزوة
الغريبة التي تملكته. وكانت الفتاة فيما يبدو قد استغرقت في الرقص،
فلم تلحظ شيئًا، وما إن سمع الأب نغمات الأنشودة المألوفة حتى شعر
بالدم يتدفق في عروقه، فخطا إلى الأمام وطوح بذراعيه إلى الوراء في
مرح، وراح يرقص ناسيًا كل ما كان ينبغي أن يفعله، وانطلقت ضحكة
عالية من فم صديقه تسيوليا، فأفزعت الأب وابنته جميعًا!

«يا للمنظر البديع! الأب وابنته يقيمان زفافًا لحسابهما! هيا وعجلا

فقد جاء العروس!».

(١) الونكة: نبات مزهر.

وصبغت حمرة الخجل وجه باراسكا عند سماعها هذه العبارة،
حتى غدا أشد احمرارًا من الشريط الذي ربطت به رأسها، وتذكر أبوها
الطروب واجبه.

فأنشأ يقول وهو يتلفت حوله في خجل: «هيا يا ابنتي» ولنعجل!
فقد استخف الفرح خيفريا إذ علمت أنني بعث الفرس، ومضت تشتري
لنفسها نقبات وهلاهيل من كل صنف ولون، وعلينا أن ننتهي من الأمر
جميعًا قبل أن تعود».

وما إن اجتازت باراسكا العتبة، حتى شعرت بذراعي الشاب
صاحب السترة البيضاء تطوقانها، وكان ينتظرها خارج الدار ومعه حشد
من الناس.

وقال شيريفيك وهو يجمع أيديهما بعضهما إلى بعض: «فليبارككما
الله، ولترتبط حياتكما ارتباط الزهر في باقته!».

وما إن بلغ هذا الحد، حتى انبعث الضجيج من بين صفوف القوم.
وصاحب شريكة حياة شيريفيك قائلة، والحشد الضاحك يدفعها
إلى الوراء: «فلتنشق مرارتي، ولا أسمح بهذا!».

فقال شيريفيك في برود وقد رأى رجلين قوين من النور يمسان
بيديها: «هدئي روعك يا امرأة! إن ما تم لا يمكن الرجوع فيه، وأنا لا
أحب أن أسحب كلمتي!».

فصاحت خيفريا: «كلا، كلا لن يكون هذا!»، ولم يلق أحد إليها
بالاً، وأحاط عدد من الأزواج والزوجات بالعروسين السعيدين، وأقاموا

حولهما نطاقاً راقصاً لا سبيل إلى اختراقه.

ولو أن إنساناً رأى هذا الحشد كله وقد جمع بين أفراده مشهد من الوحدة والانسجام أشاعتهما في قلوبهم لمسة واحدة من قوس عازف الكمان ذي الشارب الطويل المفتول والسترة المغزولة في البيوت، لتملكه شعور غريب يعز عن الوصف، فقد انبعث رجال بدا من وجوههم العابسة أنه لم تطف بها قط ابتسامة أو ظلها، وراح كل من يلود بالحشد يدور ويرقص، بل إن من قُدِّر له أن يرى هذا المشهد ليملكه شعور أكثر غرابة من ذلك وأشدَّ إعجازاً إذا هو رأى العجائز من النساء اللواتي تحمل وجوههن العتيقة برود القبر وهموده وقد شققن طريقهن بين صفوف الشباب الضاحكين الزاخرين بالحياة، وكان الشراب وحده هو الذي يحملهن على القيام بأفعال تشبه أفعال البشر، حتى لكان هذا الشراب عامل بارع يحرك إنساناً ميكانيكياً لا حياة فيه. لقد كانت هؤلاء النسوة اللاتي لا يحفلن بشيء ولا يسري في أعطافهن مرح الشباب ولا يغمر قلوبهن أثر من عاطفة أو ومضة من ومضات التجاوب، يهززن رؤوسهن الثملة في ببطء وتمهل، ويرقصن منساقات مع الحشد المرح الطروب، دون أن يحفلن بإلقاء نظرة على العروسين الشابين.

وأخذت أصوات الضحك والغناء والضجيج تخفت ثم تخفت، وانطوى تغريد الكمان في أنغام مبهمة واهنة، ثم تلاشى في الفضاء. وكانت أصوات الأقدام وهي تدق على الأرض لا تزال تُسمع من بعيد كأنها الهدير ينساب إلى الأذن من مكان قصي، وسرعان ما انتهى كل شيء إلى سكون وخواء.

أليس هذا هو حال الفرح، ذلك الضيف الجميل المتقلب، حين يولي عنا؟ وهيهات أن تُعبّر النعمة الأخيرة عن السرور والانشراح، فهي تسمع في صداها هي نفسها رنة الحزن والخواء، وتنصت إليه ذاهلة حيرى. ثم أليس هذا أيضًا هو حال أولئك الصحاب الذين يلهون ويمرحون في شبابهم الحر الطليق العاصف، ثم يغيبون واحدًا بعد واحد في خضم هذا العالم الواسع، ويتركون خلهم القديم يعاني ما يعاني من الوحدة والحسرة؟ ألا ما أتعس حظ من يبقى بعدهم! إن قلبه لينوء بالهم والحزن وحده بلا معين ولا نصير!



ليلة عيد القريس يوحنا^(١)

قصة حقيقية رواها قندلفت

لقد أُرث عن فوما جريجوريفتش أنه كان يكره كراهة التحريم أن يكرر قصة من قصصه، على أنه كان يستجيب لذلك أحياناً إذا أقنعه أحد، فإن فعل أقحم عليها شيئاً جديداً، أو بدل فيها تبديلاً يغير معالمها الأصلية حتى يلتبس أمرها عليك. وقد حدث أن واحداً من هؤلاء الناس -ويصعب علينا نحن البسطاء أن نعرف كيف نسميهم؛ ذلك أنهم ليسوا من السماسرة، وإنما هم أقرب إلى البياعين في أسواقنا يستجدون، ويخطفون، ويشلون كل شيء، ثم هم يخرجون كتاباً صغيراً كل شهر أو كل أسبوع، لا يزيد في حجمه على كتب القراءة المخصصة للأطفال -أجل، حدث أن انتزع أحد هؤلاء السادة هذه القصة بعينها من فوما جريجوريفتش الذي نسي كل شيء عنها. وقد اتفق أن وصل هذا السيد الشاب إلى بلتاوة، وهو الذي حدثتكم بأمره وشيئاً، وقرأتم فيما أحسب قصته، وكان يحمل معه كتاباً صغيراً فتحه في منتصفه، ثم أطلعنا عليه،

(١) يوم عيد القديس يوحنا: عيد قديم من أعياد الصيف، والاعتقاد الشائع أن السرخس يزهر ليلة العيد. وأن من يقتطف زهرة يجد كنزاً دفيناً.

وهم فوما جريجوريفتش بأن يضع نظارته على قسبة أنفه، إلا أنه تذكر أنه قد نسي إصلاحها بالخيط والشمع، فناولني الكتاب، ولما كنت أعرف القراءة ولا ألبس النظارات، شرعت أقرأ بصوت مرتفع، وما إن قلبت صفحتين، حتى أمسك فوما جريجوريفتش بذراعي فجأة، ثم قال:

«انتظر لحظة، وقل لي أولاً: ماذا تقرأ؟».

ولا أخفيك أن سؤاله هذا أصابني بشيء من الذهول.

«ماذا تعني يا فوما جريجوريفتش؟ إنني أقرأ قصتك.. بل كلماتك بعينها».

«من قال لك إنها قصتي؟».

«وأي دليل أفصح من هذا تريد؟ لقد طبع هنا: رواها قندلفت كيت وكيت».

«لعنة الله على من طبع هذا! ويا له من وغد كاذب! أو هكذا رويت أنا القصة؟ أعيروني أسماعكم، سأقصها عليكم الآن».

كان جدي -رحمة الله عليه، وكتب عليه ألا يأكل في العالم الآخر إلا الأرغفة المصنوعة من الدقيق الفاخر والكعك المصنوع من الخشخاش المخلوط بالشهد!- قصصاً عظيماً، ما إن يشرع في الحديث حتى تنصت إليه اليوم بطوله دون أن تحرك ساكناً. ولم يكن الرجل من طراز ثرثاريّ اليوم الذين يجعلونك تحس بإحساس من يلتقط قبعته ويمضي بمجرد أن يراهم يبدوون في نسج خيوط روايتهم بطريقة يخيل إليك معها أنهم ظلوا ثلاثة أيام لا يجدون شيئاً يأكلونه.

وإنني لأذكر جيدًا كيف كانت أُمِّي، تلك السيدة العجوز التي كانت على قيد الحياة وقتئذٍ، تجلس في أمسيات الشتاء الطويلة، والصقيع يغطي نافذة كوخنا الصغيرة، ممسكة بيدها المغزل تجذب منه خيطاً طويلاً وتهز المهد بقدمها منشدة أنشودة يبدو لي أنها لا تزال ترن في أذني حتى الآن. وكان المصباح يضئ الكوخ وهو يهتز ويرتجف كأنما كان يخشى شيئاً، والمغزل يطن ونحن الأطفال نتكأ حول جدي منصتين إليه، وكان الرجل قد طعن في السن، حتى إنه لم يهبط من الموقد في السنوات الخمس الماضية إلا لمأماً. على أن رواياته العجيبة عن الأيام الخالية وعن غزوات القوزاق الزابوروجيين والبولنديين والفعال المجيدة التي قام بها بودكوبا وبولتورا كوزوفا وساجدا تشني لم تك لتنال من اهتمامنا ما تناله القصص الخيالية المخيفة التي تتناول حوادث وقعت منذ أمد بعيد، وكانت هذه القصص يقف لها شعر رأسنا دائماً، وتسري الرعدة في أجسامنا، بل إن الفرع كان يستبد بنا أحياناً، فإذا جن الليل بدا لنا كل شيء غريباً مخيفاً. وكان الواحد منا يخرج في بعض الأحيان من الكوخ لبعض شأنه ليلاً، فيخيل إليه أن زائراً من العالم الآخر قد اندس في فراشه. ألا فليحل بي القضاء ولا يكتب لي أن أعيش حتى أقص هذه القصة مرة أخرى إن كنت أكذب في قلبي بأن الشيطان فيما يخيل إليّ قد دفع سترتي فانطوت طي الوسادة. على أن أهم ما كانت تتصف به قصص جدي هو أنه لم يكذب في حياته قط، بل إن كل ما رواه لنا قد وقع فعلاً.

وسأقص عليكم الآن قصة من قصصه العجيبة، وإنني لأعلم أن

طائفة كبيرة من ذوي الفطنة يشجون في المحاكم ما يشجون، بل يقرؤون الخط الحديث، وإن كانوا لا يستطيعون إذا وضعت بين أيديهم كتاب صلاة بسيط، أن يقرؤوا حرفاً واحداً منه، ومع ذلك تجدهم قد برعوا أيما براعة في التهكم والسخرية! فهم يسخرون بكل ما تنبئهم به، وهذا الكفر بدأ ينتشر في أرجاء العالم كله، عجباً! إنكم ستجدون مشقة في تصديق ما أقول، ولكن لتنزل بي نقمة الله والعذراء المقدسة إن كنت أحنث فيما أقول. لقد بدرت مني ذات يوم كلمة عن الساحرات وكان بين القوم رجل جريء القلب لا يؤمن بهن، وهأنذا قد عشت بفضل الله طوال هذه السنين وأدركت أناساً سهل عليهم الكذب أثناء الاعتراف بقدر ما سهل عليّ أن أصيب شيئاً من السعوط، ومع ذلك فقد كانوا يرسمون إشارة الصليب ليستعيذوا من شر الساحرات، ولكنهم إذا رأوا في منامهم -ويحسن بي ألا أذكر ما يرون- فالله أعلم كيف يكون حالهم!

ولم يكن أحد يعرف حال قرينتنا منذ سنوات طويلة تزيد على مائة عام على ما قال لنا المرحوم جدي، فقد كانت دسكرة، بل أشد الدساكر فقراً! كانت تتألف من اثني عشر كوخاً أو نحوها، تناثرت في الحقول دون أن تُطلى بالملاط أو تعلوها سقوف مناسبة، ولم تكن ثمة سياجات أو حُظائر بمعنى الكلمة يمكن أن تُحفظ بها الماشية أو العربات، إذ كانت هذه الحياة مقصورة على الأثرياء، أما نحن فإنا لیتك شاهدت أمثالنا من الفقراء، فقد ألفنا أن نحفر حفرة في الأرض ونجعل منها كوخنا! ولم يك أحد ليدري مقام عباد الله هؤلاء إلا من الدخان المتصاعد من هذه الحفرة، وما أحرأك أن تتساءل: لم يعيشون على هذا النحو؟ ولم يكن

السبب في ذلك هو الفقر، فقد كان جل الناس في تلك الأيام من القوزاق يرجعون إلى ديارهم بزاز وافر من الطيبات يحملونه من البلاد الأخرى، وإنما كان السبب هو أن هؤلاء القوم كانوا يرون أن إقامة الكوخ الصالح أمراً عديم الجدوى، ذلك أن الناس على تباين أشكالهم كانوا يجوبون البلاد وقتئذ كأهل القريم والبولنديين والتوانيين، بل إن المواطنين كانوا يهبطون علينا أحياناً عصابات عصابات ويجردوننا مما نملك، وكانت تختلف علينا الحوادث من كل نوع وصنف.

وكثيراً ما كان يظهر في تلك الدسكرة رجل، أو قل شيطان في صورة إنسان، فلا يدري أحد: لم جاء أو من أين جاء؟ كان يشرب ويمرح، ثم يختفي كأنه تبدد في الهواء، ولا يعود يسمع عنه أحد خبراً، ثم يتجلى فجأة كأنه هبط من السماء، وينطلق في طرقات القرية التي كانت لا تبعد عن ديكانكا أكثر من مائة خطوة تقريباً، وإن لم يبق لها أثر الآن، وكان يلحق ببعض القوزاق الشاردين حيناً، فترتفع عقيرتهم بالضحك والغناء، وينفقون المال عن سعة، وتسيل الفودكا من بين أيديهم كأنها الماء، ويخص بعنايته الفتيات حيناً آخر، فيغدق عليهن الأشرطة والأقراط والقلائد حتى يحرن، فلا يعرفن ما عساهن أن يصنعن بها، وكانت الفتيات بطبيعة الحال يفكرن مرتين قبل أن يتقبلن هداياه، ذلك أن الشك كان يساورهن، فمن يدري؟ لعل الشيطان نفسه هو مصدر تلك الهدايا، وقد تحدثت عمه جدي في هذا الأمر، وكانت صاحبة حانة على الطريق الذي يُعرف اليوم بطريق أوبوشنيا حيث ألف باسفيوك -وهذا هو اسم ذلك الفتى الشيطان- أن يختلف إليه كثيراً يلهو ويمرح.

أجل تحدثت عمّة جدي فقالت: إنها ما كانت لتقبل هدية منه ولو وهبوا لها كنوز الأرض جميعاً، ولكن كيف كان يتاح لهن الرّفص؟ وقد كان الرعب يملك الجميع إذا قطب حاجبيه الكشين، وألقى من تحتها بنظرة تجعل أقوى الأقوياء يولي الأدبار. وإذا اتفق وقبلت فتاة هديةً منه، فقد كان من المحقق أن يزورها في الليلة التالية خل من خلانه ينزل إلى المستنقع وقد نبتت القرون في رأسه، ويحاول خنقها إذا كانت تلبس قلادة، أو يعض إصبعها إذا كانت تلبس خاتمًا، أو يشد شعرها إذا كانت تضع فيه شريطاً، إذن فلعنة الله على هداياه الجميلة! على أن أشق ما في الأمر هو أنه كان من المستحيل عليك التخلص من هذه الهدايا، فإن ألقيت بها في الماء طفت القلادة الملعونة أو الخاتم الملعون، وعاد إلى يديك مباشرة.

وكان في القرية كنيسة، هي كنيسة القديس بانتييلي، إن لم تك خانتني ذاكرتي، وكان قسيسها في تلك الأيام هو الأب إفناسي، طيب الله ثراه، وقد لاحظ إفناسي أن باسفيوك لم يختلف إلى الكنيسة قط حتى في أحد أعياد الفصح، فحاول أن يلومه وينذره بالعقاب تنزله به الكنيسة، ولكن لا حياة لمن تنادي! فقد مر باسافيوك بحذائه مرة حتى كاد يحف به وأجابه صائحًا: «استمع إليّ يا سيدي الصالح، لتلزم حذك، ولا تتدخل في شؤون غيرك من الناس، إلا إذا كنت تريد أن بغص حلقك الذي يشبه حلق التيس بالبليلة الساخنة»، فأني فائدة كانت تُرجى من هذا الفتى الملعون؟ لقد اكتفى الأب إفناسي بأن أعلن أن كل من يعاشر باسفيوك يصبح كاثوليكيًا وعدواً لكنيسة الله وللناس أجمعين.

وكان في القرية نفسها قوزاقي يُدعى كورز، يُستخدم عاملاً، عرفه الناس باسم بترو المقطوع النسب، وربما كان السبب في ذلك أنه لم يكن يذكر والديه أحد، وقد جرى سادن الكنيسة على القول بأن والديه ماتا بالطاعون وهو بعد في السنة الأولى من عمره، على أن عمه جدي كانت تنكر ذلك كل الإنكار وتبذل قصارى جهدها في خلع الأنساب عليه. على أن بترو المسكين لم يك يهتم بأنسابه أقل اهتمام. وكانت هذه المرأة تقول: إن أباه لا يزال في زابوروجي، وأن الترك أسروه، وقاسى على أيديهم ألواناً من العذاب لا يعلمها إلا الله، ثم هرب بطريقة عجيبة متنكراً في زي خصي. على أن الفتيات ذات الحواجب السود والغيد من النساء لم يكن يحفلن بنسبه أقل احتفال، بل اكتفين بالقول بأنه لو ارتدى رداء جديداً، ولبس قبعة سوداء من فراء أستراخان وحلها بقنزعة زرقاء، وتمنطق بحزام أحمر، وامتشق حزاماً تركياً، وحمل في إحدى يديه سوطاً وفي اليد الأخرى غليوناً جميلاً، لبز جميع شبان الناحية. إلا أن بترو المسكين لم يك يملك إلا سترة رمادية واحدة، فيها من الثقوب أكثر مما في جيب اليهودي من القطع الذهبية. ولم يكن هذا هو بيت القصيد، وإنما كان بيت القصيد هو أنه كانت لكورز العجوز ابنة رائعة الحسن لا أحسب أنكم رأيتم لها مثيلاً من قبل، وكانت عمه جدي تقول، والنساء كما تعلمون يؤثرن تقبيل الشيطان -وقاكم الله- على أن يصفن الفتاة بالحسن: إن وجنتي الفتاة الممكورتين كانتا تحاكيان الخشخاش نضرة وبهاء، إذ يبدو في أرق حلله الوردية حين يتألق وقد جلله الندى ونشر أوراقه وراح يتألق في ضوء الشمس المشرقة، وأن حاجبيها الشبيهين

بالعقود السود تشتريها فتياتنا اليوم من البائعين المسكوف المتجولين
يعلقن فيها الصلبان أو قطع النقود، كانا قد سويا في أجمل تقويم حتى
بدوا أنهما يحدقان النظر في عينيها الصافيتين، وأن فمها الصغير الذي
كان الفتیان يكادون يلتهمونه بأنظارهم التهامًا، قد تجلى للناس كأنما
خلق ليصدق بأنغام البلابل، وأن شعرها الذي يشبه في سواده الليل
الفاحم ويحاكي في نعومته نبات الكتان الغض، كان يسترسل في ثنيات
غزيرة على سترتها الموشاة بالذهب، «ولم تكن فتياتنا في تلك الأيام
يضعرن شعورهم ضفائر يربطنها بالأشرطة الزاهية اللون، ولا كتب الله
لي أن أعود فأصبح بحمده مع المرتلين إن أحجمت عن تقبيلها على
الفور الآن، على الرغم من الشيب الذي أخذ يدب فيما بقي لي من
شعر في رأسي، وعلى الرغم من زوجتي العجوز التي تحل دائما عندما
يقتضي الأمر غيابها. على أنكم تعلمون جميعًا ما عساه أن يحدث إذا
أقام فتى بالقرب من فتاة. لقد كانت آثار الحذاء الأحمر الصغير تُشاهد،
قبل مطلع الشمس، في البقعة التي كانت بيدوركا تُحدث فيها بترو،
على أن كورز لم يكن ليساوره في الأمر أدنى شك، لولا أن بترو -ولا
شك أن هذا من فعل الشيطان- ركب رأسه يومًا، فطبع على شفتي الفتاة
القوزاقية الورديتين قُبلة قوية في غرفة الانتظار، دون أن يستوثق تمامًا
من أنه بعيد عن عيون الرقباء. وقد أغرى ذلك الشيطان نفسه -وليرين
ابن الكلب هذا الصليب المقدس في منامه!- بأن يدفع الرجل العجوز
إلى أن يفتح الباب، ثم وقف كورز مشدوّهًا، وتعلق بالباب فاغرًا فاه،
والظاهر أن القبلة الملعونة أدارت رأسه تمامًا حتى بدت له أعلى صوتًا

من الرطمة تصيب جدار المدوك يجلبجل به الفلاحون في أيامنا لطرده
الأرواح الشريرة، إذ كانت تعوزهم البنادق والبارود.

وأفاق كورز من ذهوله، فجذب سوط الركوب الخاص بجده من
الحائط، وهم بأن يهوي به على ظهر بترو المسكين، وإذا بإيفان أخيه
بيدوركا البالغ من العمر ست سنوات يهرع إلى الغرفة ويطوق بذراعيه
ساقى العجوز، وقد تملكه الفزع، وأخذ يصيح: «لا تضرب بترو
يا أبتاه!».

ولم يكن في الأمر حيلة، ذلك أن قلب الأب لم يكن قد من صخر،
فعلق السوط على الجدار، وساق بترو في هدوء خارج الكوخ، وقال
له: «لو رأيتك مرة أخرى في كوخى أو ظهرت تحت النوافذ وحسب،
لخففت شاربك الأسود، وانتزعت قنزعتك من جلد رأسك، وإن كانت
من الطول بحيث تلتف مرتين حول أذنك، ولا كنت تيرنتي العجوز إن
لم أفعل!».

وما إن أتم قوله حتى لطمه لطمه خفيفة على قفاه، فانكفاً بترو على
وجهه فلم يبصر شيئاً، وكان ذلك عاقبة قبلاته.

وفاض الحزن بحبيبين المتناجين، ثم انطلقت إشاعة في القرية
تقول: إن زائراً جديداً كان يشاهد دائماً في محل كورز، وكان هذا
الزائر رجلاً بولندياً يرفل في وشي من ذهب، وله شارب وسيف ومهماز
وجيوب ترن رنين الجرس على الكيس يحمله تاراس قندلفتنا في تجواله
حول الكنيسة كل يوم. وإنا لنعلم جميعاً لم يزور الناس أباً فتاة كحيل
العين؟ وقد اتفق ذات يوم أن أخذت بيدوركا أخاها الصغير إيفاس بين

ذراعيها وهي غارقة في دموعها وهتفت به قائلة: «إيفاس يا حبيبي! انطلق انطلق السهم من قوسه، يا قرّة عيني، وامض إلى بترو، وقل له كل شيء، قل له: إن مناي أن أهيم في حب عينيّه العسليتين، وأن أُقبِّل وجهه الجميل، ولكن القدر يأبى عليّ ذلك. لقد بللت بدموعي الحرى أكثر من منديلين كبيرين، أما قلبي فيكاد ينفطر من الحزن والأسى! إن أبي هو عدوي وهو يُكرِّهُني على الزواج من ذلك البولندي البغيض، قل له: إنهم يستعدون للزفاف، ولكن لن تصدح الموسيقى في زفافنا، وسيرتل القساوسة بدلاً من المزمارة والقيثارة، ولن أخرج للرقص مع عروسي، بل سيحملونني حملاً، وسيخيم الظلام على مسكني المصنوع من خشب الأسفندان، وسيرتفع فوقه صليب بدلاً من المدخنة!».

ووقف بترو مشدوهاً بلا حراك كالحجر الأصم، وهو يستمع إلى كلمات بيدوركا يلقيها عليه الطفل الساذج، وقد شاب نطقه لثغة.

«أما أنا الفتى المسكين التعس فقد كنت أفكر في الذهاب إلى القريم أو تركية؛ لأفوز بالذهب في الحرب، ثم أعود إليك يا حبيبتي، ولكن هيهات! لقد أصابتنا عين شريرة حسود، وسيكون لي أن أيضاً زفاف يا حبيبتي، ولكن لن يشهد زفافي أحد من رجال الدين، بل سينعق الغراب الأسحم فوق رأسي بدلاً من القسيس، وسيكون السهل الواسع مسكني، وغيوم العاصفة الكالحة السقف الذي يظلني، ولينترعن النسرين عيني العسليتين، وتكتسح الأمطار عظامي القوزاقية ثم يجففها الإحصار، ولكن ما هذا الذي أقول؟ ولمن أشكو؟ وممن؟ يُخَيِّلُ إليّ أنها إرادة الله، فإن كان قد كتب عليّ الهلاك، فإني لا محالة هالك!»، ثم

مضى إلى الحانة لا يلوي على شيء.

وتولى عمه جدي شيء من الدهشة عندما شاهدت بترو يلم بالحانة في ساعة يقف فيها المسيحي الصالح بين يدي ربه يؤدي صلاة الفجر، وحملت فيه مذهولة حين طلب إبريقاً من الفودكا سعتة نصف سطل أو يكاد، وعبثاً حاول الفتى المسكين أن يغرق أحزانه في الخمر، فقد كانت الفودكا تلسع لسانه كحشيشة القريض، وتراعى له أنها أمر من الشيبة، فألقى بالإبريق على الأرض.

وانبعث صوت من فوق رأسه يقول: «خَلَّ عنك الحزن أيها القوزاقي!».

فالتفت -وإذا به يجد باسافريوك! أف، يا لغرابة منظره! لقد كان شعره كالشوك، وعيناه كعيني النور.

«إنني لأعلم ما أنت في حاجة إليه، إنه هذا!» ثم ضحك ضحكة شيطانية، وراح يصلصل بالجيب الجلدي الذي كان يحمله في حزامه. وجفل بترو:

وصاح الرجل الآخر وهو يصب القطع الذهبية في يده المبسوطة كالوعاء: «ها! انظر كيف تتألق! وكيف ترن! وإنك لتعلم أنني لا أسألك نظير كومة كاملة من هذه الشخاشيخ البراقة إلا أمراً واحداً».

فصاح بترو: «يا للشيطان! أفصح، فإني مستعد أن أفعل أي شيء!»، وتصاحف الرجلان على ما تعاهدا.

«اعلم يا بترو بأنك جئت في وقتك، ففي الغد يكون عيد القديس

يوحنا المعمدان، وهذه هي الليلة الوحيدة في السنة التي يزهو فيها الديشار، فأياك أن تضيع هذه الفرصة، وسأكون في انتظارك حين ينتصف الليل في أخدود الدب».

ولا أظن أن شوق الدجاج إلى اللحظة التي تجيء له فيها ربة الدار بالحَب كان أشد من شوق بترو لحلول المساء، وراح الفتى لا يمل من النظر ليرى: «أيطول الظل الذي تلقيه الشجرة، ويتورد ضوء الشمس الغاربة بحمرة الخجل؟ وكان صبره ينفد ثم ينفد كلما مرت الساعات، ويا لها من ساعات تمر بطيئة ثقيلة! وكأن النهار الذي خلقه الله قد ضل فلم يعرف له نهاية ينتهي عندها! ثم غربت الشمس آخر الأمر، ولم يبق إلا خط أحمر يلوح في جانب من السماء. على أن هذا الخيط أيضًا كان أخذًا في الزوال، وقد ازداد الجو برودة في الحقول، وراح الضوء يخفت ثم يخفت حتى ادلهم الظلام أخيرًا! ومضى بترو في طريقه وقد هم قلبه بأن يقفز من بين ضلوعه، ثم هبط في حذر مجتازًا الغابة الكثيفة حتى بلغ شقًا عميقًا في الأرض كان الناس يعرفونه باسم أخدود الدب. وكان باسافريوك قد سبقه إلى ذلك الموضع، وأصبح الليل حالك السواد لا يرى فيه المرء كفه إذا بسطها أمامه، وأخذ كل منهما بيد صاحبه، وشقا طريقهما في مستنقع موحل، فعلق الشوك النامي فيه بملابسهما، وراحا يتعثران في كل خطوة يخطوانها تقريبًا، ثم بلغا آخر الأمر مكانًا مستويًا، وتوقف بترو ليرى ما حوله، ذلك أنه لم يكن قد ألم بهذا الموضع من قبل قط، وتوقف باسافريوك أيضًا.

«أترى هذه الروابي الثلاث التي أمامك؟ لسوف تنمو فوقها الأزهار

من جميع الألوان والأشكال، ولكن لتحفظك الأرواح التي تحل في هذا المكان من أن تقطف زهرة منها. ومتى أزهى الديشار كنت في حلٍّ من ذلك، ولكن لا تلتفت وراءك مهما تخيلت من شيء يدور وراءك».

وأراد بترو أن يسأله سؤالاً، ولكن هيهات! لقد اختفى الرجل وصعد إلى الروابي الثلاث. فأين هي الأزهار؟ ولكن بترو لم ير منها شيئاً! فقد كان العشب الغزير قد غشيه السواد في كل مكان وغطى بغزارة نموه على كل ما عداه، ثم انبعثت في السماء ومضة من برق الصيف، ورأى بترو أمامه مهذاً كاملاً من الزهور، كلها رائع وكلها جديد عليه، ورأى هناك أيضاً ريش الديشار البسيط، فتحير في أمره ووقف مذهولاً وذراعاه في خاصرتيه.

«ولكن ما وجه العجب في ذلك؟ إن المرء ليشاهد من هذا القبيل أشياء مرات كل يوم، وما من عجب في ذلك، ومن يدري لعل الشيطان أراد أن يسخر مني؟».

ورأى فجأة زهرة صغيرة تلتفت وتحرك كأنما دبت فيها الحياة. لقد كانت هذه الزهرة مدهشة حقاً! ذلك أنها أخذت تتحرك وتنمو ثم تنمو ثم تضرب إلى الاحمرار كالجمرة، وبزغ على حين غرة نجم صغير، وانتزع شيء من الأشياء من مكانه، وتفتحت الزهرة أمام عيني بترو، وسكبت الضوء على ما حولها من الزهور كأنها الشعلة.

وقال بترو بينه وبين نفسه: «لقد حان الوقت!»، ومد يده، إلا أنه رأى بغتة مئات من الأيدي الخشنة الكثنة تمتد من خلفه تجاه الزهرة، وأخذ شيء يمرق من خلفه روحة وجيئة، وأغمض الفتى عينيه وجذب الساق،

فإذا بالزهرة في يده، ثم ساد السكون، وظهر باسافريوك وقد شحب لونه شحوب الموتى جالساً على جذمور شجرة لا يحرك أصبعاً، وعينه متعلقتان بشيء لا يستطيع رؤيته إلا هو، وقد انفتح فمه نصف فتحة ولم يصدر عنه أي صوت، ولم يتحرك شيء مما حوله. لقد كان الموقف رهيباً! ثم انبعث آخر الأمر صوت صفير بعث الرعدة في أوصال بترو، وخُيِّل إليه أن العشب كان يتهامس والزهور تتحدث بأصوات رقيقة كأنها رنين الأجراس الفضية، وتجاوبت الأشجار بزئير الرياح المزمجرة، ودبت الحياة فجأة في وجه باسافريوك ولمعت عيناه، ودمدم من بين أسنانه هاتفاً: «لقد عدت أيتها الساحرة العجوز! انظر يا بترو! لتسفرن لك عادة فاتنة، فافعل كل ما تأمرك به، أو تصبح من الهالكين أبد الآبدين».

ثم فرق بعضا ذات عقد شجيرة من الحسك، وإذا بكوخ صغير يظهر «كوخ ساحرة كما يقولون في قصص الجن والعفاريت»، وضرب باسافريوك الكوخ بقبضة يده فتداعى منه الجدار، وانطلق كلب أسود كبير لملاقاتهما، ثم استحال قطعاً وقفز هارباً وهو يصيح في وجهيهما. وقال باسافريوك: «لا تغضبي أيتها الساحرة العجوز!»، ومزج عبارته بسباب يسد له الرجل الصالح أذنيه، وعندئذ انتصبت امرأة عجوز في الموضع الذي كان يقف فيه القط، وقد علتها الغضون والتجاعيد كأنها التفاح المطهو، وانحنى ظهرها حتى تلاقى أنفها وذقنها ككسارة البندق. وقال بترو بينه وبين نفسه: «يا للجمال الفاتن!»، وسرت في جسده رعدة.

واختطفَت الساحرة الزهرة من يده، وقضت وقتاً طويلاً تتمم

عليها، وتنضحها بماء من نوع خاص، وكان الشرر يتطاير من فمها، وقد علت شفتيها شيات من الزبد، وقالت وهي ترد إليه الزهرة: «الق بها»، فألقاها بترو، ومن عجب أنها لم تقع على الأرض لتوها، بل ظلت معلقة في الفضاء وقتاً طويلاً كأنها كرة من نار تضيء في الظلام، ثم أخذت تطفو في الهواء كالقارب، ثم راحت تهبط في بطن، ثم سقطت بعيداً جداً حتى بدت كالنجم الصغير لا يزيد حجمها عن بذرة الخشخاش، وانبعثت العجوز تخرخر في صوت خاوي النبرات وهي تنشج نشيجاً: «هاك!»، ومضى باسفيروك يقول وهو يناوله مجرّفاً: «احفر هنا يا بترو، تر من الذهب ما لم تحلم به أنت أو كورز!».

وتفل بترو في يديه، واختطف المجرف ودفعه في الأرض بقدمه وأخرج التراب ثم ملأ مجرّفاً آخر بالتراب.. وأتبعه ثالثاً.. ورابعاً، ثم ارتطم المجرف بشيء صلب، وأبى أن يوغل في الأرض أكثر مما أوغل، واستطاع بترو أن يبصر بعيني رأسه صندوقاً صغيراً مطوقاً بالحديد، وحاول أن يمسكه، ولكن الصندوق غاص في الأرض ثم غاص، ورنّت خلفه ضحكة كفحيح الأفاعي أو هي أقرب.

وهتفت به الساحرة: «كلا! لن ترى الذهب حتى تريق دم إنسي!»، وجاءت له بطفل في السادسة أو نحوها ملفوفاً بغطاء من النسيج الأبيض، وأخذت تشير إليه بأن يفصل رأسه عن جسده، وعقدت الدهشة لسان بترو، يا للهراء! أيقتل إنسيّاً، بل طفلاً بريئاً، من غير جريرة؟ ونزع في غضب غطاء النسيج عن الطفل، فماذا رأى؟ رأى أمامه إيفاس! وكان الطفل المسكين قد شبك يديه على صدره، ونكس رأسه، وانقض بترو

كالمجنون على الساحرة والسكين في يده ورفع يده ليضرب.

وصاح باسافريوك في صوت كالرعد: «وأين وعدك الذي وعدت إكرامًا للفتاة؟»، ونفذت كلماته في قلب بترو كالرصاصة، ودقت الساحرة الأرض بقدمها، فانبثق من الأرض لهب أزرق أضاء جوفها نفسه حتى بدا كأنما صُنع من البلّور، وتكشف للأنظار كل شيء تحت سطح الأرض، وظهرت قطع الذهب والأحجار الكريمة في صناديق وقدر مكمومة أكوامًا في الموضع الذي كانوا يقفون فوقه، وتوقدت عينا بترو وأصابه دوار، وأمسك بالسكين كمن أصابته لوثة، وانبثق الدم الطاهر أمام عينيه، وجلجلت من حوله ضحكات شيطانية، وأخذت وحوش مخيفة تقفز قطعانًا أمامه، وقبضت الساحرة بيديها على الجثة المقطوعة الرأس، وراحت ترتوي من الدماء كأنها الذئب، ودار رأس بترو، وبذل جهد اليأس، حتى استطاع أن يسلم ساقيه للريح، وغشي كل شيء من حوله ضوء أحمر، وبدت الأشجار وهي غارقة في الدماء كأنها تشتعل وتئن، وكانت السماء الحمراء المتوهجة تنتفض وترتجف، وومضت أمام عينيه ومضات من نار كأنها البرق، وجرى يلهث لهثًا شديدًا حتى بلغ كوخه، ثم ارتمى على الأرض فاقد الوعي، واستغرق في نوم شبيه بالموت.

ونام بترو يومين وليلتين دون أن يستيقظ، وأفاق من غشيته في اليوم الثالث، وانبعث يحملق في أركان الكوخ، وعبثًا حاول أن يذكر ما وقع له، فقد كانت ذاكرته كجيب الشيخ البخيل يتعذر عليك أن تُخرج منها فلسًا، ثم تمطى قليلًا، فسمع صوت شيء يخشخش عند قدميه. لقد كان ثمة كيسان من الذهب عند موطن قدميه، وتذكر عندئذ فحسب،

أجل تذكر كما لو كان في حلم، أنه كان يبحث عن كنز، وأنه كان وحيداً
مستطار اللب في الغابة، ولكنه لم يستطع أن يتذكر الثمن الذي دفعه لقاء
هذا الكنز، ولا الوسيلة التي توصل بها للحصول عليه.

ورأى كورز الكيسين فلان قلبه، وأخذ يشني على بترو بكيت وكيت،
مبدئاً أنه لا يستطيع أن يفهم حقه: «أو لم يك مشغولاً به دائماً؟ أو لم يكن
مني في منزلة الابن؟»، ومضى الثعلب العجوز مشتطاً في ثنائه، حتى تأثر
بترو وطفرت الدموع من عينيه، وانطلقت بيدوركا تحدثه كيف خطف
بعض النور الذين مروا بهم إيفاس، ولكن بترو لم يستطع أن يذكر وجه
الغلام نفسه؛ ذلك أن تلك الفعال الشيطانية الملعونة كانت قد أذهلته
وأطارت منه اللب.

ولم يك ثمة داع للتمهل والتأخير، فقد ردوا العروس البولندي خائباً
مقطوع الرجاء، وأخذوا يعدون العدة للزفاف، وخبزوا كعك الزفاف،
وطرزوا المناشف والمناديل، وأخرجوا برميلاً من الفودكا، وأجلسوا
الشاربين إلى المائدة، وقطعوا كعكة الزفاف، وعزفوا على المزمار
والقيثارة و«البندورة»^(١) ودقوا الصنوج، ثم راحوا يلهون ويمرحون.

ولا وجه لمقارنة حفلات الزفاف اليوم بما كانت عليه في هاتيك
الأيام التي ألفت عمة جدي أن تحدثني عنها، ويا لها من ولاء؛ لقد
كانت تقص عليّ كيف كانت الفتيات يرقصن مطوفات بالغرفة في
رشاقة الطواويس، ويحففن بك طاويات الأرض كالزوبعة، وقد ارتدين
لباساً للرأس أنيقاً من شرائط صفر وزرق وفي لون الورد وعصبه

(١) البندورة آلة موسيقية روسية.

بضفيرة ذهبية، وقمصاناً جميلة طُرزت كل طية من طياتها بالحرير الأحمر وزُينت بالأزهار الفضية الصغيرة، ووضعن في أقدامهن أحذية مراكشية من ذوات الكعوب العالية والنعال الملبسة بالحديد، وكيف كانت الزوجات الشابرات يرتدين غطاء للرأس يشبه القارب، صُنعت قمته كلها من نسيج حريري مُوشى بالذهب، وقد شُقَّ من الخلف شقاً صغيراً تبص من تحته القبعة الذهبية، وحُلِي هذا الغطاء بقرنين صغيرين من أرقى أنواع الفراء الأستراخاني الأسود، أحدهما في مقدم الرأس والآخر في مؤخره، كما ارتدين سترات زرقاً من أحسن أنواع الحرير لها أهذاب حمر، وقد وضعن أذرعهن في خواصرهن في إباء واعتزاز بالنفس، ورحن يخرجن الواحدة في إثر الأخرى من الحلقة ليرقصن رقصة «الهوباك» في إيقاع رتيب منتظم، وكيف كان الفتيان بقبعاتهم القوزاقية الطويلة، وستراتهم البديعة النسج، وأحزمتهم الموشاة بالفضة وأسنانهم مطبقة على غلايينهم يزاملون هؤلاء الزوجات الشابرات في الرقص ويقفزون كل أنواع القفز. وشاهد كورز الفتيان فلم يسعه إلا أن يستعيد شبابه، وراح يرقص ويغني والبندورة في يديه والغليون في فمه، وأخذ في الوقت نفسه يثبت كأساً على رأسه. إلا ما أغرب ما يفكر فيه القوم عندما يأخذون في اللهو! إنهم يبدأون مثلاً بوضع القناعات على وجوههم، يا إلهي! إنهم ليبدون عندئذ كالوحوش سواء بسواء! آه! لقد كان الأمر في تلك الأيام يختلف كل الاختلاف عما يأخذ به الناس أنفسهم الآن من لباس في حفلات الزفاف التي تقام اليوم، فماذا يفعلون اليوم؟ إن كل ما يفعلون هو أن يلبسوا ملابس عجيبة تحاكي ملابس

النَّور أو المسكوفيات، أما في الأيام الخالية فقد كان القوم ما بين يهودي وشيطان يبدأون بأن يقبل الواحد منهم الآخر، ثم يشرع في شد قنزة رأسه، تالله إن المرء كان يضحك حتى ينشق جنباه من الضحك. وكان القوم يرتدون الملابس التركية والتترية تتألق جميعها تألق النار، فإذا شرعوا في العبث وأداء ألاعيبهم لم يك ثمة حد لما يفعلون! وقد وقعت لعمة جدي حادثة مضحكة وكانت قد حضرت ذلك الزفاف، ترتدي ثوباً تترياً فضفاضاً، وتقدم الخمر إلى الجمع من قدح في يدها، ذلك أن الشيطان أوعز إلى شخص من الحاضرين بأن يرش الفودكا عليها من الخلف، وكان بين الحاضرين شخص آخر لا يقل فيما يظهر مهارة من ذلك الشخص، فقد أشعل في الوقت نفسه عود ثقاب وأوقد فيها النار، وتأجج اللهب، وتملك الرعب عمتي المسكينة وانبعثت تخلع ملابسها جميعاً أمام الجمع كلهم، وارتفعت الضوضاء، وعلا الضحك، وانطلق الضجيج عنيقاً صاخباً حتى أصبح المكان كالسوق! والحق أن الشيوخ لم يبق في ذاكرتهم زفاف بلغ فيه المرح ما بلغه في ذلك الزفاف.

وبدأت بيدوركا وبترو يعيشان عيشة الزوج والزوجة من أفاضل القوم، وتيسر لهما من كل شيء نعيم وافر، وكان ما عندهما جديداً كل الجدة، ولكن التقى والصالح كانوا يهزون رؤوسهم قليلاً وهم يراقبون حياتهما، وراحوا يقولون جميعاً كأنهم رجل واحد: «لا خير فيما يأتي به الشيطان، تُرى من أين له بهذه الثروة إن لم تكن قد أتته من ذلك الذي يضل المسيحيين الصالحين بغوايته؟ أجل من أين له هذا الكوم من الذهب؟ ولم اختف باسافريوك في اليوم الذي أثرى فيه بترو؟».

ولعلك ترى أن الناس تتقول الأقاويل! ولكن الحق أنه لم ينقض على هذه الحال شهر، حتى كان يتعذر على أي إنسان معرفة بترو، ولم يكن يعلم إلا الله ماذا حدث له، فقد كان يجلس ساكتًا لا يأتي بحركة ولا ينطق بكلمة لأي مخلوق، كان دائمًا مستغرقًا في تأملاته، يحاول فيما يظهر أن يتذكر شيئًا، فإذا أفلحت بيدوركا في حمله على الكلام، بدا له أنه نسي ما يشغل باله، ثم يواصل معها الحديث، بل قد يظهر عليه المرح، فإذا وقع نظره مصادفة على الكيسين قال: «انتظري انتظري، لقد نسيت!» ثم يعود إلى الاستغراق في تأملاته محاولاً أن يتذكر شيئًا. وكان يخلد إلى السكون وقتًا طويلاً، ثم يبدو عليه أنه على وشك أن يتذكر كل شيء.. على أن هذا الخاطر لا يلبث أن يختفي. وخيّل إليه مرة أنه كان جالسًا في حانة، ثم جاءوا بالفودكا، فألهبت جوفه، ذلك أنها كانت رديئة، وأقبل عليه شخص وربت كتفه، ثم غم عليه بعد ذلك كل شيء كأنما غشيته ضبابه، وكان العرق يتصبب على وجهه فيعود إلى الجلوس، وقد نال منه التعب والإجهاد حتى أضناه!

ولكن هل تركت بيدوركا شيئًا في وسعها ولم تفعله من أجله؟ لقد فزعت إلى الدجالين تلتمس عندهم المشورة، وصبت الشمع في الماء، وأحرقت قطعة من القنب^(١)، على أن ذلك كله لم يجده نفعًا.

(١) إذا تملك الرعب أحدًا وأراد القوم أن يعرفوا السبب في ذلك صبوا الشمع أو القصدير الذائب في الماء فيتخذ صورة ذلك الشيء الذي أثار الرعب في قلبه، ويزول عنه هذا الرعب. وكان القوم يحرقون القنب شفاء للمريض أو إبراء لداء المعدة، فتشعل النار في قطعة من القنب، وتلقى في كوز يقلب على طاس من الماء يوضع على معدة المريض، ثم يرددون تعويذة ويعطونه ملء ملعقة من الماء يشربها. (المؤلف).

وولى الصيف، وكان كثير من القوزاق قد فرغوا من حصد محصولهم وجمعه، وخرج للقتال أكثرهم إقدامًا واستهتارًا بالحياة، وكانت أسراب البط لا تزال كثيرة في مستنقعاتها، ولم يكن بينها صعوة واحدة، واصطبغت السهوب باللون الأحمر، وانتشرت في أرجاء الحقول أكداس من القمح تحاكي قلانس القوزاق، وكنت تصادف في الطرق العربات محملة بحزم الحطب وكتل الخشب، وازدادت الأرض رسوخًا وصلابة في مواضع، وألم بها الصقيع في مواضع، وبدأ الجليد يتساقط وكسا غصون الأشجار حلته، فبدت كفراء الأرنب البري، وانطلق الدقناش «وهو العصفور الأحمر الصدر» في يوم شديد الصقيع مفتشًا عن البذور في أكوام الجليد يتبختر كأنه سيد بولندي أنيق، وكان الأطفال يضربون دواماتهم الخشبية على الجليد بعصي غليظة، على حين جلس آبائهم ساكنين على أريكة الموقد يخرجون من ديارهم بين الفينة والفينة قابضين بأسنانهم على غلايينهم المشتعلة ليعلموا صراحة ذلك الصقيع المسيحي الصالح! أو يستنشقوا الهواء ويدرسوا الحنطة المخزونة في غرفة دارهم الخارجية.

وبدا الجليد يذوب آخر الأمر، وحطمت الحربة بذيلها الجليد كما يقولون!

ولكن بتر و ظل على حاله، بل ازداد بمرور الزمن كآبة على كآبة، فكان يجلس في وسط الكوخ كأنه تسمر في مكانه وكيسا الذهب عند موطن قدميه، ويتحاشى الاختلاط بالناس، وقد ترك شعره ينمو وبدأت ملامحه تتغير تغيرًا بشعًا، ولم يك يفكر إلا في شيء واحد. لقد

ظل يحاول أن يتذكر شيئاً، وأقلقه أشد القلق وأغضبه أعظم الغضب عجزه عن تذكره، وكثيراً ما كان يهب واقفاً من مقعده جامحاً مهتاجاً، يلوح بذراعيه ويحملق في شيء كأنما يريد أن يمسكه، وكانت شفتاه تتحركان كمن يريد أن ينطق بكلمة طال عليه نسيانها، ثم يظل بعد ذلك ساكناً بلا حراك. كان قد غلبه الغضب والهياج على أمره وكان يقرض يديه ويعضهما كمن به جَنَّةٌ، ويمزق شعر رأسه حفاً من شدة الضيق والكرب حتى يعود إلى الهدوء مرة أخرى ويبدو كأنه في لجة النسيان، ثم يبدأ من جديد فيعود التذكر، ويرجع إلى شأنه، فيستبد به الهياج والعذاب. لقد كان ذلك نقمة أنزلتها به السماء!

أما بيدوركا فلم يعد في حياتها ما يستحق أن تعيش من أجله، ذلك أنها كانت في أول الأمر تخاف أن تظل وحيدة في الكوخ، ثم ألقت المسكينة ما رماها به القدر من شقاء وتعس، ولكن ما من أحد كان يعرف أنها هي بيدوركا المعهودة، فقد غاض الدم في وجتيها، واختفت الابتسامة من شفتيها، كانت تذوب أسى ويضمحل جسمها ويدوي، وكانت تبكي بكاء يطفئ ضياء العين ويذهب بنورها. وأشفق عليها مرة إنسان فنصحها بأن تمضي إلى الساحرة المقيمة في أهدود الدب، التي اشتهر عنها أنها تشفي جميع الأمراض في هذا العالم. واستقر رأيها على أن تجرب هذه الوسيلة الأخيرة، وأقنعت الساحرة شيئاً فشيئاً بأن تأتي معها إلى الدار، وكان ذلك في ليلة عيد القديس يوحنا بعد أن غربت الشمس، وكان بترو مستلقياً على الأريكة وقد استغرق في تأملاته فلم ير الزائرة وهي تدخل، ولكنه أخذ يهم بالجلوس

رويدًا رويدًا وينظر إليها، ثم انتفض فجأة كأنه على المشنقة، ووقف شعر رأسه، ثم انفجر ضاحكًا ضحكة ذهبية بلب بيدوركا، وصاح في فرح مخيف: «تذكرت! تذكرت!»، وتناول فأسًا بسرعة وألقى بها بكل قوته على العجوز، ونفذت الفأس في الباب المصنوع من السنديان بوصتين، واختفت العجوز، وإذا بطفل في السابعة أو نحوها يرتدي قميصًا أبيض ويغطي رأسه بغطاء، يقف في وسط الكوخ، وانحسر النقاب عن رأسه، فهتفت بيدوركا قائلة: «إيفاس!»، ثم هرعت إليه، إلا أن الشبح كان ملطخًا بالدم من قمة رأسه إلى أخمص قدمه، وانبعث منه ضوء أحمر غمر أنحاء الكوخ جميعًا، وجرت بيدوركا إلى الغرفة الخارجية وقد ملأ الرعب قلبها، ولكنها ثابت إلى رشدها، وتاقت نفسها إلى مساعدة أخيها، ولكن هيهات! فقد انصفق الباب من خلفها حتى تعذر عليها فتحه، وجاء الجيران ركضًا وراحوا يقرعون الباب ثم اقتحموه، ولكنهم لم يجدوا داخل الكوخ أحدًا، فقد امتلأت أرجاؤه جميعًا بالدخان، وإنما كان يقوم في وسطه حيث كان يقف بترو، كوم من الرماد لا يزال يتصاعد الدخان منه، واندفع الجيران صوب الكيسين فوجدوهما مليئين بكسر من الشقف بدلًا من قطع الذهب، وأوقعت هذه المعجزة في قلوب القوزاق من الرعب والفرع ما جعلهم يقفون كأنهم تسمروا في الأرض، وقد انفجرت أفواههم وجحظت عيونهم، ولم يجدوا في أنفسهم من الشجاعة ما يسمح لهم بتحريك رمش واحد من رموشهم.

ولست أذكر ما حدث بعد ذلك، فقد نذرت بيدوركا أن تخرج في رحلة للحج، فجمعت كل ما خلفه لها أبوها من متاع، واختفت بعد

أيام قليلة من القرية، ولم يدر أحد أين ذهبت، إلا أن بعض الشرارات من المعجائز تفضلن، فأعلن أنها لحقت ببترو، على أن قوزاقيًا قادمًا من كيف زعم أنه رأى في الدير راهبة ذوى جسمها ونحل حتى بدت كالشبح، وانقطعت للصلاة انقطاعًا، وقد عرف القرويون مما وصفها به أن هذه الراهبة هي بيدوركا، وأنبأهم الرجل أيضًا بأنه لم يسمعها أحد قط تنطق بحرف، وأنها جاءت إلى الدير سعيًا على قدميها، وحملت معها رصيعة لأيقونة السيدة العذراء ضمت من الجواهر المتلاثلة ما يبهير كل عين تقع عليها.

ولكن اسمحو لي بأن أقول لكم إن القصة لم تنته عند هذا الحد، فقد عاد باسافريوك إلى الظهور في اليوم الذي قتل فيه الشيطان بترو، ولكن الناس جميعًا كانوا يهربون منه، فقد تبينوا الآن أي صنف من المخلوقات هو! إذ ما من مخلوق يتنكر في صورة الإنسان ليستخرج من باطن الأرض كنزًا دفينًا إلا الشيطان نفسه. على أن الأيدي الدنسة لم تكن لتمس الكنز، فعمد الشيطان إلى إغراء الشبان المستهترين بمعاونته، وفي السنة نفسها هجر الناس جميعًا أكواخهم القديمة وانتقلوا إلى قرية كبيرة تجاور قريتهم! ولكنهم لم يسلموا في هذه القرية نفسها من شر باسافريوك الملعون، وقد جرت عمة جدي على القول بأنه غضب عليها خاصة؛ لأنها هجرت حانتها القديمة التي كانت في طريق أبوشنيا، وبذل قصارى جهده ليشتريها منها.

واجتمع شيوخ القرية ذات يوم في حانتها، وراحوا يتداولون كل على قدر عقله، كما يقول المثل، وقد جلسوا حول المائدة وكان

يتوسطها كبش كامل مشوي، وإني لأجانب الحق لو قلت إنه صغير. أجل كانوا يتداولون في شتى الموضوعات، وفي المعجزات والوقائع الغريبة، وتراعى لهم فجأة أن الكبش يرفع رأسه وتتألق عيناه السوداوان الماكرتان وتذب فيهما الحياة، ولو أن واحداً منهم فحسب هو الذي تراءى له ذلك لهان الأمر بطبيعة الحال، ولكنهم جميعاً شاهدوا هذا الذي حدث دفعة واحدة، ونبت للكبش فجأة شارب خشن أسود أخذ يفتله في وجه الجماعة فتلاً له مغزاه، ولم يلبثوا جميعاً أن تبينوا في رأس الكبش وجه باسفريوك، بل حُيِّل إلى عمة جدي أنه لم تمض لحظة حتى يبادر بطلب الفودكا، وتناول الشيوخ الفضلاء قبعاتهم، وهرعوا إلى بيوتهم.

وحدث في يوم آخر أن سادن الكنيسة الذي ألف أن يخلو إلى كأس الأسرة نصف ساعة يقضيها في هدوء وسكون، لم يكد يفرغ ما في الكأس مرتين حتى رآها تنحني له، فصاح قائلاً: «ألا فليذهب بها الشيطان!»، وأخذ يرسم إشارة الصليب. ووقع في الوقت نفسه حادث غريب لشريكة حياته، ذلك أنها ما إن أشرفت على أن تنتهي من خلط الدقيق في قصعة كبيرة حتى قفزت القصعة فجأة وطارت بعيداً عنها، فصاحت الزوجة: «قفي! قفي!»، ولكن لا حياة لمن تنادي، فقد وضعت القصعة ذراعيها في خاصرتيها، وراحت ترقص في وقار ورزانة في أرجاء الكوخ جميعاً. وقد يشير فيكم ذلك من الضحك ما يثير، ولكن الأمر لم يكن يدعو إلى الضحك عند جدودنا، وقد انطلق الأب إنفاسي في القرية يرش أرجاءها جميعاً بالماء المقدس، ويطرد الشيطان بالرشاشة من كل

طريق، إلا أن عمة جدي ظلت تشكو زمناً طويلاً قائلة: إن المساء لم يكن ليحل حتى تسمع شخصاً يقرع على السقف ويخربش في الجدار. ولكن رويدكم! فقد يذهب بكم الظن إلى أن الهدوء والطمأنينة قد شملا في الوقت الحاضر ذلك المكان الذي تقوم فيه قريتنا، على أنكم تعلمون أن الأحوال ظلت على ما هي عليه إلى عهد ليس ببعيد، عهد يذكره أبي، بل أذكره أنا حقاً، فقد كان الرجل الصالح لا يستطيع أن يمر بالحانة الخربة التي أصلحها أهل الدنس بعد ذلك بأمد طويل على حسابهم، إذ كان الدخان يتصاعد سحائب من المدخنة القذرة، ويضرب في السماء حتى كانت قبعة المرء خليقة بأن تسقط عن رأسه وهو يتطلع إليه، وينشر الجمر في أرجاء السهب. وقد ألف الشيطان -وقانا الله ذكره لعنة الله عليه- أن يتحب في وكره نحيباً محزناً يلقي الرعب في قلوب الغربان المرتاعة، فتفزع من الغابة المجاورة أسراباً أسراباً، وتنتشر في السماء مطلقة صرخات أبدة مستوحشة.



ليلة من ليالي شهر مايو

أو العذراء الغريقة

لا يعلم هذا الأمر إلا الشيطان وحده! فما إن
يشرع المسيحيون في عمل من الأعمال حتى
يرهقوا أنفسهم ثم يرهقوها كأنهم كلاب
تطارد أرنبًا بريًا، وتذهب جهودهم جميعًا
هباء، فإذا ما تدخل الشيطان لم يقتض ذلك
منه إلا انتفاضة من ذيله!

- ١ -

حنة

انسابت أغنية في طرقات القرية انسياب النهر مجلجلة تتردد وتتردد،
وكان ذلك في الساعة التي ينفض فيها الفتيان والفتيات عن كاهلهم ما
ينوء به من مشاغل اليوم ومتاعبه، ويجتمعون في نور المساء الصافي
المورد يتدفق المرح والبهجة من قلوبهم أنغامًا لا تخلو من رنين الحزن
والأسى. وكان المساء الحاني يحتضن هائمًا في أحلامه السماء الزرقاء

الداكنة، فيُضفي على كل شيء جَوْاً من الغموض والسمو. وكان الغسق قد حل ولكن الغناء لم يكف، وانفلت ليفكو، الشاب القوزاقي وابن شيخ القرية، من زمرة المنشدين وفي يده بندورة، وكان يرتدي قبعة من الأستراخان، واجتاز الطريق وهو يضرب على أوتار البندورة ويرقص على نغماتها، ثم وقف آخر الأمر في هدوء أمام باب كوخ تحيط به أشجار الكرز القصيرة العود. تُرى من كان صاحب الكوخ؟ ولمن كان هذا الباب؟ وساد الصمت لحظات ثم انطلق ليفكو يعزف ويغني:

ها هي ذي الشمس قد انحدرت، وأوشك المساء أن يحل، فاخرجي إليّ يا حبة قلبي!

وفرغ القوزاقي من أغنيته وقال: «إيه يا فتاتي الجميلة المشرقة العين، يخيل إليّ أنها مستغرقة في النوم»، ثم اقترب من النافذة وراح يهتف: «حنة! حنة! أناثمة أنتِ أم تراكِ لا تريدين الخروج إليّ؟ أظن أنك تخافين أن يرانا أحد، أم لعلك لا تريدين أن تطلي بوجهك الصغير الفاتن في هذا البرد! لا تراعي، فالمكان خال، والمساء دافئ، ولئن أَلَمَ بنا أحد غطيتكِ بسترتي ولففت حزامي حولكِ ووقيتكِ بذراعي، فلا يرانا أحد، وإذا انبعثت في الجو لفحة من البرد ضممته إلى قلبي أكثر وأكثر، وأشعت الدفء في جسمكِ بقبلاتي، ووضعت قبعتي على قدميك الصغيرتين البيضاوين، يا بهجة قلبي، وحة فؤادي، وقرة عيني! أطلي عليّ لحظة، وإن شئت فحسبي أن تمدي يدكِ البيضاء الصغيرة من النافذة»، ورفع صوته وهتف في لهجة تنم عن خجله من أنه أذل نفسه لحظة: «كلا! لست نائمة أيتها الغادة الأبية المتعالية، وإنما يسركِ أن تسخري مني، فوداعاً».

ودار على عقبه، وسوّى قبعته على رأسه، ومضى رافع الرأس، يضرب أوتار البندورة في رقة وعدوبة، وإذا بالمقبض الخشبي يدور، ويفتح الباب في صرير، وتطل فتاة في ربيعها السابع عشر وقد شاع في وجهها خفر وحياء وطواها الغسق في غلالته، واجتازت الفتاة عتبة الباب دون أن تترك المقبض، وتألفت عينها المشرقتان في الضوء الخافت كالنجوم، ولمعت قلاحتها المصنوعة من المرجان الأحمر، بل إن حمرة الخجل الرقيقة التي صبغت وجنتيها لم تخف على الفتى الحديد البصر.

وقالت له الفتاة في صوت خفيض: «ما أقل صبرك! وفيّم هذا الغضب الذي اعتراك؟ ولم اخترت هذه الساعة؟ إن جموعًا من الناس يسرون في الطريق روحه وجيئة، وإني لأتفض إذا...».

وجلس الفتى معها على باب الكوخ، وراح يطوقها بذراعيه، وألقى إلى جانبه بندورته التي كانت معلقة في عنقه بسير طويل من الجلد، ثم قال: «أواه! لا ترتعدي يا ريحانة قلبي! والتصقي بي أكثر وأكثر! فإنك لتعلمين مقدار ما أحس به من عذاب إذا بعدت عنك ساعة من زمان».

وقالت الفتاة وهي ترمقه بنظرات المستغرق المتأمل: «أتدري ما أفكر فيه؟ يخيل إليّ أن شيئًا لا ينفك يوسوس في قلبي بأننا لن نلتقي كثيرًا، ذلك أن القوم هنا ليسوا من خيار الناس، فالفتيات جميعًا ينظرن إليّ والحسد يأكل قلوبهن، وكذلك الفتيان، بل إنني لألاحظ أن أُمي قد جرت أخيرًا على التشدد في مراقبتي، ولا أنكر عليك أن الحياة كانت تطيب لي أكثر عندما كنت أقيم بعيدًا عن هذه الديار».

وعلت وجهها مسحة من الحزن وهي تنطق بهذه الكلمات الأخيرة.
«هل تقضين شهرين في هذه الديار فحسب ثم يدركك السأم؟
لعلك سئمتيني أنا أيضًا!».

فأجابته وهي تبسم: «كلا، لم أسأمك، بل إني لأحبك أيها القوزاقي
الكحيل العين! أحب فيك عينيك العسليتين، ويخيل إليّ حين ترنو إليّ
أن السرور يغمر قلبي فيفيض بالبشر والسعادة! وأحب فيك أنك تفتل
شاربك الأسود على نحو يبعث في النفس البهجة والسرور! وأحب
فيك أنك تسير في الطرقات مغنيًا وعازفًا على البندورة، ثم إن الاستماع
إليك متعة».

فصاح الفتى وهو يقبلها، ويضمها إلى صدره: «آه يا حبيبتي حنة!».
«أمسك! وحسبك يا ليفكو! وقل لي أولًا: هل أنبأت أباك؟».

فقال وكأنه يستيقظ من نوم كان مستغرقًا فيه: «أخبره بماذا؟ بأنني
أريد أن أتزوج وأنت ستكونين زوجتي؟ أجل، لقد أنبأته؟»، على أن
عبارته الأخيرة قد شابها الحزن وهي تخرج من بين شفثيه.
«وبعد؟».

وما حيلتي معه؟ لقد تظاهر هذا الوغد العجوز بالصم كشأنه دائمًا،
وأشاح بسمعه عني، ثم راح ينهرني على تسكعي، والله يعلم أين،
ويلومني على الانطلاق في الطرقات أنا وخلاني نمرح ونعبث، ولكن
لا تحزني أيتها الحبيبة حنة! فإني أعدك وعد قوزاقي بأن أتحايل عليه».
«حسبك أن تنطق بالكلمة يا ليفكو فيكون لك كل ما تريد، وإني

لأتبين ذلك في نفسي، فقد يبدو لي في بعض الأحيان ألا أطيعك، ولكنك ما إن تنطق بكلمة واحدة حتى أجدني مسوقة إلى فعل ما تريد»، ثم مضت تقول وهي تلقي برأسها على كتفه وتلتفت متطلعة إلى السماء الأوكرانية العامرة بالدفع تتجلى بزرقها الداكنة من خلال غصون أشجار الكرز المورقة التي انتصبت أمامهما: «انظر! انظر! انظر، هنالك تجد على البعد النجوم تتلألأ - واحد، اثنان، ثلاثة، أربعة، خمسة، إنها ملائكة الخالق تفتح نوافذ مساكنها المتألقة في السماء وتطل علينا، أليس كذلك يا ليفكو؟ إنها ترمق أرضنا بنظراتها أليس كذلك؟ لو أن للناس أجنحة كالطيور لارتفعوا إليها في عليائها، آه من هذا الأمر الرهيب! أليس هنا شجرة سنديان واحدة ترتفع إلى عنان السماء؟ ولكنهم يقولون أن ثمة شجرة في بلاد نائية تبلغ عنان السماء، وسينزل الله عليها إلى الأرض في ليلة عيد الفصح».

«كلا يا حنة، فإن لله سلمًا يصل بلا عوج من السماء إلى الأرض، وينصبه رؤساء الملائكة الأبرار قبل أحد الفصح، وما إن يضع الله قدمه على الدرج الأول منه حتى تخر جميع الأرواح الشريرة منكبة على وجوهها وتهوي زمراً في قرار الجحيم، ولذلك لا تجددين روحاً شريرة واحدة على ظهر الأرض في عيد قيامة المسيح».

ومضت حنة تقول: «ما أعذب خريز الماء يتناغى كالطفل يرقد في المهد!»، وراحت تشير إلى البركة وهي تبدو في إطارها الداكن من شجر الإسفندان والصفصاف النائح تحنو عليها أغصانه حتى تغوص في مائها، وتضم السماء النائية المظلمة كالشيخ الواهن في حضنها

البارد، وتمطر بقبلاتها المقرورة الكواكب تتألق في ذلك الخضم الدافئ من هواء الليل، كأنها كانت تحس بمقدم ملكة الليل الزاهرة، وهجع فوق التل بجوار الأجمة بيت عتيق من الخشب أغلقت مصاريع نوافذه، وغطى الطحلب والعشب سقفه، ونشرت أشجار التفاح غصونها أمام النوافذ. وكانت الأجمة تلف البيت بظلالها وتلقي عليه شبحاً من الظلام تنزع له القلوب، وقام في طرف الأجمة دغل من أشجار البندق ينحدر حتى يصل إلى البركة.

وقالت حنة وهي لا ترفع عينها عن البيت: «إني لأذكر كما لو كنت في حلم أن الناس منذ أمد بعيد، بعيد جداً، حين كنت أقيم مع أمي، كانوا يروون عن هذا البيت قصة تلقي الفرع في القلوب، ولا شك أنك تعرف تلك القصة يا ليفكو، أفلا تقصها علي؟».

«دعي عنك تلك القصة يا فاتنتي، فإن العجائز والحمقى يروون من القصص أشكاً وأنواعاً، ولن ينالك منها إلا بلبلة خاطر والفرع والنوم المضطرب».

فقالت وهي تلتصق وجهها بخده وتطوقه بذراعها: «بل قصها علي! قصها علي أيها الحبيب الكحيل العين! ما بالك تحجم؟ إذن فأنت لا تحبني، وإنما تحب فتاة أخرى، لن ينتابني الخوف، وسأستغرق في النوم بالليل، ولن يزور الكرى أجفاني إن لم تقصها علي، بل سيستبد بي القلق. وأغرق في لجة من التفكير، فبالله قصها علي يا ليفكو!».

«يبدو أن القوم قد أصابوا بقولهم إن الفتيات مصابات بداء الفضول الذي لا يكف عن الإلحاح عليهن، ليكن ما تريدن وأعيريني سمعك...

حدث منذ أمد بعيد يا حبة القلب أن كان ضابط من القوزاق قد أَلِفَ العيش في ذلك البيت، وكانت له ابنة، غادة حسناء، ناصعة البياض كالثلج بل في بياض وجهك الصغير. وكانت زوجته قد توفيت منذ وقت طويل، فقرر رأيهِ على أن يتزوج مرة أخرى، فسألته ابنته: «أبتاه أو تظلني برعايتك كعهدي حين تتخذ لك زوجة أخرى؟»، فأجابها أبوها بقوله: «أجل، وإنني لفاعل يا ابنتي، وسأضمك إلى قلبي في حنان يفوق ما عهدت من قبل! أجل سيكون هذا شأني، وسأعطيك أفرطاً وقلانداً أشد تألقاً من كل ما نلت مني من قبل!».

وحمل الأب زوجته الشابة إلى بيتها الجديد، وكانت بهية الطلعة بيضاء متوردة، ولم يكن من هذه الزوجة إلا أن حدثت ابنة زوجها بنظرة مخيفة حتى إن الفتاة صرخت عندما رأتها. ولم تقل لها زوجة أبيها العاتية كلمة واحدة اليوم بطوله، وجن الليل، ومضى الأب مع زوجته الشابة إلى غرفة نومه، وأغلقت الفتاة الحسنة باب غرفتها الصغيرة عليها، وشعرت بالحزن يغشى فؤادها، فراحت تبكي، ورفعت رأسها فرأت قطعة سوداء بشعة الخلقة تتسلل إليها، وكانت فروتها تلمع وبرائها الفولاذية تخدش الأرض، فقفزت الفتاة وقد استبد بها الفزع إلى أريكة، ولكن القطعة لحقت بها، فارتقت أريكة الموقد، فوثبت القطعة خلفها أيضاً، ثم انقضت فجأة على عنقها وشرعت تخنقها، فتخلصت من القطعة وهي تصرخ وألقت بها على الأرض، وعادت القطعة المخيفة تتسلل إليها، فغلبها الخوف على أمرها، وكان سيف أبيها معلقاً على الجدار، فانتزعته انتزاعاً وهوت به حتى ارتطم بالأرض محدثاً صوتاً

مجلجلاً، وأطار مخلبًا من مخالب القطعة ببرائته الفولاذية واختفت القطعة وهي تعوي في ركن مظلم من أركان الغرفة.

أما الزوجة الشابة فلم تبرح غرفتها يومين كاملين، وفي اليوم الثالث خرجت من الغرفة معصوبة الذراع، ووقع في روع الفتاة المسكينة أن زوجة أبيها ساحرة وأنها قطعت ذراعها. وفي اليوم الرابع طلب الأب من ابنته أن تأتي بشيء من الماء، وتكنس المنزل كما تفعل الفلاحه الدليلة، وحرّم عليها دخول الغرف الخاصة به، وهكذا كان حظ الفتاة البائسة سيئًا، ولكن لم يك لها في الأمر حيلة، فلبت مطالب أبيها، وطرد الأب ابنته في اليوم الخامس، فخرجت من المنزل عارية القدمين، ولم يتفضل عليها بكسرة خبز تبلع بها، وعندئذ فحسب، ركعت الفتاة، وراحت تنتحب مخفية وجهها الأبيض بين يديها، وهتفت به: «أبتاه! لقد رميت بابنتك إلى التهلكة! وأنزلت الساحرة الدمار بروحك الآثمة! غفر الله لك، إن مشيئة الله قد قضت بألا أعيش في هذا العالم الجميل»، والتفت ليفكو إلى حنة مشيرًا إلى المنزل وأردف يقول: «وهناك... أترين؟ انظري في هذا الاتجاه، هنالك من أعلى جزء في الشاطئ! أجل، من تلك الضفة أَلقت الفتاة بنفسها في الماء، ولم يرها أحد منذ تلك الساعة».

وسألته حنة في صوت ينم عن الرعب والفرع، وهي تحملق فيه بعينين دامعتين: «والساحرة؟».

«الساحرة؟ تستنتج العجائز مما حدث أن جميع الفتيات اللاتي أغرقن أنفسهن في البركة يخرجن منذ ذلك الحين إلى الحديقة في

الليالي المقمرة طلبًا للدفع، وعلى رأسهن ابنة ذلك الضابط. وقد رأت الفتاة الغريقة زوجة أبيها بجانب البركة ذات ليلة، فانقضت عليها، وجرتها إلى الماء وهي تصرخ، ولكن الساحرة استطاعت أن تنقذ نفسها حتى في ذلك الوقت، فقد تقمصت تحت الماء صورة فتاة من الغريقات، ونجت بذلك من الجلد باليراعات الخضر التي كن ينوين أن يضرن بها، ولتثقي بقول هؤلاء العجائز! ثم إنهن يقلن أيضًا: إن ابنة الضابط تجمع الفتيات الغريقات كافة كل ليلة وتنظر في وجه كل منهن، محاولة أن تجد الساحرة، ولكنها لم توفق بعد، وما إن تلقى أي إنسان حتى تحمله على التكهن: أي الغريقات هي الساحرة؟ فإن أمسك، هددته بإغراقه في الماء، وهذه يا عزيزتي حنة هي رواية العجائز للقصة، أما صاحب الأرض الحالي فيود أن يقيم معملًا لتقطير الخمر في ذلك الموضع، وقد أرسل مقطراً للخمر إلى هنا ليعمل على تنفيذ الفكرة.. ولكني أسمع أصواتًا! إنها أصوات رفاقنا في طريقهم إلى العودة من العناء. طابت ليلتك يا حنة. استغرق في النوم، ولا تفكري في قصص أولئك النسوة العجائز!«.

وما إن قال هذا، حتى طوقها بذراعيه في حرارة، وقبّلها، ثم مضى إلى حال سبيله.

فقالت حنة وهي تحرق حالمة في الأجمة المظلمة: «طابت ليلتك يا ليفكو».

وفي تلك اللحظة بدا قمر كبير يتوهج ويرتفع من وراء الأفق في عظمة وجلال، وكان نصفه لا يزال مختلفًا وراء الأفق، إلا أنه غمر

الكون جميعاً بفيض من ضوئه السني المهيب، وتألفت البركة وتلاّأت، وبرزت ظلال الأشجار واضحة جليلة على صفحة العشب القاتم.

«طابت ليلتكِ يا حنة!»، وقد انبعثت هذه الكلمات من خلفها مقرونة بقُبلة.

وقالت وهي تلتفت إلى الخلف: «هأنت ذا قد عدت!»، ولكنها رأت فتى لم تكن تعرفه، فأدارت رأسها وسمعت مرة أخرى من يهتف بها: «طابت ليلتكِ يا حنة!» وأحست للمرة الثانية بقُبلة تنطبع على خدها.

فقالت غاضبة: «لقد جاء الشيطان بفتى آخر!».

«طابت ليلتكِ يا حبيبتى حنة!».

«وهذا هو الثالث!».

«طابت ليلتكِ، طابت ليلتكِ يا حنة!» وانهمرت عليها القبلات من كل جانب.

فصاحت حنة: «وي! إنهم لعصبة كاملة من الفتيان»، وراحت تنتزع نفسها من بين ذلك الحشد من الفتيان الذين كانوا يتزاحمون على تقبيلها، ومضت تقول: «عجبي لهم، لا يسأمون من هذا التقبيل الذي لا ينقطع! لن يمضي وقت طويل حتى يستحيل عليّ أن أخرج إلى عرض الطريق!».

وانصفق الباب وهي تنطق بهذه الكلمات، ولم يسمع من بعد صوت إلا صوت المزلاج الحديدي وهو يصير مستكنًا في بيته.



رأس القرية

تُرى هل أُتيح لك أن تشهد ليلة من ليالي في أوكرانيا؟ ولكن، هيهات أن تكون قد شهدت ليلة من تلك الليالي! ألا فلتنظر إليها تجد القمر يطل على الأرض من عليائه في كبد السماء، وقد ازدادت قبتها الهائلة رحابة على رحابة، وراح القمر يتلألًا ويتنفس، فغمر الأرض جميعًا بضوئه الفضي، وانطلق الهواء العليل ينعش النفوس ويعمر القلوب بالدفء، ويشير فيها الرغبة والاشتهاء، وينشر في الأرجاء دنيا من الأريج والعبير. ويا لها من ليلة علوية تسحر وتفتن! وقفت فيها الغابات ساكنة بلا حس ولا حركة، وغشيها جو من الغموض، وشاع في جنباتها الوجوم، وألقت على الأرض ظلالاً ضخمة، وهدأت البرك، وخمدت حركتها، وحف بمائها البارد الكثيب إطار من البساتين الخضر الداكنة، ومدت الأدغال البكر من شجر الكرز البري جذورها في استحياء إلى الماء البارد، وانبعثت غصونها تهمهم من حين إلى حين كأنها غضبي ساخطة؛ إذ يتسلل إليها نسيم الليل، ذلك الماكر الظريف، ويُقبِّلها،

وهجع الريف كله، واستسلم للنعاس، على حين ظل كل العالم الذي يرف عليه يتنفس حافلاً بآيات الروعة وانتصار، وتمتلئ النفس بهذه الرحابة والروعة، وتنبعث الأحلام الجميلة من أعماقها محلقة زمراً يجمع بينها التناسق والانسجام.

يا لها من ليلة علوية تسحر وتفتن! ثم تدب الحياة في كل شيء فجأة: في الغابات والبرك والسهوب، ذلك أن صيحات البلبل الأوكراني الرائعة تنطلق، فتقطع سكون الليل، ويُخيل للمرء أن القمر نفسه راح ينصت إليها في كبد السماء، وتهجع القرية القائمة على النجد كأنما مسها السحر بسلطانه، وتتألق الأكواخ جماعات في ضوء القمر، فتزداد نصوعاً وحسناً عن المألوف، وتتبدى جدرانها المنخفضة في الظلام مجلوة تخايل النظر أكثر وأكثر، وكان الغناء قد توقف وشمل السكون كل شيء، وأخذ القوم الصالحون الذين يخشون الله إلى النوم، إلا من ضوء يبص هنا وهناك من النوافذ الضيقة، وعائلة تأخر بها النوم تجلس أمام باب هذا الكوخ أو ذاك تتناول عشاءها.

وراح فلاح كهل ثمل كان يرقص في الطريق، يقول بينه وبين نفسه: «ولكن هذه ليست الطريقة المتبعة في رقصة الهوباك، وقد كنت أعلم أنها خطأ، تُرى ما الذي كان يقوله لي خلي القديم؟ أي نعم، هوب!». ترا -لا!. هوب، ترا- لا! هوب، هوب، هوب! وإنني لأقسم أن هذه ليست الطريقة المتبعة في رقصة الهوباك، وأي داعٍ يدعوني إلى الكذب؟ أجل، إنني لأقسم أنها ليست الطريقة الصحيحة، هلم، هوب، ترا- لا! هوب، ترا- لا! هوب، هوب، هوب، هوب!». «.

وصاحت امرأة مكتهلة كانت تمر به حاملة ملء ذراع من القش:
«انظروا إلى ذلك الأبله الثمل! إنه ليس بالفتى اليافع، وإنما هو خنزير
عجوز يرقص في الطريق ليلاً كأنما يريد أن يحمل الأطفال على
الضحك! عد إلى دارك! وقد كان أولى بك أن تكون مخلداً إلى فراشك
منذ وقت بعيد!».

فقال الرجل وهو يكف عن الرقص: «إني لذهاب، إني لذهاب،
ولست أحفل بأي رأس من الرؤوس، أظنن - كتب الله على أبيه أن
يرى الشيطان - أنه يستطيع أن يشمخ بأنفه على كل إنسان لأنه رأس
القرية ولأنه يسكب الماء البارد على الناس إبان الصقيع! ومن يكون
هذا الرأس حقاً؟ إنما أنا رأس نفسي! إلا فليهلكني الله إن لم أكن، إنني
رأس نفسي»، ثم أسترسل يقول: «هذا هو الحق وما من حق سواه»،
ومضى في طريقه، ثم يمّم شطر أول كوخ قادته إليه قدماء، ووقف أمام
النافذة ومر بأصابعه على لوح الزجاج محاولاً أن يجد مقبض الباب،
ثم هتف: «افتحي أيتها الزوجة! ودعي الكسل، افتحي! لقد آن لهذا
القوزاقي أن يأوي إلى فراشه!».

وصاحت بعض الفتيات من خلفه متضاخكات، وهن في طريق
عودتهن من ذلك الغناء والمرح: «إلى أين يا كالينيك؟ ليس هذا
بكوخك! أو ندلك على كوخك!».

«أرشدني إليه أيتها الغادات الرحيمات!».

وقالت إحداهن: «الغادات الرحيمات! أو سمعن؟ يا لكالينيك من
رجل جم الأدب! يجب علينا أن ندله على الطريق إلى كوخه جزاء أدبه،
ولكن مهلاً! ولتحنفنا أولاً برقصة».

وقال كالينيك في بطاء وتثاقل وهو يضحك ويهز إصبعه إليهن: «رقصة؟ يا لكن من فتيات ماكرات!»، ثم خطا إلى الأمام مترنحًا، فقد كانت ساقاه أعجز من أن تحمله في ثبات، ومضى يقول: «وهل لي أن أقبلكن جميعًا إذا رقصت؟ لأقبلكن جميعًا، أجل كل واحدة منكن»، وجرى وراءهن في خطا مترنحة، فأطلقت الفتيات صرخة، ثم لذن جميعًا بعضهن ببعض، ولكنهن أدركن أن كالينيك لا يستطيع أن يجري على قدميه بالسرعة المطلوبة، فازددن جرأة، وركضن إلى الجانب الآخر من الطريق.

وصحن به وهن يتبعدن مشيرات إلى كوخ أكبر كثيرًا من سائر الأكواخ «هاك كوخك!»، وكان ذلك الكوخ هو كوخ رأس القرية، وأطاعهن كالينيك، وانعطف في ذلك الاتجاه، وانطلق يذم رأس القرية مرة أخرى.

ولكن من يكون هذا الرأس الذي أثار مثل هذه الانتقادات والآراء القبيحة؟ الحق أنه كان شخصًا ذا شأن في القرية، ولا شك أننا نستطيع أن نستغل الوقت الذي يمضي فيه كالينيك إلى كوخه، ونقول عنه كلمة: كان جميع القرويين يخلعون قبعاتهم عندما يرونه، وكانت الفتيات، حتى أصغرهن سنًا، يحينه تحية الصباح، وأي فتى لا تتوق نفسه إلى أن يكون رأس القرية؟ لقد كان رأس القرية هذا مطلق التصرف يستطيع أن يصيب من سعوط أي امرئ ما يصيب، وكان الفلاح القوي يقف له باحترام وقبعته في يده، ويمضي شيخ القرية متحسبًا صندوق سعوطه المصنوع من لحاء شجر البتولا بأصابعه المكتنزة، وكان رأيه دائمًا هو

الأعلى في مجلس القرية، وإن كان سلطانه لا يتعدى بضعة أصوات، وكان له الحق وحده تقريباً أن يرسل من يشاء لتمهيد الطرق وإصلاحها أو حفر الخنادق. وكان الرجل عبوساً كالح الوجه مقتصدًا في الحديث. وقد حدث منذ زمن بعيد، بعيد جدًا عندما كانت القيصرة كاترين العظمى طيب الله ثراها، قاصدة إلى بلاد القريم أن اختير مرشدًا لها.

وأدى رأس القرية مهمته هذه يومين كاملين، بل عد أهلاً لأن يجلس على المقعد بجوار حوذي القيصرة، وقد ألف منذ ذلك الحين أن يحني رأسه في حركة يشيع فيها الوقار والتأمل وأن يربت شاربه الطويل المسترخي، ويرمق الناس من تحت حاجبيه بنظرات كنظرات الصقر. ومنذ ذلك الحين أيضًا كان شيخ القرية يدير دائماً دفة الحديث بمهارة مهما كان الموضوع المطروح على بساط البحث، مصطنعاً الطريقة التي كان يوجه بها القيصرة، ويجلس بها على مقعد الحوذي من عربتها. وكان يحب أحياناً أن يتظاهر بالصمم، وخاصة إذا سمع شيئاً لا يحب أن يسمعه، وكان الرجل لا يطيق الحذقة، يرتدي على الدوام سترة طويلة من نسيج أسود من غزل المنازل، ويتمنطق دائماً بحزام من الصوف الملون، وما من أحد شاهده قط في أي زي آخر إلا حين ارتحلت القيصرة إلى القريم، فقد ارتدى في تلك المناسبة شملة قوزاقية زرقاء داكنة. وكان من العسير أن يذكر أحد في القرية ذلك الزمن، أما الشملة فلا يزال يحتفظ بها في صندوق.

وقد كان رأس القرية هذا أرمل، ولكن أخت زوجته كانت تقيم معه في المنزل، وكانت تطهو له الغداء والعشاء، وتنظف الأرائك، وتبيض

الكوخ بالجير، وتنسج له القمصان وتُعنى بالمنزل. وقد زعم ناس في القرية أنها لم تك أخت زوجته قط، ولكننا قد تبينا وشيكاً أن الكثيرين كانوا يضمرون الشر للشيخ، وكان يسرهم أن يشيعوا عنه شائعات السوء، على أن هذه الشائعات ربما كانت تتسم بشيء من الصحة، فقد لوحظ أن أخت زوجته كان يبدو عليها الاستياء كلما خرج إلى حقل فيه حشد من الفتيات يحصدن، أو ذهب لزيارة قوزاقي له ابنة جميلة. ولم تك للشيخ إلا عين واحدة، ولكن تلك العين كانت له بمثابة الداهية الأريب تستطيع أن تلمح الفتاة القروية الجميلة على بُعد شاسع، على أنه لم يك يحدق بها في وجه مليح فاتن إلا بعد أن يتلفت جيداً ليرى هل كانت أخت زوجته تراقبه؟ وما نحن أولاء قد قلنا عن شيخ القرية كل ما تقتضينا الحال أن نقوله تقريباً، في الوقت الذي كان فيه كالينيك الثمل يسير في طريقه إلى كوخه. وكان الرجل لا يزال ماضياً على سنته ينتقي خير النعوت يصف بها شيخ القرية بقدر ما كان يسمح له لسانه البطيء الثقيل.



غريم مفاجئ ملكيرة

وقال ليفكو لرفاقه الذين استخفهم المرح وأرادوا منه أن يشاركهم في ضروب جديدة من اللهو: «كلا أيها الرفاق! كلا، لن أشارككم في لهوكم! أما زلتم تطلبون اللهو؟ واعجباً! ألم يكفكم ما أحدثتم من ضرر؟ إن الناس يقولون، علم الله، إننا سفلة أوغاد على قدر ما رأوا منا حتى الآن، وقد كان أولى بكم أن تأووا إلى فراشكم! وداعاً أيها الرفاق! وطابت ليلتكم!»، ثم سار يضرب في الشارع بخطى سريعة.

وتساءل وهو يقترب من الكوخ الذي فيه أشجار الكرز وقد مر بنا وصفه: «تُرى هل أخلدت حبيتي حنة المشرقة العين إلى النوم؟»، وكانت أصوات خفيضة تترامى إلى السمع وسط هذا السكون. ووقف ليفكو مكانه، وكان يستطيع أن يرى قميصاً أبيض من خلال الشجر، وتساءل قائلاً: «ما معنى هذا؟». ثم اقترب قليلاً وهو يتلصص واختبأ خلف شجرة، وكان وجه الفتاة التي وقفت أمامه يتألق في ضوء القمر. لقد كانت هي حنة! ترى من يكون هذا الرجل الطويل الذي كان يوليه

ظهره؟ وصدق فيه النظر محاولاً معرفته، فذهبت محاولته أدراج الرياح، ذلك أن الظلال كانت تغمره من قمة رأسه إلى أخمص قدمه، اللهم إلا بعض الضوء كان يلقي عليه شعاعاً من الأمام، ولو قد خطا ليفكو أقل خطوة إلى الأمام لتعرض للخطر من أن يكتشف أمره، فاستند إلى الشجرة في هدوء وسكون واستقر رأيه على أن يبقى حيث هو، وهتفت الفتاة باسمه في وضوح، فغمغم الرجل الطويل من بين أسنانه يقول في صوت أجش: «ليفكو؟ إن ليفكو لمخنث، ولو أنني شاهدته معك لنزعت قنزعتة من جلد شعره!».

وتتمم ليفكو يقول في صوت خافت: «بودي أن أعرف ذلك الوغد الذي يقول مفاخرًا أنه سيتززع قنزعتي من جلد شعري!»، ومد عنقه محاولاً ألا تفوته كلمة واحدة، ولكن الغريب واصل حديثه في صوت خفيض جداً، فلم يستطع ليفكو أن يسمع كلمة واحدة مما يقول.

وقالت حنة عندما فرغ الرجل من حديثه: «ألا تخجل من نفسك؟ إنك تكذب، وتخدعني! إنك لا تحبني، ولن أصدق أبداً أنك تحبني!». ومضى الرجل الطويل القائمة في حديثه قائلاً: «إنني لأعلم أن ليفكو قد ألقى على مسامعك هراء كثيراً، فأدار رأسك»، وخيّل إلى الشاب عندئذ أن هذا الصوت لم يكن غريباً على أذنه كل الغرابة، وبدا أنه قد سمعه من قبل، واسترسل الغريب يقول باللهجة نفسها: «لأرين ليفكو من أي معدن صُنعت! إنه يظن أنني لا أدرك ألامه الشهوانية، وليذوقن هذا الوغد الصغير طعم قبضة يدي!».

وما إن سمع ليفكو هذا، حتى عجز عن أن يكبح جماح غضبه،

فخطا ثلاث خطوات، وطوح قبضة يده ليلطمه لكمة على أذنه قد تقذف به في الهواء على الرغم مما كان يبدو عليه من القوة واليأس، إلا أن ضوء القمر أضاء وجه الغريب في تلك اللحظة، وعقدت الدهشة لسان ليفكو، إذ رأى أباه واقفاً أمامه، واهتزت رأس ليفكو على غير وعي منه، وسمعت حنة حفيفاً، فانفلتت إلى الكوخ، وصدفت الباب وراءها!

وصاح أحد الشبان في تلك اللحظة متسللاً، وطوق شيخ القرية بذراعه: «طابت ليلتك يا حنة!»، ثم صادفت يده شارب الشيخ الخشن، فترجع مذعوراً.

وصاح شاب آخر: «طابت ليلتك يا فاتنتي!»، إلا أن الشيخ دفع هذا الشاب دفعة قوية قذفت به في الهواء.

وصاح عدد من الشبان متعلقين بعنقه: «طابت ليلتك، طابت ليلتك يا حنة!».

وصاح الشيخ وهو يدفعهم عنه ويركلهم بقدمه: «إليكم عني أيها المستهترون الملاعين! أحقاً تطلبون حنة! اذهبوا، ولتُشنقوا أنتم وآباؤكم يا أولاد الشيطان! إنهم يتساقطون على المرء تساقط الذباب على الشهد! تالله لأؤدبنكم!».

وصاح الشبان: «إنه شيخ القرية! إنه الشيخ!»، وتفرقوا شذراً مذرراً! وقال ليفكو، وقد أفاق من دهشته، وأخذ يشيع الشيخ بنظراته وهو يتبعد صاباً لعناته: «إذن فهذا هو أبي على حقيقته! وتلك هي الحيل التي ينسج خيوطها! يا له من أمر طريف! وقد كنت أتساءل:

«لَمْ يتظاهر بالصمم في كل مرة أهم فيها بالحديث في الموضوع؟
انتظر قليلاً أيها التيس! لأعلمنك كيف تكون عاقبة التسكع تحت
نوافذ الحسان! أجل، لأعلمنك كيف تكف عن غواية حبيبات غيرك
من الرجال!»، ثم صاح، ملوحاً بيده إلى الشبان وكانوا قد اجتمعوا
زمرة واحدة مرة أخرى: «إيه أيها الرفاق! تعالوا هنا، تعالوا هنا، من
هذا الطريق! تعالوا هنا! لقد حاولت أن أحملكم على الإيواء إلى
فراشكم، ولكنني عدلت الآن عن رأيي، وإني على استعداد أن ألهو
معكم الليل بطوله».

وقال شاب بدين عريض المنكبين كان يعد أكثر فتيان القرية مرحاً
وأشدهم ميلاً للأذى: «هكذا يكون الكلام! وإني لأشعر دائماً بالسأم إذا
عجزنا عن أن ننعم بقدر مناسب من اللهو، بل أحس دائماً كأني قد
فاتني شيء، أجل، كأني فقدت قبعتي أو غليوني، والحق أن هذا ليس
من شيمة القوزاق!».

«ما قولكم في أن نهز شيخ القرية هزاً؟».

«شيخ القرية؟».

«أي نعم، ما حسب هذا الرجل؟ وماذا يظن في نفسه؟ إنه يحكمنا
كما لو كان زعيماً من زعماء القوزاق، ولا يكفيه أن يعاملنا كما لو كنا
بعض عبيده، بل يجري أيضاً وراء حبيباتنا، ولا أعتقد أنه ترك حسناء
واحدة في القرية بأسرها إلا غازلها».

وصاح الفتیان: «هذا صحيح! هذا صحيح!».

«أعبيده نحن أيها الفتیان؟ ألسنا من طينة واحدة سواء بسواء؟ نحمد الله، فما نحن إلا قوزاق أحرار، ولنرينه أيها الرفاق أننا قوزاق أحرار!». فصاح الفتیان: «لنرينه هذا! أما وقد صحح عزمنا على أن نشن الغارة على الشيخ، فلن نرحم كاتبه أيضًا!».

«لن نرحم الكاتب! ولقد فرغت لتوي من وضع أغنية رائعة تنطبق على الشيخ كل الانطباق»، ثم مضى ليفكو يقول وهو يضرب على أوتار بندورته: «هلموا بنا، ولأعلمنكم الأغنية، ولترتدوا من الملابس ما يقع في أيديكم!».

وقال الشاب القوي المتهور وهو يضرب قدمًا بقدم ويصفق بيديه: «هلموا أيها القوزاق الشجعان، يا للمجد! ويا للمتعة! إن المرء إذا أخذ نفسه بشيء من اللهو أحس كأنه يحتفل بالسنوات الخوالي، فيفيض قلبه بالبشر، ويخلو باله من الهم، وبدا له كأن روحه انطلقت إلى الفردوس، هلموا أيها الرفاق، هلموا بنا ننعيم بشيء من اللهو!».

وسار الجمع صاخبًا مضوضيًا يجتاز الطريق، واستيقظت عجائز النسوة الصالحات من نومهن على صياح الفتیان، وأغلقت نوافذهن، ورسمن إشارة الصليب والنوم يداعب جفونهن، ثم قلن: «وي! لقد شرع الفتیان يمرحون!».



الفتيان يمرحون

لم يبقَ في القرية أكواخ مضاءة إلا كوخ واحد في طرفها هو كوخ شيخها، وكان الرجل قد فرغ من تناول عشاءه منذ وقت طويل، ولا شك أنه كان حريًّا بأن يكون مستسلمًا للنوم في مثل هذه الساعة، لولا أن زائرًا كان قد ألم به، فقد أرسل صاحب ملك له قطعة صغيرة من الأرض بين أملاك القوزاق الأحرار هذا الرجل ليقيم على هذه القطعة معملًا لتقطير الخمور، وكان الزائر رجلًا قلة بدينًا قصير القامة له عينان صغيرتان لا تكفان عن الابتسام، والظاهر أنهما كانتا تعبران عما يحس به من سرور حين يدخن.

وجلس الزائر في مكان الشرف تحت الأيقونات، وقد دأب على البصق، وعلى أن يضغط بإبهامه رماد التبغ الذي ظل يتساقط من غليونه القصير، وأخذت سحب الدخان تنتشر بسرعة من فوقه وشملته بضبابه زرقاء داكنة حتى بدا كأنه مدخنة كبيرة لمعمل من معامل تقطير الخمور ملئت البقاء على سقفه، وظنت أنها في حاجة إلى تغيير، فاتخذت المكان

اللائق بها في كوخ شيخ القرية. وبرز شارب كث قصير من تحت أنف الزائر، على أن معالمة لم تتضح في هذا الجو المشبع بالدخان، فبدا كأنه فأر أمسك به مقطر الخمر، وقبض عليه بضمه مقتاتاً على القط الذي ألف مخزن الحبوب.

وأحس شيخ القرية بأنه ملازم بيته، فجلس مرتدياً قميصه وسروالاً من الكتان، وكان يزر عينه الشبيهة بعين النسر رويداً رويداً، فيخمد بريقها خمود الشمس الغاربة. وكان أحد شرطة القرية «كونستابل» الذي يساعد شيخها، يدخن غليوناً في طرف المنضدة، وكان لا يزال يرتدي شملته احتراماً لمضيفه.

وسأل الشيخ مقطر الخمر، وهو يرسم إشارة الصليب على فمه بعد أن ثأب: «أتنوي إقامة معمل تقطير الخمر في وقت قريب؟». «ربما بدأن التقطير بعون الله في أغسطس، وإنني لأراهن على أنه ما إن يحل عيد الشفاعة حتى يكون شيخنا المحترم ماضياً في لعبة الكلمات المتقاطعة يخط رقعتها بقدميه في الطريق».

واختفت عينا مقطر الخمر عن الأنظار وهو ينطق بهذه الكلمات وبدأت في مكانهما تجاعيد امتدت حتى أذنيه، واهتز جسمه كله من شدة الضحك، وتركت شفتاه المرحتان الغليون لحظة.

وقال مضيفه، مقطباً وجهه فيما يشبه الابتسامة: «أرجو من الله ذلك، وإنني لأحمده الآن على ازدياد معامل تقطير الخمر بعض الزيادة، فقد حدث منذ سنوات، عندما كنت دليلاً للقيصرة في طريق بيرياسلاف، أن بيزورودكو، رحمة الله عليه...».

«إيه يا صديقي العزيز! ما بالك تذكر تلك الأيام، وي! لم يكن يقوم فيما بين كريمينشوج ورومني إلا معملان لتقطير الخمر في تلك الأيام، أما في يومنا هذا.. ترى هل سمعت بما ينتوي الألمان الملاعين فعله؟ إنهم سيعدلون عن حرق الخشب في معامل تقطير الخمر كما يفعل المسيحيون من أهل الرزانة والوقار، وسيستبدلون به في وقت قريب نوعاً من البخار الشيطاني، على ما يقولون!»، ونظر مقطر الخمر، وهو يقول هذا، إلى المنضدة وإلى يديه المستندتين عليها، في تأمل وتفكير، ومضى يقول: «لا أستطيع أن أنصور كيف يدور المعمل بالبخار!».

وقال شيخ القرية: «يا لغباوة هؤلاء الألمان، وليغفر الله لي! وددت لو جلدتهم، أولاد الشيطان! أو قد سمع أحد بمثل ما يقولون من غلي شيء بالبخار؟ لو صدق هذا ما استطعت أن تتناول ملء ملعقة من الماء إلا إذا ألهبت شفتيك كالخنزير الرضيع».

وقالت أخت زوجة الشيخ، وهي تجلس على أريكة الموقد متربعة: «وأنت أيها الصديق، أو تبقى هذا الوقت كله من غير زوجتك!».

«وي! وما حاجتي إليها؟ لو كانت تستحق، لاختلف الأمر».

وسأله الشيخ وهو يحده بهينه الواحدة: «أليست بهية الطلعة؟».

«بهية الطلعة حقاً! إنها عجوز كالشيطان نفسه، أما وجهها فقد امتلأ بالتجاعيد كأنه الكيس الخاوي».

واهتز مقطر الخمر القصير البدين بالضحك حتى شمل كيانه كله. وفي تلك اللحظة أخذ شيء يتحسس الباب، ثم انفتح الباب واجتاز العتبة فلاح دون أن يخلع قبعته، ووقف في وسط الكوخ متردداً، وقد فغر

فاه وأخذ يحملق في السقف، وكان هذا الفلاح هو صديقنا كالينيك.

وقال كالينيك وهو يستوي على الأريكة قرب الباب غير آبه بالجماعة: «هأنذا قد عدت أخيراً إلى داري، لقد أطال الشيطان ربيب الشر الطريق! أجل أطاله حتى ليسير المرء فيه ويسير فلا يبلغ نهايته! إيه، إني لأشعر كأن أحداً كسر ساقي. أيتها الزوجة، اثني بجلد الماعز وافرشي له لي، فلست بجالس معك على الموقد، أجل لن أفعل ذلك، فإن ساقي تؤلمني، ابحثي عنه، إنه هناك تحت الأيقونات. ولكن حذار أن تقلبي القدر التي فيها السعوط، بل كُفِّي.. لا تلمسيه لا تلمسيه! فربما كنت ثملة الليلة. دعيني آت به بنفسي!».

وحاول كالينيك النهوض، ولكن قوة لا قبل له بها جعلته يتسمر في مقعده.

وقال شيخ القرية: «ما أعجب هذا! رجل يدخل بيت رجل آخر، ويلقي بالأوامر كما لو كان في بيته! ألقوا به بقضه وقضيضه خارج الدار!».

وقال مقطر الخمر وهو يجذبه من ذراعه: «دعه يسترح أيها الصديق! إنه لرجل نافع، ولو كان الله قد أكثر من أمثاله لراجت سوق معمل تقطيرنا!».

ولم تكن سماحة الطبع هي التي حملت مقطر الخمر على قول ما قال، ذلك أنه كان متطيراً يؤمن بالخرافات على اختلاف أنواعها وأشكالها، ويعتقد أن طرد رجل اتخذ مجلسه بالفعل على أريكة يجر الويلات والمصائب.

وغمغم كالينيك وهو مستلقٍ على الأريكة: «تُرى ماذا يصيبيني عندما أتقدم في السن؟ لو كنت ثملاً ما أزعجني الأمر، ولكنني لست ثملاً، أجل لست ثملاً وإيم الحق، ولم أكذب؟ إني لمستعد أن أصرح لشيخ القرية نفسه بهذا، وماذا يهمني من أمر الشيخ؟ وددت لو غص حلق هذا الكلب! وإني لأبصق عليه! ولشد ما أتمنى أن تدهم عربة هذا الأعور الملعون! ما باله يغرق الناس بالماء إبان الصقيع؟».

وقال الشيخ وهو ينهض من مقعده في غضب: «إذن فقد شق الخنزير طريقه إلى الكوة، وها هو ذا يضع قائمته على المائدة!» وفي تلك اللحظة سقط عند قدميه حجر ثقيل حطم النافذة تحطيمًا، فتوقف عن الكلام برهة، ثم مضى يقول وهو يلتقط الحجر: «لو كنت أعرف أي مجرم هذا الذي ألقى بالحجر لعلمته ألا يقذف الناس بالحجارة!»، وأردف وهو ينظر إلى الحجر الذي في يده بعين يتطائر منها الشرر: «يا للألاعيب! وددت لو غص حلقه بهذا الحجر!».

فقال مقطر الخمر وقد شحب لونه: «كف يا صديقي! عصمك الله في الدنيا والآخرة من أن تنعم على أحد بهذا السباب!»، «هاكم بطلاً! لعنة الله عليه!».

«انزع هذا من مخيلتك يا صديقي! وإني لأحسب أنك لم تسمع بما أصاب المرحومة حماتي؟»، «حماتك؟».

«أي نعم، فقد حدث ذات مساء، وربما كان ذلك في ساعة أبدر

قليلاً من الساعة التي نحن فيها - أن كانت حماتي وحمي وأجيرهما وأجيرتهما الفتاة وأولادها الخمسة يجلسون على مائدة العشاء، وأخذت حماتي تهز بعض لقيمات القاضي مسقطه إياها من القدر في طاس لتبرد، وكان الجوع قد عضهم جميعاً بنابه بعد أن فرغوا من أعمالهم، فلم يصبروا على اللقيمات حتى تبرد، وأقبلوا عليها بأعواد من الخشب طويلة يلتقطونها ويأكلونها، ولاح لهم فجأة رجل لم يعرف أحد من أين هبط عليهم ولا من يكون إلا الله.

«وطلب الرجل منهم أن يسمحوا له بالجلوس إلى المائدة، وما كان الطعان ليحرم على رجل جائع، فأعطوه هو أيضاً عوداً من الخشب. إلا أن الزائر التهم لقيمات القاضي كما تلتهم البقرة الدريس، وأصاب كل من الآخرين لقيمة واحدة، على حين أخذ الرجل يضرب بعوده بحثاً عن غيرها، وإذا بالطاس أنظف من أديم الأرض في دار السيد الفاضل.

«وأنزلت حماتي بعض لقيمات أخرى من القدر، وظنت أن الضيف قد أكل كفايته وأنه سيلتهم هذه المرة أقل مما يلتهم، ولكن شيئاً من هذا لم يحدث، فقد أخذ يلتهمها بأسرع مما التهم سابقتها حتى أتى على ما في الطاس مرة أخرى، فقالت حماتي بينها وبين نفسها: «ألا فليغص حلقك باللقيمات!»، ولم يلبث الرجل أن غص حلقه وسقط على الأرض، فهرعوا إليه، فوجدوه قد أسلم الروح، ذلك أنه كان قد اختنق».

وقال شيخ القرية: «لقد نال جزاءه ذلك النهم الملعون!».

«ربما كان القول ما قلت، ولكن القصة لم تنته عند هذا الحد، فإن حماتي لم تذق طعم الراحة منذ ذلك الحين، وما إن جن الليل حتى ظهر الميت، فقد جلس هذا الفتى الملعون على المدخنة منفرج الساقين قابضًا بأسنانه على لقيمة من اللقيمات، وكان الهدوء ينشر ظلاله سحابة النهار فلا يسمعون عنه شيئًا، حتى إذا حل الغسق ظهر هذا الكلب جالسًا على المدخنة!».

«قابضًا بأسنانه على اللقيمة؟».

«أجل، قابضًا بأسنانه على اللقيمة».

«ما أعجب ما تقول يا صديقي! لقد سمعت بشيء من هذا القبيل في عهد المغفور لها قيصرتنا...».

وتوقف المتكلم عن الحديث، فقد بلغ أسماعهم طرق أقدام ترقص تحت النافذة، وانبعثت البندورة أول الأمر تشدو شدوًا رقيقًا، ثم تلاها صوت يترنم، وارتفع رنين الأوتار، واشتركت عدة أصوات في الإنشاد، ثم علا الغناء كالعاصفة:

هل سمعتم أيها الفتیان آخر الأنباء؟

رأسنا «أي شيخنا» مختل العقل!

إن رأسنا الأعور له رأس كالبرميل

تفككت ألواحہ!

* * *

فتعال يا صانع البراميل ودقه دقًا

واحزمه بأطواق من الصلب!

* * *

تعال يا صانع البراميل ودق الرأس بمطرقتك

واضرب بعزيمة صادقة!

إن رأسنا أعور، اشتعل رأسه شيئاً،

إنه عجوز، عمره عمر الخطيئة نفسها. ويا لرأسه الأخرق

يزخر بالأهواء والأفكار الشهوانية

يغازل الفتيات هذا الغبي!

أيجوز لك أن تحاول تقليد الشبان؟

وقد كان أولى بك أن تكون مُسجى في قبرك

تُلقي فيه من قفاك وسوالفك!

ومن قنزعتك التي تزهبها وتتعجب!

* * *

وقال مقطر الخمر وهو يميل برأسه قليلاً، ويلتفت إلى مضيفه الذي

كانت قد أذهلته الوقاحة الشديدة: «ما أعذب هذه الأغنية يا صديقي! ما

أعذبها! ومما يرثى له أنهم يتحدثون عن رأسهم بهذه العبارات المهينة».

ثم وضع يديه على المائدة مرة أخرى، وقد التمتعت عيناه ببريق

الفرح والسرور وتهاياً لسماع المزيد، فقد كان يتراعى إلى الأسماع من

الخارج عاصفة من الضحك والصياح: «أعد! أعد!». على أن العين

البصيرة كانت تستطيع أن ترى في الحال أن الدهشة لم تكن هي التي سمّرت شيخ القرية في مكانه، ذلك أن السنور المحنك ينتهج هذه الطريقة نفسها أحياناً، فيدع الفأر القليل الخبرة يدور حول ذيله، ويروح هو يدبر خطة سريعة يقطع بها على الفأر سبيل الرجوع إلى جحره. وكانت عين الشيخ الواحدة لا تزال تحديق بالنافذة، على حين كانت يده قد أمسكت بمقبض الباب الخشبي بعد أن أوماً بها إلى الشرطي، ثم ارتفع صوت في الطريق فجأة، وأسرع مقطر الخمر فملاً غليونيه وهرع إلى الخارج، فقد كان حب الاستطلاع صفة من صفاته العاطرة الكثيرة، إلا أن الفتیان الأوغاد كانوا قد تفرقوا في كل اتجاه.

وصاح شيخ القرية وهو يجبر رجلاً من ذراعه يرتدي جلد ماعز مقلوباً: «هيهات أن تفلت مني!». .

وانتهز مقطر الخمر هذه الفرصة وجرى ليلقي نظرة على هذا الذي عكر صفو الأمن، ولكنه تراجع مذعوراً، إذ شاهد لحية طويلة ووجهاً مخيفاً علاه الطلاء وصاح الشيخ: «هيهات أن تفلت مني!»، وأخذ يجبر إلى المنزل أسيره الذي لم يك ييدي أي مقاومة، بل كان يتبعه في هدوء كما لو كان ذاهباً إلى كوخه، وقال الشيخ للشرطي: «افتح المخزن يا كاربو، ولنحبسه في المخزن المظلم، ثم نوقظ الكاتب ونجمع الشرطة، ونقبض على هؤلاء الصاخبين كافة، ونصدر عليهم جميعاً حكماً الليلة!». .

وأولج الشرطي مفتاحه في قفل صغير، فصلصل وفتح المخزن، وانتهز الأسير في تلك اللحظة فرصة الظلام، فأتي بمجهود عنيف

تخلص به من قبضته.

وصاح الشيخ وهو يشدد قبضته على بنيقة ثوبه: «إلى أين؟».

فصرخ صوت رفيع مجلجل قائلاً: «دعني! فإنني أنا من تعلم!».

«لن يجديك هذا شيئاً يا بني، ولتصرخ كالشيطان أو كالمرأة، ولكنك لن تخدعني»، ودفعه إلى المخزن المظلم دفعة، فتأوه الأسير المسكين، وخر على الأرض، واصطحب شيخ القرية الشرطي وقصد إلى كوخ الكاتب، يتبعهما مقطر الخمر وهو ينفخ كما تنفث البخرة دخانها.

وسار ثلاثتهم وقد أرخوا أبصارهم، واستغرقوا في التفكير، وإذا بهم يصرخون جميعاً صرخة رجل واحد في منعطف بزقاق مظلم، فقد أصابتهم لكمة عنيفة على جباههم، ورجع الصدى صوت صرخة مماثلة، وزر شيخ القرية عينه فرأى، والدهشة تملكه، الكاتب ومعه شرطيان؟

«لقد كنت قادماً لرؤيتك أيها الكاتب المحترم!».

«وأنا كنت قادماً للقاء سيادتكم أيها الشيخ الموقر!».

«إن أموراً عجيبة تقع أيها الكاتب المحترم!».

«غاية في العجب أيها الشيخ الموقر!».

«عجباً! وأي أمور تعني؟».

«لقد جن جنون الفتیان، وهم يسرون في الطرقات عصابات كاملة على نحو شائن معيب، ويصمون سيادتكم بعبارات يمنعني الخجل من

ترديدها. إن المسكوفي الشمل لا يطاوعه لسانه القذر على النطق بهذه العبارات»، وكان الكاتب الهزيل الذي ارتدى سروالاً من الكتان المنقط وصديرياً يحاكي في لونه ثفالة النيذ، يقول هذا كله وهو يمد عنقه حيناً، ويرده إلى مكانه حيناً آخر. «وكنت قد استسلمت للنوم وشيخاً عندما أيقظني هؤلاء الأوغاد الملاعين بأغانهم المخزية وطرقهم على الباب، وكان في نيتي أن أنزل بهم الجزاء الرادع لولا أنهم هربوا جميعاً وأنا مشغول بارتداء سروالي وصداري، على أن زعيمهم لم يفلت، فهو يشدو الآن في الكوخ الذي نحبس فيه المساجين. ولقد كنت متلهفاً إلى معرفة أي صنف من المجرمين هذا الذي قبضنا عليه، لولا أن وجهه قد غشيه السواد كله، فأصبح كوجه الشيطان الذي يضع المسامير لأهل المعصية».

«وكيف كان لباسه أيها الكاتب المحترم؟».

«كان يرتدي جلد الماعز مقلوباً أيها الشيخ الموقر».

«أو تكذب أيها الكاتب المحترم؟ وما قولك في أن هذا الوغد يجلس الآن في مخزني؟».

«كلا أيها الشيخ، وإنني لأحسب أن الأمر قد التبس عليك بعض الشيء، ولست أقصد بذلك أن أسيء إليك».

«علي بمصباح! ولنلق عليه نظرة».

وجيء بالمصباح، وفتحوا الباب، وصرخ شيخ القرية صرخة تنم عن الدهشة إذ رأى أمامه أخت زوجته. وانهالت عليه المرأة تقيعاً: «بالله خبرني، أو فقدت تلك المسكة من العقل التي لم يكن لك قط

غيرها؟ وهل كان في رأسك ذي العين الواحدة ذرة من بصيرة عندما دفعتني إلى المخزن المظلم؟ لقد كان من حسن حظي أن رأسي لم يرتطم هو والخطاف الحديدي، ألم أصرخ فيك بأنني أنا من تعلم؟ ألا تبأ لك أيها الدب الملعون، لقد قبضت عليّ ببرائكك الحديدية ودفعتني إلى داخل المخزن، فلتجزينك الأبالسة الجزاء نفسه في العالم الآخر!». ونظقت المرأة بالكلمات الأخيرة وهي في الطريق، ذلك أنها كانت قد خرجت لبعض شأنها.

فقال شيخ القرية متمالكًا زمام نفسه: «أجل، أرى أنك أنتِ هي. ما قولك أيها الكاتب المحترم؟ أليس ذلك التيس وغدًا ماكراً؟». «إنه لو غد ماكراً أيها الشيخ الموقر».

«ألم يحن الوقت بعد لنلقي على هؤلاء الأوغاد جميعًا درسًا قاسيًا، ونحملهم على العمل؟».

«لقد حان الوقت أيها الشيخ الموقر».

«لقد ظن هؤلاء الحمقى - ترى ماذا هناك؟ يخيل إليّ أنني سمعت صوت أخت زوجتي تصرخ في الطريق - لقد ظنوا أنهم مثلي سواء بسواء، أجل ظنوا أنني واحد منهم، لا أعدوا أن أكون قوزاقًا من غمار القوزاق!». وبدا من تلك النحنة التي أطلقها الشيخ عقب هذه الكلمات والطريقة التي رفع بها بصره من تحت حاجبيه أنه كان يهم بالحديث في أمر ذي شأن.

«لقد حدث في السنة السابعة عشرة... وأنا لا أستطيع أن أتذكر أبدًا

تلك التواريخ المربكة - أن صدر الأمر إلى ليداتشي الذي كان وقتئذ يلي منصب المأمور، بأن يختار من القوزاق أنجبهم جميعاً، آه!»، ونطق «بآه» هذه وقد رفع إصبعه في الهواء: «أجل! أنجب القوزاق جميعاً ليؤدي مهمة الدليل للقيصرة، وكنت في ذلك الوقت...».

«صدقت أيها الشيخ الموقر، وإننا لنعلم هذا جميعاً، أجل نعلم كيف نلت الخطوة لدى القيصرة، ولتسلم الآن بأنني كنت على حق، فقد حملت نفسك وزراً عندما قلت: إنك قبضت على ذلك الوغد الذي يرتدي جلد الماعز الأسود».

«أما بخصوص ذلك الشيطان الذي يرتدي جلد الماعز الأسود، فلنقيده بالأغلال، ونعاقبه عقاباً شديداً حتى يكون عبرة للآخرين! وليعلموا معنى السلطان! فمن الذي يولي رأس القرية إن لم يكن هو القيصر نفسه؟ ثم لنقبض على الشبان الآخرين، فإني لم أنس أن هؤلاء الأوغاد الملاعين ساقوا قطعاً من الخزائير إلى حديقة خضراواتي فأتى على جميع ما فيها من كرنب وخيار، ولم أنس أن أولاد الشيطان هؤلاء قد رفضوا أن يدرسوا قمحي، ولم أنس... ولكن لعنة الله عليهم جميعاً. يجب أن أكشف عن حقيقة ذلك الوغد الذي يرتدي جلد الماعز مقلوباً!».

وقال مقطر الخمر: «إنه فيما يبدو مجرم داهية!»، وكانت وجنتاه أثناء هذا الحديث كله يغشاهما الدخان باستمرار وكأنهما مدفع حصار، وأخذت شفتاه، بعد أن خلتا الغليون القصير، تنفثان سيلاً من الدخان حقاً، ثم أردف يقول: «ولن نخسر شيئاً إذا أقمنا الفتى بالعمل في

مصنع التقطير، وأفضل من هذا أن نعلقه في قمة شجرة سنديان بدلاً من المبخرة».

ولم تَبْدُ هذه الملحّة سخيّفة كلّ السخافة في عين مقطر الخمر، ولم ينبث أن صحّ عزمه على أن يكافئ نفسه عليها بضحكة خشنة دون أن ينتظر موافقة الآخرين!

وكان القوم قد أشرفوا في تلك اللحظة على كوخ صغير أو شك أن يخبر على أحد جانبيه، وازداد أصحابنا فضولاً وتكأكأوا جميعاً حول الباب، وأخرج الكاتب مفتاحاً، وراح يلم بالقفل مصلصلاً، فتبين أنه مفتاح صندوقه، وعيل صبر الجماعة، ثم دس الكاتب يده في جيبه متحسّساً المفتاح، ولكنه لم يعثر عليه فأخذ يسب ويلعن.

وهتف آخر الأمر: «ها هو ذا!»، وانحنى يضرب في أعماق جيبه الرحب الذي كان قد زود به سرواله الذي شاعت الوكت في رفعته كلها، محاولاً إخراج هذا المفتاح، وما إن نطق الكاتب بعبارة الأخيرة حتى بدا أن قلوب أصحابنا قد امتزجت جميعاً وأصبحت قلباً واحداً أخذ يدق بقوة، حتى إن صرير القفل نفسه لم يستطع أن يطغى على صوت دقاته المضطربة، وانفتح الباب، وشحب وجه شيخ القرية حتى غدا كالملاءة البيضاء، وشعر مقطر الخمر برعدة باردة تسري في أوصاله، ولاح أن شعر رأسه قد وقف في الهواء، وارتسم الرعب على محيا الكاتب، وتسمر رجال الشرطة في مكانهم، وعجزوا عن إغلاق أفواههم التي كانت قد انفجرت في وقت واحد، ذلك أنهم وجدوا أخت زوجة شيخ القرية واقفة أمامهم!

ولم تكن المرأة على كل حال أقل دهشة منهم، إلا أنها تماكنت نفسها، ثم أتت بحركة كما لو كانت تريد أن تدنو منهم.

وصاح الشيخ صيحة وحشية: «مكانك!»، وصفق الباب في وجهها، ثم مضى يهتف: «أيها السادة، إنه الشيطان، إليَّ بمصباح، وعجلوا! لن أفلت هذا الكوخ ولو كان ملك القيصر نفسه، أشعلوا فيه النار، أشعلوا فيه النار، حتى لا تتركوا من عظام الشيطان نفسه شيئاً على الأرض».

وصرخت أخت زوجته فزعاً وهي تسمع من خلال الباب هذا الحكم المشؤوم.

وصاح مقطر الخمر: «ما هذا الذي تريدون أن تفعلوه أيها الأصدقاء؟ إن شعركم والحمد لله قد أتى عليه الشيب أو كاد، ولكنكم لم تؤتوا الحكمة بعد. إن الساحرة لا تحترق بالنار المألوفة! وإنما نار الغليون هي التي تحرق من يتقمصه الشيطان! فاصبروا قليلاً ولن تنقضي لحظة حتى أعد للأمر عدته!».

وما إن فرغ من قوله، حتى نفض بعض الرماد الحامي من غليونه على حزمة من القش وراح ينفخ فيها، وكانت المرأة المسكينة قد غلبها اليأس على أمرها في هذه الأثناء، فانبعثت ترتفع عقيرتها تبتهل إليهم وتتوسل.

وقال الكاتب: «انتظروا أيها الأصدقاء، لماذا نحمل أنفسنا وزراً في غير مقتض؟ ربما لا تكون هي الشيطان، ولئن رضي هذا المخلوق الذي يجلس هناك أيّا كان شأنه بأن يرسم إشارة الصليب، كان ذلك بينة لا تنقض على أنه لا يمت للشيطان بسبب».

وصادف هذا الاقتراح القبول لدى الجماعة.

وقال الشيخ وهو يلتفت وراءه كأنه يبحث عن ملجأ أمين يلوذ به إذا اضطره الأمر إلى التراجع: «ارسمي علامة الصليب!».

ورسمت المرأة علامة الصليب.

«يا للجنة! إنها أخت زوجتي حقاً!».

«أي روح شريرة تلك التي رمت بك إلى هذا الجحر يا أختاه؟».

وقالت المرأة للقوم وهي تنتحب إن الفتيان قبضوا عليها في الطريق على الرغم مما أظهرته من مقاومة، ودفعوها دفعاً إلى الكوخ من نافذته العريضة، ثم سمروا مصراع النافذة. ونظر الكاتب إلى النافذة فإذا بالمسامير التي في عرى المصراع العريض قد نزعت من مكانها، وثبت المصراع بلوح من أعلاه.

وصاحت المرأة وهي تمضي نحو شيخ القرية فتراجع مترنحاً وكان لا يزال يحدجها بعينه الواحدة: «يا لك من داهية أيها الشيطان الأعور! إن حبالك لا تخفى عليّ، فقد كنت تريد، بل يسرك، أن أحترق بالنار، حتى تغدو حرّاً طليقاً تجري وراء الفتيات، ولا يرى أحد البجد العجوز الذي اشتعل رأسه شيباً يمرح ويلهو. أظن أنني لا أعلم ماذا كنت تقول لحنة هذا المساء؟ إنني لأعلم كل شيء عن ذلك، وليس خداعي بالأمر اليسير، فما بالك إذا كان من يروم خداعي غرّاً أبله مثلك، إنني لأتحلى بفضيلة الصبر، فإذا نفد صبري فلا تلومني إلا نفسك!».

وما إن فرغت المرأة من قولها هذا، حتى هزت قبضتها في وجهه،
وسارت مهرولة تاركة الشيخ في حيرة من أمره.

وقال الشيخ يحدث نفسه وهو يحك رأسه حكًا قويًّا: «لا شك أن
للشيطان يدًا في ذلك».

وأقبل عليه رجال الشرطة في تلك اللحظة وصاحوا قائلين: «لقد
قبضنا عليه!».

وسألهم الشيخ: «على من؟».

«ذلك الشيطان الذي يرتدي جلد الماعز مقلوبًا».

فصاح الشيخ وهو يقبض على ذراع الأسير: «دعوه لي! فلستم إلا
قومًا مجانيين! وإنما هذا الذي تمسكونه هو كالينيك الثمل!».

فأجاب الشرطة قائلين: «يا له من أمر عجيب! لقد وقع الشيطان في
أيدينا أيها الشيخ الموقر! فأقبل الفتيان الملاعين والتفوا بنا في الزقاق،
وأخذوا يرقصون ويقفزون ويجذبوننا من ثيابنا ويخرجون لنا ألسنتهم
ويتنزعونه من بين أيدينا! لعنة الله عليه! أما كيف وقعنا على هذا الغراب
وضللنا عن الشيطان فعلم ذلك عند الله وحده!».

فقال الشيخ: «بمقتضى السلطة المخولة لي وباسم المجتمع كله
أصدر إليكم الأمر بأن تلقوا القبض على ذلك الوغد في التو والساعة،
وعلى كل من تصادفونه في الطريق، وتأتوا بهم إليّ لأنظر في أمرهم!».

فصاح بعضهم وهم يجثون على قدميه: «رحماك أيها الشيخ
الموقر! ولينتك رأيت وجوههم القبيحة، لقد ولدنا وعُمدنا، ولكننا لم

نر قط مثل هذه الوجوه البشعة، وليهلكنا الله إن كنا من الكاذبين، وهذا الذي حدث لا ينجم عنه إلا الشر أيها الشيخ الموقر، وقد يوقع هؤلاء الفتية في قلب الرجل الطيب من الرعب ما لا تستطيع أي امرأة عجوز أن تتعهد بشفائه منه».

«الرعب حقًا! تُرى ما الذي ترمون إليه؟ أتَعْصُونَ الأوامر؟ إني لأحسب أنكم ضالعون معهم تمامًا! أتَشْقُونَ عصا الطاعة؟ ما خطبكم؟ وما معنى هذا؟ أتعمدون إلى الفتنة؟ أنتم أنفسكم.. لأرفعن أمركم إلى المأمور! في التو والساعة! أسمعون؟ في التو والساعة! عجلوا، عجلوا ولتسابقوا الريح! ولتعلمن أنني.. ولتعلمن أنكم..».

وهرولوا جميعًا وقد ذهب كل منهم في واد!



العدراء الغريقة

كان المحرض على هذا الشغب كله يسير ببطء شطر البيت القديم وشطر البركة دون أن يزعجه الطراد أو تقلقه فرق البحث التي أطلقت في كل اتجاه، وما من حاجة تدعونا بعد إلى القول بأن ذلك المحرض هو ليفكو، وكان الفتى يمضي في طريقه وقد فك أزرار جلد الماعز الذي كان يرتديه، وأمسك بقبعته والعرق يتصبب من وجهه. وكانت غابة إسفندان تبدو مهيبة جليلة يغشاها الظلام الكثيب، ويلم بها فحسب لألاء من ضوء القمر انتشر هنا وهناك، وراحت البركة الساكنة تنضج ذلك الجوال المتعب بأنفاس رطبية منعشة تغريه بالإخلاق إلى ضفتها يستروح لحظة، وكان السكون شاملاً لا يتخلله إلا تغريد البلابل في الصميم من أعماق الغابة، وسرعان ما أدرك الفتى نعاس لا يستطيع له دفعاً، فأغمض عينيه، وبدأ الخدر يدب في أعضائه الكليلة، وثقل رأسه ومال، ثم هتف وهو يشد قامته ويفرك عينيه: «ويحي! لو أنني بقيت على هذه الحال لاستسلمت للنعاس في مكاني هذا!..»

وتلفت حوله، فبدا له الليل أكثر بهاء وأعظم جلالاً، وامتزج ضوء القمر لألاء فاتن غريب لم ير له الفتى من قبل مثيلاً قط، واكتسى كل شيء حوله بضباب في لون الفضة، وغمر الأرض جميعاً عبير نوار التفاح وشذا الأزهار، ينفحها الليل بعطره، وأخذ الفتى ينظر مشدوهاً إلى مياه البركة الساكنة التي انعكست عليها صورة لقصر الريفي لشريف الناحية مقلوبة، وقد تجلى القصر في حلة من المهابة والجلال، واستبدلت فيه النوافذ والأبواب الزجاجية المشرقة بالمصاريع الكثيرة، وتآلق بريق الأشياء المذهبة من خلال الألواح الزجاجية الشفافة، ثم حُيِّل إليه أن نافذة من نوافذ القصر قد فُتحت فحبس أنفاسه وكفَّ عن الحركة، ولم يحول نظره عن البركة، وبدأ أنه يغوص إلى أعماقها، وإذا به يرى أول ما يرى مرفقاً أبيض يظهر من النافذة، ثم رأساً صغيراً فاتناً وعينين مشرقتين تتألقان في رقة وعدوبة من خلال خصلات الشعر الكستنائية الداكنة، وأطل الرأس من النافذة واستند على المرفق، ثم رأى الغادة تومئ برأسها إيماءة رقيقة.

لقد كانت تشير إليه، وكانت تبسّم، فأخذ قلبه ينبض، وشرع الماء يهتز، ثم أغلقت النافذة مرة أخرى، وابتعد الفتى عن البركة في بطاء، ونظر إلى القصر، فوجد المصاريع المظلمة مفتوحة، وألواح النوافذ الزجاجية تتآلق في ضوء القمر فقال يحدث نفسه: «عجبي للناس: لا يستطيع المرء أن يصدق من أقاويلهم إلا القليل، إنه لقصر جديد غص الطلاء كأنما نفّض الصانع منه اليدين بالأمس نفّضاً، وبعض الناس يقيمون فيه». واقترب من القصر في سكون، فلم يسمع فيه نأمة

ولا حسًا، وارتفع صوت البلابل الرائع تشدو بأنغامها الشجية حتى إذا خفت صوتها وغاب في غمرة من الوسن والاشتواء، علا خفيف الجنادب وطنينها، وانبعث من هذا الطائر أو ذاك من طيور المستنقع صوت عميق، وهو يضرب بمنقاره الزلق صفحة الماء العريضة، وامتلأ قلب ليفكو بشعور عذب من السكينة والرحابة والانطلاق، فنغم بندورته وراح يعزف عليها ويشدو:

آه، أيها القمر، القمر الحبيب!
وأنت، يا نجمي المشرق الجبين!
تألقا واسكبا نوركما على الكوخ
ففيه تقيم فتاتي الجميلة!

وانفتحت النافذة في بطن، وأطلت الفتاة التي رأى صورتها منعكسة على مياه البركة، وأخذت تنصت إلى غناؤه في إمعان، وقد أوشكت أهدابها الطويلة أن تخفي عينيها، واتشحت كلها بحلة بيضاء كالصفحة الناصعة أو كضوء القمر، أما جمالها فكان هو الروعة والفتنة والبهاء! وضحكت الفتاة، فجفل ليفكو.

وقالت في صوت ناعم رقيق، وهي تميل برأسها على جانب وتستتر عينيها برموشها الوطف: «غنّ لي أغنية أيها القوزاقي الشاب!». «أي أغنية تريدين يا غادتي الفاتنة؟».

وسالت الدموع من عينيها وتحدرت في بطن على وجهها الشاحب. وقالت، وفي حديثها نبرات تبعث في النفس من الأسى ما يعجز

القلم عن وصفه: «أيها الشاب، أيها الشاب، ابحث لي عن زوجة أبي! ولن أحمل لك حقداً، بل سأجازيك، فأجزل لك العطاء وأسخو في الإغداق عليك، إن لديّ أكمّاماً مطرزة بالحرير والمرجان والقلائد، وسأهب لك حزاماً مرصعاً باللالئ، وعندى ذهب أيها الشاب، فابحث لي عن زوجة أبي! إنها ساحرة رهيبة، عكرت صفو حياتي، فلم أعرف طعماً للراحة. لقد كانت تعذبني، وتحملني على العمل كأى فتاة قروية نافهة الشأن. انظر إلى وجهي، تر أنها توسلت بسحرها الدنس، فسلبت منه ورد الخدين. وانظر إلى عنقي الأبيض، تر الآثار الزرق القاتمة لبرائتها الفولاذية باقية لا تُمحي ولا تزول ولا يرجى لي منها خلاص! وانظر إلى قدمي البيضاوين، لقد طوح بهما النوى، ولكنهما لم تسيرا على الأرض الرطبة والأشواك الحادة! وانظر إلى عيني، أجل انظر إلى عيني! لقد طمس البكاء نورهما، وأظلمتهما غشاوة! عليّ بها أيها الشاب، وهات لي زوجة أبي!».

وخفت صوتها الذي كان قد ارتفع حتى تلاشى في غمرة السكون، وانهمر الدمع على وجهها الشاحب، فانفطر قلب الشاب أسى ورحمة، وقال في لهجة تجيش بالعاطفة: «إني لمستعد أن أفعل أي شيء من أجلك يا غادتي الفاتنة! ولكن كيف أجدها؟ وأين؟».

فردت عليه مسرعة: «انظر، انظر، إنها هنا، إنها على الضفة تلعب مع أترابي العذارى بعض الألعاب، وتستدفئ في ضوء القمر، ولكنها مأكرة داهية، فقد اتخذت لنفسها صورة الغادة الغريقة، ومع ذلك فإني أعلم، بل أحس بأنها هنا، تضيق عليّ المسالك، وتكتم مني الأنفاس، وأنا لا أستطيع أن أسبح كالسمكة في سهولة ويسر بسببها، وإنما أغوص

وأهبط إلى القاع كالفتاح، فابحث عنها أيها الشاب!».

ونظر ليفكو شطر الضفة، فرأى من خلال الضباب الفضي الرقيق عذارى ينطلقن خفيفات كالطيف في قمصان تحاكي المرح في بياضها الناصع تزينها زنابق من زهر الوادي، وقد زهت أعناقهن بالقلائد الذهبية وعقود الخرز وقطع النقود، ولكنهن كن شاحبات، رقت أجسامهن كأنها قدت من سحابة شفافة، حتى بدا أن ضوء القمر الفضي يتألق في ثناياها، ودنت العذارى منه رويدًا رويدًا يغنين ويرقصن، فيصل غناؤهن إلى سمعه.

ثم همسن: «هيا بنا نلعب لعبة الغراب وفراخ الدجاج»، وكان صوتهن كصوت قبلة تطبعها شفتا النسيم الأثيرية على أغصان الغاب النابتة في حافة النهر في هداة الفجر.

«ولكن، من تكون الغراب؟».

واقترعن على ذلك، وبرزت فتاة من صفوف العذارى، وأمعن ليفكو النظر فيها، وكان وجهها وثوبها يحاكي وجوه الأخريات وثيابهن سواء بسواء، على أنه لاحظ أنها لم تقبل على أداء دورها في اللعبة، واصطفت جماعة الفتيات في دائرة، وانطلقن مبتعدات عن العدو الكاسر.

وقالت الفتاة وقد أدركها التعب والإجهاد: «كلا، فلست أريد أن أكون الغراب، وإنه ليحزنني أن أخطف الفراخ من أمهن المسكينة!».

فقال ليفكو بينه وبين نفسه: «لست أنتِ هي الساحرة!».

«ومن تكون الغراب؟». وتهيات الفتيات للاقتراع مرة أخرى.

وأبدت فتاة كانت تتوسط الجماعة استعدادها للقيام بهذا الدور
قائلة: «لأكن أنا الغراب!».

ونظر ليفكو في وجهها بإمعان، وانطلقت الفتاة تتابع الحلقة في
جراحة وسرعة، واندفعت متنقلة من جانب إلى جانب لتقبض على
ضحيتها، وإذا بالفتى يلاحظ فجأة أن جسمها لا يبلغ في شفافيته مبلغ
الأخريات، فقد كان يبدو للعين في طوايا جسمها شيء معتم، وانبعثت
في الجو صرخة على حين غرة، فقد انقض الغراب على فتاة من الحلقة،
وأمسك بها، وخُيِّلَ إلى ليفكو أن الفتاة التي تقوم بدور الغراب قد أبرزت
مخالبها، وتألَّق وجهها فجأة ببريق من الحقد والشر.

فقال وهو يشير بإصبعه إليها فجأة مرتدًا إلى شطر المنزل:
«الساحرة!».

وضحكت الفتاة المطلة من النافذة، وقادت الفتيات الأخريات
وهن يصحن: «الفتاة التي أدت دور الغراب».

«كيف أجزيك على ما فعلت أيها الشاب؟ إنني لأعلم أنك لست في
حاجة إلى الذهب، وإنما أنت تحب حنة، وبأبى أبوك الغليظ القلب أن
يزوجك إياها، على أنه لن يعترض بعد اليوم طريقك، فهاك! وخذ هذه
الرسالة إليه».

وامتدت يدها البيضاء، وفاض وجهها بنور وبهاء عجيبين، وأطبقت
يد الفتى على الرسالة، ودق قلبه في شوق واهتمام وقد غلبه القلق على
أمره، ثم... استيقظ من نومه!

اليقظة

وتساءل ليفكو، وهو ينهض من الرابية: «تُرى هل كنت في منام؟»، ثم قال وهو يتلفت حوله: «لقد كان ذلك كله أقرب إلى الحياة كأنما هو قد حدث فعلاً، يا للعجب!».

وتبين ليفكو إذ رأى القمر يعتلي كبد السماء فوق رأسه تماماً، أن الليل قد انتصف وكان السكون يخيم على أرجاء المكان جميعه، وانبعث من البركة هواء بارد قر، وقام القصر القديم بمصاريعه المغلقة أمامه يجلله الحزن والأسى، وقد لاح من الطحلب والأعشاب الطويلة أن أهله هجروه منذ أمد بعيد، ثم بسط ليفكو يده التي كانت منقبضة في إحكام وهو مستسلم للنوم، وصاح مذهولاً إذ أحس بوجود الرسالة فيها، وقال يحدث نفسه وهو يقلب الرسالة بين يديه، ويتأملها من جميع نواحيها: «آه! لو كنت أستطيع أن أقرأ!»، وفي تلك اللحظة سمع صوتاً ينبعث من خلفه:

«لا تخافوا، واقبضوا عليه في الحال! ما بالكم تخافون؟ إننا اثنا

عشر، وإني لأراهنكم بأي شيء على أنه رجل وليس بشيطان!» وهكذا أخذ شيخ القرية يصبح في رفاقه، وأحس ليفكو بأيدي تمسك بتلابيبه، وكان بعضها يرتعد خوفاً وفزعاً، وقال الشيخ وهو يقبض عليه من بنيقة ثوبه: «اخلع هذا الثوب المخيف يا صديقي! ودعك من السخرية بالناس!»، ولكن الدهشة عقدت لسانه عندما وقع بصره عليه، فصاح وهو يتراجع مذهولاً ويرخي يديه: «ليفكو ولدي! هل هو أنت يا ابن الكلب! آه ريب الشيطان! لقد كنت أتساءل: من يكون ذلك الوجود؟ وأي شيطان تقمصه فراح يلعب تلك الألعايب؟ إذن فهذا كله من صنعك! ألا فليغص حلق أبيك بهلام لم يتم نضجه! أيطيب لك أن تثير كل هذا الشغب في الطريق وتؤلف هذه الأغاني؟ آه يا ليفكو! ما معنى هذا؟ يبدو أن ظهرك يتحرق شوقاً للعصا! شدوا وثاقه!».

فقال ليفكو: «اصبر قليلاً يا أبت! فقد طلب مني أن أسلمك الرسالة».

«ليس هذا بالوقت المناسب لتلقي الرسائل يا بني! شدوا وثاقه!»
«وقال الكاتب وهو يفض الرسالة: صبراً أيها الشيخ الموقر، فإنها بخط المأمور».

«خط المأمور؟».

وردد الشرطة من غير وعي: «خط المأمور؟ أليس هذا بعجيب؟
وي! لقد ازداد الأمر غرابة على غرابة!».

وقال ليفكو يحدث نفسه: «خط المأمور؟».

وقال الشيخ: «اتلها، اتلها! وقل لنا ماذا كتب المأمور؟».

وقال مقطر الخمر وهو يقبض على غليونه بأسنانه ويشعل عودًا من الثقاب:

«لنسمع ما كتب المأمور».

وتنحج الكاتب وأخذ يقرأ:

«أمرٌ إلى شيخ القرية بيفتوخ ماكو جونينكو: بلغنا أيها الغبي العجوز إنك انصرفت عن جمع الضرائب المتأخرة وحفظ النظام في القرية، وركبت مركب الحماقة وسلكت سلوكًا مشينًا...».

فقاطعه الشيخ قائلاً: «أقسم بشرفي أنني لا أستطيع أن أسمع كلمة مما تقرأ!».

وشرع الكاتب يقرأ من جديد:

«أمرٌ إلى شيخ القرية بيفتوخ ماكو جونينكو: بلغنا أيها الغبي العجوز أنك...».

فصاح الشيخ: كف، كف! ولا تقرأ هذا، فإنني - وإن كنت لم أسمعه - لأدرك إنه ليس هو بيت القصيد، اقرأ ما بعده!».

«ولذلك فإنني آمركم بأن تعقد لابنك ليفكو ماكو جونينكو على حنة بتريشينكو وهي فتاة قوزاقية من قريتكم، كما آمركم بإصلاح الجسور القائمة في الطريق العام، وألا تعطوا الخاصة من رجال المحاكم الحكومة جياذ القرويين بغير إذنٍ مني، ولو جاءوا إليكم رأسًا من ديوان الحكومة، وإذا وجدت حين قدومي إليكم أن هذه الأوامر لم

تنفذ عددتك مسؤولاً دون سواك عن ذلك - المأمور: الملازم المتقاعد كوزومادر كاش دريشبانوفسكي».

وقال الشيخ وقد فغر فاه عجباً: «وي! أو سمعتم هذا؟ سيكون الشيخ مسؤولاً عن ذلك كله، ومن ثم وجب عليكم أن تطيعوني بلا قيد ولا شرط أن يحل بكم العقاب»، ثم التفت إلى ليفكو ومضى يقول: «أما أنت، فسأزوجك إياها، ما دام المأمور قد قضى بذلك، وإن كنت لا أدرك كيف بلغه النبأ، على أنك ستذوق أولاً طعم سوطي! وأنت تعرف السوط الجديد المعلق على الجدران قرب الأيقونات، ولأستعين به غداً، ولكن من أين لك بالرسالة؟».

وعجب ليفكو مما آلت إليه الأمور، على أنه كان من الحصافة بحيث أعد في ذهنه جواباً عن هذا السؤال، وإن أخفى الحقيقة عن الوسيلة التي حصل بها على الرسالة.

ثم قال: «لقد كنت في المدينة الليلة الماضية، ولقيت المأمور وهو يهبط من عربته، فلما علم أنني قادم من هذه القرية ناولني الرسالة، وطلب مني أن أنقل إليك يا أبت أنه سيمر بنا في طريق عودته ويتناول العشاء معنا».

«هل قال هذا؟».

«أي نعم».

قال الشيخ في شيء من العزة والاعتداد بالنفس وهو يلتفت إلى رفاقه: «هل سمعتم؟ إن المأمور قادم بشخصه ليزور من هم على

شاكلتنا، أجل إنه قادم إليّ ليتناول العشاء»، ورفع إصبعه ثم رفع رأسه كأنما كان ينصت إلى شيء، وأردف يقول: «المأمور -أتسمعون؟ المأمور- قادم ليتناول العشاء معي، فما رأيك أيها الكاتب المحترم؟ وما رأيك أنت أيها الصديق؟ إن هذا لتكريم لا يمكن أن يستخف به المرء. أليس كذلك؟».

وقال الكاتب: «لم يسبق لشيخ قرية فيما أذكر أن حظي بجلوس المأمور إلى مائدته لتناول العشاء!».

وقال الشيخ في لهجة الفخور المختال: «فرق بين شيخ وشيخ»، ثم التوى فمه، وانطلق من بين شفثيه شيء قريب من الضحكة الخشنة، بل أقرب إلى قصف الرعد يترامى إليك من بعيد، ومضى يقول: «ألا تظن أيها الكاتب المحترم أنه ينبغي علينا إكرامًا لهذا الضيف الجليل المقام أن تصدر الأوامر بأن يساهم كل كوخ بدجاجة على الأقل وشيء من الكتان، ثم بشيء غير ذلك. فما رأيك؟».

«أجل، هذا ما ينبغي لنا أيها الشيخ الموقر».

وسأل ليفكو: «ومتى يكون الزفاف يا أبت؟».

«الزفاف؟ كان بودي أن أريك كيف يكون الزفاف! ولكن ليأتين القس غدًا إكرامًا لضيفنا الجليل المقام ويعقد قرانك، لعنة الله عليك! وليعلمن المأمور كيف تكون المبادرة إلى أداء الواجب. والآن أيها الفتيان، لقد حان وقت النوم فعودوا إلى دياركم! فإن ما حدث اليوم ليذكرني بالأيام التي كنت فيها..»، وما إن نطق الشيخ بهذه الكلمات

حتى ألقى بنظرة من تحت حاجبيه أفصحت عما ألفه من التباهي بخطر مركزه واعتزازه بنفسه.

وقال ليفكو: «وليحدثنا الشيخ الآن كيف قام بمهمة الدليل للقيصرة!»، ثم مضى مسرع الخطى، وقلبه يطفح بشراً ميمماً شطر الكوخ المألوف الذي تكتنفه أشجار الكرز القصيرة العود، وقال يحدث نفسه: «جعل الله ملكوت السموات بين الملائكة الأبرار في العالم الآخر! تالله لن أقص على أحد نبأ تلك الأعجوبة التي حدثت الليلة، وحسبي أن أقصها عليك أنت وحدك يا حنة، ولنصلين أنا وأنت مبتهلين إلى الله أن ينزل سكينه على تلك العذراء الغريقة المنكودة الطالع!».

واقترب من الكوخ فألقى نافذته مفتوحة، وضوء القمر ينساب من خلالها، فيغمر حنة وهي مستسلمة للكرى وقد توسدت ذراعها، وتوردت وجنتاها بقبس ناعم رقيق، وتحركت شفتاها تهتفان باسمه في همس رقيق: «نامي يا ريحانة القلب، واحلمي بخير ما في هذا العالم، ولو أنه لا يفضل ما حل بنا من يقظة».

ورسم عليها علامة الصليب، ثم أغلق النافذة، ومضى يسترق الخُطى.

وما إن انقضى على ذلك بضع لحظات حتى كانت القرية كلها قد أخلدت للنوم، ولم يبق إلا القمر يسبح وحده متألقاً رائع الحس في فضاء السماء الأوكرانية الرائعة الذي لا يعرف نهايته إلا الله، أجل، لقد كان يشرف على القرية من عليائه ذلك الجلال المعهود، وكان الليل، الليل القدسي، يشيع في مناكبه تلك العظمة المهيبة الماثورة. أما الأرض فلم

تكن دون ذلك سناء وسنا وهي ترقد في فيض من هذا الضوء الفضوي
البديع، إلا أن أهل القرية جميعاً كانوا قد أسلموا جفونهم للنوم، فلم
يستمتع أحد بهذا المنظر الجميل، وخيم السكون إلا من نباح الكلاب
ينبعث من حين إلى حين، وظل كالينيك الثمل يترنح في الطرقات
الهاجعة وقتاً طويلاً يلتمس الطريق إلى كوخه.



الخطاب الضائع

قصة حقيقية يرويها قندلفت

أتريدون مني إذن أن أروي لكم قصة عن جدي؟ لا بأس، وماذا عليّ إذا رويت لكم قصة من قصصه؟ آه من هاتيك الأيام الخالية! ولشد ما يبهج القلب ويثلج الفؤاد أن يسمع المرء بما حدث في هذا العالم منذ أمد بعيد تعجز الذاكرة عن رده إلى موقعه من السنة والشهر! فإذا ما تناولت القصة قريباً من أقربائي سواء كان جدّاً أو جدّاً لجد، خُيِّل إليّ -وليدهمني السعال وأنا أترنم بنشيد القديسة فارفار الشهيدة لو كنت من الكاذبين- أنني أقوم بدوره جميعاً في تلك القصة كأنما تقمصت روح جدي الأكبر، أو أن روح هذا الجد قد أخذت تتولاني بالأعييها.

ويحق لي أن أذكر فتياتنا ونساءنا الصغيرات هن أكثر الناس إزعاجاً لي وإقلاقاً لراحتي، ذلك أنهم ما إن يلحمني حتى يهتفن: «فوما جريجوريفتش فوما جريجوريفتش! هلم، وارو لنا قصة مخيفة، اروها لنا وعجل!»، ويمضين في إلحاحهن، فلا أضن عليهن بطبيعة الحال، ولكن ليتك ترى ما يقع لهن حين يأوين إلى فراشهن! وإني لأعلم وإيم

الحق أن كل واحدة منهم ترتجف أوصالها تحت اللحف، كأنما ركبتها الحمى، ويطيب لها أن تنطوي تحت جلد الماعز تخفي فيه رأسها وجسمها جميعاً، ولو أن جرذاً نبش في قدر أو لمست هي بقدمها محرك النار لأخرجها ذلك عن وعيها أو كاد، ولكنها تعود في اليوم التالي فتلح عليّ إلحاحاً مزعجاً لأقص عليها قصة مخيفة، كأنما لم يصبها من قبل شيء، فماذا عساي أن أروي لكم؟ لا يحضرني شيء في هذه اللحظة ولكن صبراً! لأقص عليكم كيف سخرت الساحرات بجدي، ولا حيلة لي في أن أبدأ قصتي برجاء أتوجه به إليكم أيها الأصدقاء الأعزاء، وهو ألا تقاطعوني، وإلا اختلطت القصة عليّ اختلاطاً لا يستسيغه أحد.

كان جدي، ولا أخفيكم، زعيماً من زعماء القوزاق في أيامه، يعرف القراءة والكتابة، ويعرف إلى ذلك كيف يستعمل علامات الترقيم، وكان إذا حل عيد من أعياد القديسين راح يتلو سفر أعمال الرسل في صوت يتضاءل بجانبه صوت ابن أي قس من أبناء القساوسة اليوم، وإنكم لتعلمون من غير حاجة إلى أن أقول لكم ما أقول، إنكم لو جمعتم في تلك الأيام كل من يعرف القراءة والكتابة في باتورين بأسرها ما احتجتم إلى قبعة أحدكم لوضعهم فيها! ذلك أنهم لم يكونوا يتجاوزون جميعاً حفنة اليد، ولا عجب إذن في أن جدي كان لا يلقاه أحد إلا انحنى له، وبالغ في الانحناء أيضاً.

وطراً على بال زعيمنا القوزاقي النبيل ذات يوم أن يبعث بخطاب إلى القيصرية، وأرسل كاتب الفرقة في تلك الأيام -وأنا لا أستطيع أن أذكر هل كان اسمه هو فيسكرياك أو موتوزتشكا أو جولوبوتسك أو

شيئاً من هذا القبيل؟ وكل ما أذكره أنه كان اسماً غريباً يبدأ ببداية غريبة -
أقول إن كاتب الفرقة في تلك الأيام أرسل في طلب جدي، وأنباء أن
الزعيم القوزاقي نفسه قد اختاره رسولاً إلى القيصرة، ولم يك جدي
يحب أن يضيع الوقت في التأهب والاستعداد، فخاط الخطاب في
قمة قبعته وأخرج جواده وقبّل زوجته وخنزيره الرضيعين كما ألف أن
يسمي ولديه - وكان أبي أحدهما -، وأثار من الغبار في ذلك اليوم ما
يشير خمسة عشر صبيّاً يلعبون لعبة صاخبة في عرض الطريق، ووصل
جدي إلى كونوتوب في صبيحة اليوم التالي قبل أن يصيح الديك للمرة
الرابعة، وكانت السوق وقتئذٍ قائمة فيها، وقد امتلأت طرقاتها بزحمة
من الجماهير تصيب رأسك بالدوار إذا أمعنت النظر فيها، إلا أن الوقت
كان مبكراً وقد تمدد القوم جميعاً على الأرض واستغرقوا في النوم،
واستلقى فتى عرييد أحمر الأنف كالدقناش^(١) بجوار بقرة.

وراحت بائعة متجولة، تباع صوان الزناد ورزماً من «الرش»
الصغير الأزرق وحزماً من التبغ، تغط في النوم حيث تهاوت على مقربة
منه، واستلقى رجل من النّور تحت عربة، واعتلى صاحب عربة من
القوم عربة مملوءة بالسّمك، وانبطح مسكوفي ملتجٍ يحمل الأحزمة
والقفازات في عرض الطريق وقد برزت ساقاه. وصفوة القول أن
المكان كان حافلاً بسوقة من القوم على اختلاف الأنواع والأشكال،
كما هي العادة في الأسواق جميعاً، ووقف جدي يلقي نظرة حوله، على
حين دبت الحركة في الخيام، فأخذت اليهوديات يقعقعن بقواريرهن،

(١) الدقناش. عصفور صدره أحمر.

وارتفع الدخان حلقات هنا وهناك، وغمرت رائحة الكعك الساخن المخيم كله، وتذكر جدي أنه لم يك يحمل معه صوفانة أو تبغاً، فشرع يتجول في السوق، وما إن سار عشرين خطوة حتى لقي قوزاقاً من زابوروجي كالشعلة المرحّة، كما يستبين لأول وهلة من وجهه! ونظرة واحدة إلى سرواله الأحمر الوهاج، وسترته الزرقاء الكاسية، وحزامه المزدان بالأزهار الزاهية الألوان، وسيفه المثبت إلى جانبه، وغليونه ذي السلسلة النحاسية الجميلة تسترسل حتى تبلغ كعبه - كافية للدلالة على أنه يمثل قوزاق زابوروجي أصدق تمثيل. آه! لقد كان هؤلاء القوزاق من أبرع الراقصين! وحسب الواحد منهم أن ينهض ويتمطى ويربت شاربه الأنيق، ويضرب كعبه الحديديين كُلاً بالآخر - ثم يبدأ! وبإلهام من بداية! إن ساقيه لتدوران كأنهما المغزل في يد امرأة، وتجذب أصابعه أوتار البندورة جميعاً كالإعصار، ثم يضع ذراعيه في خاصرتيه ويشرع في الرقص، أو يأخذ في إنشاد أغنية تثير في قلبه ما تثير! أجل، لقد ولّت الأيام الخالية بحلوها وخيرها، ولم تعد ترى اليوم زابوروجياً واحداً من هذا القبيل!

والتقى الرجلان، وكان بينهما حديث، ولا يطول الأمر باثنين حتى يصبحا من الأصدقاء، وراحا يتحدثان ثم يتحدثان حتى نسي جدي كل ما يتصل برحلته، وسكرا سكرة على مألوف القوم في حفلات الزفاف تقام قبل الصوم الكبير، وإنني لأحسب أنهما لم يكفّا عن الشراب إلا بعد أن حلّ بهما التعب آخر الأمر وكلت أيديهما من تحطيم القدور وإلقاء النقود على الناس، وأي سوق تدوم إلى ما شاء الله؟ وهكذا اتفق

الصديقان الجديدان على ألا يفترقا وأن يمضيا معاً في رحلتهم. وكان المساء قد أوشك أن يحل عندما ركبا جواديهما وخرجا في العراء، وغربت الشمس فلم يبق في موضعهما إلا خيوط حمر تتوهج هنا وهناك في السماء، وكان الريف يزهو بالحقول وقد اختلفت ألوانها، فبدت أشبه بالنقبات المبرقشة ترتديها فتياتنا الكحيلات العيون أيام الراحة.

وانطلق لسان القوزاقي بالحديث انطلاق من أصابته جنة مما حمل أبي وفتى آخر خفيف الروح كان قد لحق بهما على الظن بأن الرجل قد ركبه الشيطان. وتساءلا في دهشة: من أين له بكل هذا الحديث الذي حوى من أعاجيب الحكايات والقصص ما كاد ينشق له جنبا جدي من الضحك؟ على أن الظلام أخذ يشتد كلما أوغلوا في السير، وأخذ الحديث المرح يزداد هلهلة وتفككا، والتزم راوينا الصمت آخر الأمر، وكان يجفل إذا أحس بأقل حفيف.

فقالا له: «واها لك أيها الجار! لقد بدأت تومئ في جد ووقار، وإنك لتتمنى الآن أن تكون في دارك مخلداً إلى أريكة الموقد!».

فقال فجأة وهو يلتفت إليهما ويحدق فيهما بنظراته: «ما بي من حاجة إلى إخفاء الأمر عنكما، أو تعلمان أنني قد بعث روحي للشيطان منذ أمد بعيد؟».

«كأنما جئت نبأ جديد لم يسمع به أحد من قبل! ومن ذا الذي لم يعامل الشيطان في يومه؟ وهذا هو السر في المثل الذي يقول: «لتجرعن كأس السرور حتى الثمالة».

فقال وهو يشد بيده على أيديهما: «آه يا صاحبي! لقد كنت أحب أن أجرع كأس السرور، ولكن ساعتى الأخيرة سوف تحل هذه الليلة، ولن أنسى صداقتكما ما حييت!».

وما ضر لو ساعد المرء أخاه إذا نزل به مثل هذا البلاء؟ وأقسم جدي لتوه إنه لخير عنده أن تنزع قنزعته عن جلد رأسه من أن يسمح للشيطان بأن يتشمم بأنفه الذي يشبه أنف الكلب نفساً مسيحية.

ولعل أصحابنا القوزاق كانوا خليقين بأن يمتطوا صهوات جيادهم ويمضوا في طريقهم لو لم يغش السحاب رقعة السماء جميعاً كأنه نسيج أسود من غزل البيوت، أو لم يضرب لونها إلى الظلمة الحالكة كأنما غطاها جلد الماعز، وكان ينبعث على البعد ضوء يتلألأ، وأحست الجياد بوجود حظيرة قريبة، فأسرعت الخطى وهي ترهف آذانها وتحملق في الظلام، ولاح الضوء كأنه يتطاير طيراناً لملاقاة القوزاق الثلاثة، ورأوا أمامهم حانة تميل على جانب كأنها فلاحه تسير في طريق عودتها إلى دارها من حفلة عماد مرحة، ولم تكن الحانات في تلك الأيام كما هي عليه اليوم، فقد كانت أضيق من أن تتسع لرجل طيب يدور أو يرقص رقصة الهوباك، أو يجد حقاً مكاناً يرقد فيه لو قد حدث أن الخمر شعشت في رأسه وأخذت ساقاه ترسم حلقات على أديم الأرض، وكان فناء الحانة قد حفل بعربات الحوزية وازدحمت جنباته جميعاً، وكان الرجال يرقدون تحت السقائف وفي المداود ومخازن الجوب، يغطون في نومهم بين مترع ومستلق إلا صاحب الحانة، فقد كان يقظان يجلس أمام مصباحه الصغير الذي اتخذ من قدر، يحز في عصاه حزوفاً

يسجل بها عدد ما شربه الحوذية من أثمان الجالونات وأرباعها.

وطلب جدي ثلث سطل له ولصاحبه، ثم يمّم شطر مخزن الحبوب، واستلقى الرجال الثلاثة على الأرض جنباً إلى جنب، وما إن همّ جدي بالالتفاف حتى كان صاحباه قد استغرقا في النوم استغراقاً، وأيقظ جدي القوزاقي الثالث الذي كان قد لحق بهما وذكره بالعهد الذي عاهدا عليه رفيقهما، وجلس الرجل وفرك عينيه ثم أخلد للنوم مرة أخرى، ولم يجد جدي في الأمر حيلة، فاضطر إلى القيام بالحراسة وحده، وأراد أن يدفع الكرى عن عينيه بأي وجه، فأخذ يتفحص العربات جميعاً ويلقي نظرة على الجياد، ثم أشعل غليونيه وعاد أدراجه.

وجلس مرة أخرى بجوار صاحبيه، وشمل السكون كل شيء حتى لقد بدا أنه ما من ذبابة واحدة كانت تتحرك، ثم خيل إليه أن شيئاً أصهب اللون قد دفع بقرونه من تحت عربة قريبة منه، على أن عينيه أخذتا تطوفان، فحمّله ذلك على أن يفركهما كل لحظة بقبضة يده وأن يعمل جاهداً على أن تظلا مفتوحتين مستعيناً بما بقي من الفودكا، وكانت الغشاوة لا تنجّاب عنهما حتى يختفي كل شيء أمام ناظره. وظهر الشبح مرة أخرى بعد ذلك بقليل من تحت العربة، وفتح جدي عينيه بقدر ما وسعه، ولكن النعاس الملعون أغطش كل شيء، ودب الخدر في يديه، ومال رأسه على جانب، واستغرق في نوم هادئ كأنه أصبح في عداد الأموات، ونام جدي ساعات وساعات، ولم ينتصب واقفاً على قدميه إلا عندما أخذت الشمس تلسع رأسه الحليق، وتمطى مرات ومرات وحك ظهره، ثم لاحظ أنه لم يبق في الفناء ذلك العدد الكبير

من العربات الذي كان فيه بالأمس، ذلك أن الحوذية كانوا قد رحلوا بلا ريب قبل طلوع الفجر، وبحث عن صاحبيه، فتبين له أن القوزاقي لا يزال يغط في نومه، أما الزابوروجاوي فكان قد رحل، ولم يستطع أحد أن ينبئه بشيء عن ذلك الرجل، ولم يجد في مكانه المعهود أثرًا ينم عليه إلا معطفه.

وتملك جدي الرعب واختلط عليه الأمر، ومضى يبحث عن الجوادين فلم يجد أثرًا لجواده أو جواد الزابوروجاوي! ترى ما السر في ذلك؟ وهب أن الشيطان قد أخذ الزابوروجاوي، فمن يكون ذلك الذي أخذ الجوادين؟ وفكر جدي في الأمر مليًا وخرج من ذلك بأن الشيطان قد أقبل على الأرجح سيرًا على قدميه، فلما أنس بعد الشقة بينه وبين الجحيم استولى على جواده هو، واشتد اضطراب جدي لأنه لم يف بما عاهد عليه القوزاقي.

وقال يحدث نفسه: «ليس في الأمر حيلة، ولأَمْضِينَ سيرًا على قدمي، وأرجو أن يصادفني تاجر خيل في طريق عودته من السوق، فتتهيا لي الفرصة لشراء جواد». ولكنه ما إن شرع يبحث عن قبعته، حتى وجد أنها قد اختفت أيضًا، وأخذ يفرك يديه كل بالأخرى، إذ تذكر أنه كان في اليوم السابق قد بادل الزابوروجاوي قبعته إلى حين، وهيهات أن يكون قد سرق قبعته إلا الشيطان نفسه! يا له من رسول أمين! ويا للمهمة الجليلة التي اضطلع بها لتسليم ما جعله فيما أحسب يعطس في الجحيم مرة في إثر مرة، إلا أن السباب لا يفيد كثيرًا.

وعجز جدي عن الاهتمام إلى أي خطة على الرغم من أنه أخذ

يحك رأسه كثيرًا، وسقط في يده وتحير: ماذا يفعل؟ ورجع إلى القوم يلتمس عندهم الرأي، وجمع من كان يلوذ بالحانة في ذلك الوقت من أهل الصلاح، أجل جمع الحوذية وعابري الطريق من البسطاء، وحدثهم بما كان من أمره وما نزل به من كرب، وفكر الحوذية طويلاً وأسندوا ذقونهم على أسواطهم ثم هزوا رؤوسهم، وقالوا إنهم لم يسمعوا قط في العالم المسيحي بعجبية كهذه يختلس فيها الشيطان خطاب زعيم من زعماء القوزاق، وزاد آخرون بأنه إذا سرق الشيطان أو أي شخص من المسكوف شيئاً جاز لك أن تسترده بإطلاق صفارة من فمك، ولم يشذ عن الجماعة إلا صاحب الحانة، فقد جلس ملتزمًا الصمت في ركن الغرفة، فقصد جدي إليه، ذلك أن الرجل إذا أمسك عن الكلام كان حكيماً، على أن صاحب الحانة كان يتحاشى الكلام، ولو لم يخرج جدي من جيب خمس قطع ذهبية لظل الرجل على الأرجح واقفاً أمامه لا ينال منه منالاً.

وقال صاحب الحانة وهو ينتحي به جانباً: «لأرشدك إلى طريقة تجد بها الخطاب»، وانزاح حمل ثقيل عن صدر جدي، ومضى صاحب الحانة يقول: «فإني ألمح في عينيك أنك قوزاقي أصيل ولست غراً أبله، فألق إليّ بسمعك! إن ثمة منعطفاً في الغابة بالقرب من هذه الحانة، وما عليك إلا أن تتأهب للرحيل إذا أخذ الليل يرخي سدوله، ولتجدن في الغابة قوماً من النور يخرجون من أوكارهم لطرق الحديد في الليالي التي لا يخرج فيها إلى العراء إلا الساحرات يسعين على محركات النار، وخير لك ألا تسأل عن حرفتهم الحقيقية، ولتسمعن طرقاً كثيراً

في الغابة، فلا تمض إلى حيث تسمع الطرق، ولتجدن أيضًا دربًا صغيرًا يواجهك قرب شجرة محروقة فاسلك هذا الدرب، وواصل السير، وقد تחדش الأشواك قدميك، وتسد عليك شجيرات البندق الكثيفة مسالك الطريق، فلا تكفَّ عن السير وامض في سبيلك حتى تبلغ جدول ماء صغيرًا، تجد هناك بغيتك، ولكن لا تنس أن تضع في جيوبك ما صنعت من أجله الجيوب، فإنك تعلم أن الشياطين والأناسي على السواء يطيب لهم ذلك».

وما إن فرغ صاحب الحانة من قوله هذا، حتى مضى إلى الركن الذي كان يأوي إليه، وأبى أن يزيد.

وكان جدي رجلًا جريء القلب لا يهاب شيئًا، إذا صادف ذئبًا لا يتردد في أن يمسكه من ذيله، ولو أعمل قبضة يده بين القوزاق لسقطوا على الأرض سقوط الكمثرى من الشجر في أعداد غفيرة. على أنه أحس بالخوف يدب في قلبه عندما دخل الغابة في تلك الليلة الحالكة التي غابت نجومها عن الأنظار فلم يبد منها نجم واحد، لقد كان الظلام سائدًا والهدوء شاملاً كأنك في قبو من أقبية الخمر، وانبعثت ريح باردة من أجواز الفضاء تعصف بقمم الأشجار، فأخذت تتمايل على غير هدى كأنها رؤوس القوزاق عبوا من الخمر حتى ثملوا، وراحت أوراقها تهمس بأغنية نشوى تهتز أعطافها بفعل الراح، ثم هب إعصار بارد جعل جدي يفكر في جلد ماعز، ولم يلبث أن سمع صوتًا كأنه ينبعث من مائة مطرقة أخذت تدق في الغابة محدثة من الدوي والضجيج ما يصيب الأذن بالطينين.

وغمر الغابة لحظة ضوء لا تعهده إلا في بروق الصيف، ولمح جدي
درباً صغيراً يلتف بين الأشجار القصيرة العود في هذا المكان، وهنا
وجد الشجرة المحروقة، وهنا وجد شجيرات الحسك! أجل، لقد وجد
كل شيء على الحال التي وصفت له، إذن فقد صدق صاحب الحانة
ولم يكذبه! على أن نفسه لم تطب لما وجد وهو يشق طريقه شقاً خلال
الشجيرات الشائكة، ذلك أنه لم يعرف فيما مر من حياته قط أن تلك
الغصون والأشواك الملعونة تصيب المرء بمثل هذه الخدوش الأليمة.
وكان يحس في كل خطوة يخطوها بعذاب يوشك أن يبعثه على البكاء.
وسار رويداً رويداً حتى خرج إلى ممر، ورأى على قدر ما امتد بصره أن
الأشجار أخذت تتفرق ويزداد ما بينها اتساعاً، وكلما مضى في سيره
صادف أشجاراً تزيد في ضخامتها عن كل ما رآه فيما وراء بولندا، ثم
وقع نظره فجأة على جدول صغير يتألق بين الأشجار، أسود كالصلب
المقسي، ووقف جدي وقتاً طويلاً على ضفة الجدول يتلفت حوله،
ولاح من الضفة الأخرى وميض يتلألأ لحظة ثم يوشك أن ينطفئ، ثم
يعود فينعكس على صفحة الجدول ويتنفض انتفاض البولندي في أيدي
القوزاق، ثم ها هو ذا الجسر الصغير قد تكشف!

«إنني لأحسب أن هذا الجسر لا تستطيع عبوره إلا عربة الشيطان
نفسه!».

على أن جدي تقدم غير هيَّاب ولا وَّجِل، وبلغ الضفة الأخرى
للجدول قبل أن تتاح الفرصة لأي مخلوق آخر أن يخرج صندوق
سعوطه المصنوع من قرن الحيوان ويصيب منه شيئاً. ولم يلبث أن رأى

في هذه اللحظة فحسب قومًا يجلسون حول نار مشتعلة، أجل رأى وبالهول ما رأى! رأى سحنًا بديعة كسحن الخنازير لو قد رآها في أي وقت آخر لبذل -علم الله- كل مرتخص وغال لتحاشيها، ولكنه لم يجد بدءًا من التودد إلى هؤلاء القوم، وهكذا حنى جدي هامته، وبالع في ذلك مبالغة وقال هاتفاً: «كان الله في عونكم أيها القوم الصالحون!».

ولم يهتز رأس منهم بإيماءة واحدة، بل جلسوا سكونًا كأن على رؤوسهم الطير، وظلوا يلقون بشيء في النار، ورأى جدي مكانًا خاليًا فجلس دون أن يحفل بالأمر كثيرًا، ولم تنطق وجوه الخنازير البديعة بحرف، ولم ينبس جدي أيضًا ببنت شفة، وأخلد الجمع إلى الصمت طويلاً، وبدأ السأم يدرك جدي، فراح يضرب بيده في جيبه وأخرج غليونته وتلفت حوله، ولكن أحدًا منهم لم يرمقه بنظرة.

«أفلا تتفضلون عليّ أيها السادة الموقرون؟ فإنني والحق يُقال، إذا سمحتم لي -وكان جدي قد طوّف بالعالم كثيرًا وعرف كيف يصوغ الخطاب ولم يكن يعوزه اللفظ وإن مثل في حضرة القيصر- أجل إذا سمحتم لي، دون أن أبخس نفسي حقها أو أخرج عن حدود الأدب معكم، لأود أن أقول: إن عندي غليونًا لا أجد ما أشعله به».

وأمسك القوم عن الكلام هذه المرة أيضًا، ولم يجب أحدهم بحرف، إلا أن واحدًا من ذوي السحن الخزيرية قد قذف جمرة حامية في وجه جدي مباشرة لو لم يحد عنها قليلًا لأودت بعين من عينيه إلى ما شاء الله، وتبين له آخر الأمر أن الوقت يمر هباء، فصح عزمه على أن يقص عليهم قصته، سواء استمع له هؤلاء القوم الأنجاس أو لم يستمعوا.

وأرهب القوم آذانهم ومدوا مخالبتهم، وأدرك جدي ما يريدون، فأخرج كل ما كان يحمل من مال وألقى به إليهم كأنهم الكلاب، وما إن ألقى بما معه حتى اضطرب كل شيء أمامه، فاهتزت الأرض، ووجد نفسه فجأة فيما يشبه الجحيم، ولم يستطع جدي قط أن يطل هذا الجزء من قصته. وتأوه جدي إذ ألقى بنظرة فاحصة حوله ثم هتف. «رحماك ربي!»، تالله ما كان أبشع من تلك الوحوش! فقد كان كل وجه أقبح من أخيه، وكانت الساحرات كثيرات كثرة شقف الجليد تتساقط أحياناً في عيد الميلاد، وقد تأنقن جميعاً في لباسهن وصبغن أنفسهن بالطلاء كما تفعل الحسان إذا أومن سوقاً من الأسواق، ورحن يرقصن ضرباً من رقصة الهوباك على طريقة الشياطين كأنما لعبت الخمر برؤوسهن. أما الغبار الذي أثره فحدث عنه ولا حرج!

وأما القفزات التي أخذت هؤلاء الساحرات من بنات الشيطان يضربن بها في أجواز الفضاء، فقد كانت خليقة بأن ينتفض لها قلب أي مسيحي! وفرع جدي إلا أنه أغرق في الضحك إذ رأى الشياطين بوجوههم الشبيهة بوجوه الكلاب وسيقانهم التي تحاكي المغازل، يهزون ذبولهم ويلفون حول الساحرات ويدورون كما يفعل فتياننا بالفتيات الجميلات. وأخذ الموسيقيون يضربون خدودهم بقبضات أيديهم كأنها الطبول ويصفرون بأنوفهم كأنها الأبواق، وما إن رأوا جدي ووجوه الماعز ووجوه الحبارى ووجوه الخيول، أجل امتدت أعناقها جميعاً محاولة أن تقبله، ولم يسع جدي إلا أن يبصق، وقد نال منه الاشمئزاز مناله، ثم أمسكوا به آخر الأمر وأجلسوه على مائدة طويلة

لعلها تبلغ في الطول مبلغ الطريق من كونوتوب إلى باتورين.

وقال جدي يُحدّث نفسه، إذ رأى على المائدة لحم الخنزير والمقانتق والبصل المفروم بالكرنب وغير ذلك من الأطايب الكثيرة: «لا بأس بهذا على الإطلاق! وإني لأحسب أن هؤلاء الطغاة من أهل الجحيم لا يصومون الفرض!».

ولا أخفي عليكم أن جدي لم يكن ليدع الفرصة تفوته إذا تهيأت له اللقمة الطيبة، أجل لقد كان هذا الجد العزيز يستطيع الطعام ويتلذذ به، فلم يضيع وقتاً في الكلام، بل جذب إليه طاساً من شرائح دهن الخنزير وفخذ خنزير مدخنًا، وتناول شوكة لا تقل كثيرًا عن تلك التي يذري بها الفلاح التبن، وانتقى أكبر قطعة ووضعها على كسرة خبز، ولكن يا للعجب! لقد اندست هذه القطعة في فم آخر بجوار أذنه تمامًا.

وانبعث بلا ريب صوت فكي فتى آخر يمضعها وتلوكها أسنانه مقعقة مقعقة تصل إلى أذن كل من كان يجلس إلى المائدة، ولم يبال جدي بما حدث، بل تناول قطعة أخرى وبدأ أنه قد أمسك بها بين شفتيه، ولكنه لم يفلح هذه المرة أيضًا في أن يدفع بها إلى حلقه، وحاول مرة ثالثة فأخفق أيضًا، واستشاط جدي غضبًا، ونسي ما كان فيه من رعب، كما نسي القوم الذين وقع بين براثنهم، وهرع إلى الساحرات «أتحاولن أن تهزأن بي يا سليلات هيرودوس؟ تالله إن لم ترددن إليّ قبعتي القوزاقية في التو والساعة إني بريء من كاثوليكيّتي إن لم ألو خطومكن الخنزيرية حتى تبلغ قفاكن!».

وما إن ألقى بهذه الكلمة الأخيرة حتى كشرت الوحوش عن أنيابها،

وأطلقت ضحكة مدوية أشاعت الرعدة في أوصال جدي.

وصاحت ساحرة منهن حُيِّل إلى جدي أنها زعيمتهن، فقد كانت أكثرهن جمالاً أو تكاد: «لا بأس! ولن نرد إليك قبعتك إلا إذا فزت بها منا في ثلاثة أدوار من لعبة «العبيط»!..

فكيف يكون موقفه؟ أصبح لقوزاقي أن يقعد ويلعب لعبة «العبيط» مع بعض النساء؟ وظل جدي يرفض اللعب، ثم يرفض، ولكنه جلس آخر الأمر، وجاءت الساحرات بأوراق اللعب، فكانت حزمة يغشاها الشحم على غرار تلك التي تستعملها بنات القساوسة فحسب ليكشفن عما يضمره لهن الغيب من أزواج.

وصاحت به الساحرة مرة أخرى في صوت كالنباح قائلة: «استمع إليّ! لتكونن القبعة من نصيبك إذا فزت في دور واحد، أما إذا خرجت من الأدوار الثلاثة وكان من نصيبك «العبيط» فلن ترى قبعتك، ومن يدري لعلك لا ترى العالم مرة أخرى!».

«هلمي، وزعي الورق أيتها الساحرة الحيزبون! وليكن ما يكون!».

ووزع الورق، وتناول جدي نصيبه منه، فألفاه كله تافهًا لا غناء فيه، فأشاح عنه اشمئزازًا، وكأنما أراد القدر أن يسخر منه فلم يواته بورقة واحدة رابحة، أما بقية الورق الذي وقع في يده فكان أعلى ورقة فيه هي «العشرة»، ولم يكن معه ورقة واحدة من ورقات «الاثنين»، وظلت الساحرة تدفع إليه بالورقات خمسًا خمسًا، وشاء القدر أن يكون جدي في هذا الدور هو «العبيط»، وما إن خرج من الدور بهذا النصيب حتى

ارتفعت أصوات الوحوش من كل جانب تصهل وتنبح وتقع وتنادي هاتفة: «عبيط! عبيط! عبيط!».

فصاح جدي وقد سد أذنيه بأصابعه: «فلتصيحوا حتى تنشق حناجركم أيها الشياطين!».

وقال بينه وبين نفسه: «إن الساحرة لم تكن أمينة في اللعب، ولأوزعن الورق بنفسه»، ووزع الورق، وكشف عن الورقة الرابعة ثم ألقى نظرة على نصيبه من الورق، فوجده مواتياً يشتمل على بعض أوراق رابحة، وبدأت الأمور في البداية على خير ما يمكن أن تكون حتى وضعت الساحرة على الأرض خمس ورقات بينها بعض الملوك.

ولم يك في يد جدي إلا أوراق رابحة، فضارب بها في سرعة البرق كل الملوك.

«ها! ليس هذا من شيمة القوزاق! ما الذي تضاربها به أيها الجار؟».

«بماذا؟ بالأوراق الرابعة!».

«قد تكون في اعتقادك أوراقاً رابحة، أما في اعتقادنا فلا!».

يا للعجب! لقد كان نصيبه من الورق من نوع آخر فعلاً! ترى أي حيلة من حيل الشياطين هذه؟ وخرج من الدور «العبيط» للمرة الثانية، وراح الشياطين يشقون حناجرهم مرة أخرى صائحين: «عبيط! عبيط!»، ومضوا في ذلك حتى اهتزت المائدة وراح الورق يتراقص عليها.

واستشاط جدي غضباً، ووزع الورق للمرة الأخيرة، ووافاه الحظ هذه المرة أيضاً بورقٍ مواتٍ، وعادت الساحرة فوضعت على الأرض خمس

ورقات فصاربها جدي، وأخذ من الورق عددًا من الأوراق التي تريح.
وصاح: «ورقة رابحة!» وألقى ورقة على المائدة في قوة جعلتها
تنثني وتنغضن.
وغطتها الساحرة بثمانى ورقات من نوع آخر دون أن تنبس ببنت
شفة.

«بماذا تضربين ورقتي الرابعة أيتها الشيطانة الحيزبون؟»
ورفعت الساحرة ورقتها، فإذا تحتها ست ورقات من نوع عادي.
وقال جدي: «يا للحيل الشيطانية!»، وضاق صدره، فضرب المائدة
بقبضة يده بأقصى ما يستطيع من قوة، ومن حسن التوفيق أن الورق
الذي مع الساحرة كان تافهًا لا غناء فيه، وشاء الحظ أن يكون مع جدي
في هذه المرة ورقات من ذوات «الاثنتين»، وشرع يسحب الورق من
الرصة، فألفاه عديم الجدوى. أجل لقد بلغ من تفاهة الورق الذي كان
من نصيب جدي أن يؤس الرجل فسقطت يده إلى جنبه، ولم يبق في
الرصة ورقة واحدة، فاضطر أن يلعب بأي ورقة في يده، وكانت هي
ورقة الست! ولم تجد الساحرة بدًا من أخذها، ذلك أنه لم يبق معها
ورقة يمكن أن تضاربه بها: «وي، وي! ما هذا؟ لا شك أن في الأمر
شيئًا!»، ثم رسم جدي إشارة الصليب خفية فوق الورق من تحت
المائدة، ولكن أي شيء وجد! لقد وجد في يده الآس والملك والغلام
من الأوراق التي تريح، ولكن الورقة التي ألقى بها لتوه هي ورقة الست
بل ورقة الملكة!.

«يا لغاوتي! ملك الأوراق الراحبة! إذَنْ فقد أخذته أنت؟ يا سلية القلط! أتحيين أن تأخذي الآس أيضًا؟ الآس! والغلام!». .

وساد الجميع هرج ومرج، وتشنجت الساحرة، وطارت القبعة فجأة، واندفعت بقوة وارتطمت هي ووجه جدي.

وصاح جدي مستجمعاً أطراف شجاعته، ووضع القبعة على رأسه «لا يكفيني هذا! وتالله إن لم أر جوادي الأصيل يقف أمامي في التواللحة لأرسمن عليكم جميعاً علامة الصليب المقدس، أو تصعقني الصاعقة في هذا المكان الدنس!»، ورفع يده لينجز وعده وإذا بعظام جواده تقعق أمامه!

«هاك جوادك».

وانفجر الرجل المسكين باكياً كالطفل وهو ينظر إلى هذه العظام، وانفطر قلبه أسى على رفيقه العزيز ثم قال: «أعطوني جواداً من أي نوع كان أخرج به من وكركم!»، وفرقع شيطان بسوط، فبرز من تحته جواد كالشهاب، وحلق به جدي في الهواء كأنه الطير.

وتملكه الفزع عندما أخذ الجواد يطوي به الأخاديد والمستنقعات طياً غير عابئ، بصياح أو بلجام، وكانت الأماكن والبقاع التي اجتازها مخوفة مفرعة بعثت الرعدة في أوصاله وهو يذكرها في سياق قصته، وألقى الرجل بنظره إلى ما تحته مرة فازداد خوفاً ورعباً، فقد أبصر هوة، بل هاوية مخيفة! إلا أن الجواد الشيطاني لم يُلقَ إليها بالاً، بل قفز من فوقها لساعته، وحاول جدي أن يوقف الجواد ولكنه لم يستطع، وطار الجواد فوق أصول الأشجار والأكام، ثم انكفأ على وجهه في هوة من

الأرض، وضرب أسفل الهوة بقوة حتى بدا أنه قد أسلم الروح، على أن جدي عجز عن أن يتذكر شيئاً مما وقع له، وما إن أفاق قليلاً حتى تلفت حوله، فوجد النهار يعلوه، ثم لمح بعض الأماكن المألوفة، فتبين له أنه ملقى على سقف كوخه.

ورسم جدي إشارة الصليب وهو يهبط من السقف، ألا ما أغرب الحيل التي يأتي بها الشيطان! لعنة الله عليه! وما أعجب ما يصادف الإنسان من أمور! ونظر إلى يديه فإذا بهما مخضبتان بالدم، ثم نظر في برميل من الماء فإذا بوجهه هو هو لم يتغير، واغتسل جيداً خشية أن يفرع الأطفال منه ثم ولج الكوخ في هدوء، ويا للمنظر الغريب الذي وقع عليه بصره! ذلك أنه رأى الأطفال يتراجعون لائذين في رعب، ثم هتفوا: «انظر! انظر إن أمتنا تقفز كالمجنونة!»، والحق أن زوجته كانت تغط في نومها وهي جالسة أمام مشط الصوف وفي يدها مغزلها، وراحت في نومها تقفز صاعدة هابطة على الأريكة، فتناول جدي يدها برفق وأيقظها قائلاً: «طاب صباحك يا زوجتي، هل أنت بخير؟»، وحملت في المرأة طويلاً، ثم عرفته آخر الأمر وقالت له إنها رأت في نومها أن الموقد كان يمتطي صهوة جواد يدور به حول الكوخ، ويخرج منه بمجرقة القدور والبراميل، وغير ذلك مما لا يعلمه إلا الله.

فقال جدي: «لا بأس عليك، فقد رأيت هذه الرؤيا في منامك، أما أنا فرأيتها في يقظتي، ولا ريب أن الأمر يقتضيني أن أسعى إلى مباركة كوخنا، ولكنني لا أستطيع أن أطيل المكوث هنا بعد».

واستراح جدي قليلاً بعد أن فرغ من قوله هذا، ثم التمس جواداً من

بعض الناس، ومضى في رحلته يواصل الليل بالنهار حتى بلغ غايته، وسلم القيصرة نفسها الخطاب، وهناك شاهد جدي أموراً غاية في العجب، حتى إنه أصبح بعد ذلك بوقت طويل لا يمل من قص قصتها علينا، وراح يروي لنا كيف جاءوا به إلى القصر، وكيف وجدته مرتفعاً ارتفاعاً عجبياً لا تبلغ إليه وإن وضعت عشرة أكواخ بعضها فوق بعض، وكيف نظر في غرفة فلم يجد القيصرة فيها، ثم مد بصره في غرفة ثانية فثالثة بل في رابعة فلم يفز بطائل، ثم وجدها في الغرفة الخامسة تجلس وعلى رأسها تاجها الذهبي، وترتدي ثوباً رمادياً جديداً وحذاء أحمر، وتأكل لقيمات القاضي الذهبية، وكيف أنها أصدرت الأمر بملء قبة إلى الحافة بالأوراق المالية الزرق من ذات خمسة الروبلات، وكيف وكيف.. ولكنني لا أستطيع أن أذكر ذلك كله.

أما عن معاشره جدي للعفاريت؛ فقد نسي الرجل ذلك الأمر، وانقطع تفكيره فيه انقطاعاً تاماً. وإذا اتفق أن ذكره أحد بما وقع له لزم الصمت كأن الأمر لا يعنيه، والحق إنه كان من أشق الأمور أن يقنعه مقنع بأن يروي لنا القصة من أولها إلى آخرها. وكان يحدث لزوجته في الموعد المعهود من كل عام حادث غريب، كأنما كان ذلك عقاباً له على تقاعده عن المبادرة إلى التماس البركة لكوخه بعد أن وقع له ما وقع، ذلك أن زوجته كانت تففز صاعدة هابطة ولا تستطيع لذلك دفعاً ولا رداً، وتنطلق ساقاها على هواهما مهما جاهدت، كأنما كان يدفعها إلى الرقص دافع لا حيلة لها فيه!

الجزء الثاني

مقدمة الجزء الثاني

هاكم الجزء الثاني، وخير لي أن أقول الجزء الأخير! ولم تكن بي رغبة في أن أخرجه إلى الناس، أجل لم أكن أريد أن أخرجه قط؛ ذلك أنه لا يجوز للمرء أن يطيل حتى يثقل، ولا أخفي عليكم أن أهل القرية بدأوا يسخرون مني قائلين: «لقد اختل عقل الرجل العجوز، فراح يتسلى بلعب الأطفال في شيخوخته!»، والحق أنه قد آن لي أن أستريح، ولعلكم أيها القراء الأعزاء تظنون أنني إنما أدعي الكبر، فكيف بي ولم يبق في فمي سن واحدة! وأنا الآن إذا وقعت على شيء لين أحاول أن أمضغه، ولكنني لا أستطيع أمرًا إذا أصبت شيئًا يابسًا.

وهأنذا أدفع إليكم بكتاب آخر! وكل ما أريده، ألا تتناولوني باللوم، فليس اللوم من شيمة الكرام عند الفراق، فما بالك إذا جهلوا متى يكون اللقاء، وما يعلمه إلا الله؟ وستجدون في هذا الكتاب قصصًا رواها قوم لا تعرفونهم على الإطلاق، اللهم إلا إذا كنتم تعرفون منهم فوما جريجوريفتش الذي لم يلم بهذه الناحية

منذ وقت طويل، أجل ذلك السيد الذي كان يرتدي سترة في لون البازلاء، ويتحدث بتلك اللغة الفصيحة التي كانت تند عن أفهام كثير من ذوي العقول الراجحة بمن فيهم أهل موسكو أنفسهم. إنه لم يزرنا منذ تشاجرنا جميعاً، وإني لأحسب أنني لم أحدثكم بأمر هذا الشجار أم ترونني حدثتكم به، لقد كان مهزلة ولا شك.

فقد حل بي في يوم من أيام الصيف الماضي ضيوف جاءوا لزيارتي، وكان ذلك على ما أظن في عيد القديس شفيغي. ولا أخفيكم أيها القراء الأعزاء أن جيراني، متعهم الله بالصحة والعافية، لا ينسون الرجل العجوز. لقد انقضى خمسون عاماً منذ بدأت أحتفل بعيد القديس شفيغي، أما عمري، فلا أنا ولا زوجتي العجوز نستطيع أن نحده، ولا شك أنه نحو السبعين. أما الذي يعلم تاريخ مولدي فهو الأب خارلمبي، القسيس الذي كان في ديكانكا، على أنه يؤسفني أن أقول إنه توفي منذ خمسين عاماً. إذن فقد حل بي ضيوف جاءوا لزيارتي وهم زخار كيريلوفتش شوخو بوبنكو، وستيفان إيفانوفتش كوروشكا، وتاراس إيفانوفتش سماتشنكي، ومساعد القاضي خارلمبي كيريلوفتش خلوسطا، وكان بينهم زائر آخر نسيت اسمه.. أوسيب.. أوسيب.. تالله إن كل من في ميرجورود يعرفه! فإنه ما إن يبدأ في الكلام حتى يفرقع بأصابعه ويضع ذراعيه في خاصرتيه، ولكن دعونا من هذا! ولأذكرن اسمه حالاً. وجاء أيضاً ذلك السيد البلتاوي الذي سبق أن عرفت أمره. أما فوما جريجوريفتش فلم أدخله في عداد الضيوف لأنه واحد منا.

وراح كل من الحاضرين يتحدث، ولا أخفيكم أننا لا نتحدث أبدًا في توافه الأمور؛ ذلك أنني دائمًا أحب الحديث اللائق الظريف حتى أجمع بين المتعة والمنفعة كما يقولون، وكان حديثنا يدور حول تحليل التفاح، وقالت زوجتي: إن التفاح يجب أن يُغسل أولاً غسلاً جيداً، ثم ينقع في الجعة الخفيفة، ثم..

وهب السيد البلتاوي يقاطعها وهو يضرب يده في جيب سترته التي في لون البازلاء ويذرع الغرفة في رصانة ووقار: «لا غناء في ذلك كله على الإطلاق! بل يجب أولاً أن تذري حشيشة الدود على التفاح ثم..» ولكنني أسألكم أيها القراء الأعزاء: «هل سمعتم بتفاح يذر بحشيشة الدود؟ إن الناس قد يستعملون أوراق الزيب الأسود وعشب الخنزير والهندقون، أما أن يضاف على التفاح حشيشة الدود فشيء لم أسمع به من قبل، وإنني لأحسب أنه ما من أحد يعرف في هذه الشؤون أكثر مما تعرف زوجتي، ولكن هذا هو ما حدث!». وانتحيت بالرجل جانباً في هدوء كما يفعل الجار الطيب وقلت له: «علي رسلك يا مقار نازاروفتش، ولكن لا تجعل الناس يضحكون منك! فإنك رجل ذو شأن، وقد تناولت عشاءك على المائدة التي تناول عليها المحافظ عشاءه على حد قولك أنت نفسك، ولئن قلت شيئاً من هذا القبيل جعلت القوم جميعاً يسخرون منك!». فكيف كان جوابه فيما تظنون؟ إنه لم يُحرّ جواباً! بل بصق على الأرض، وتناول قبعته ثم مضى. لقد كان خليقاً به أن يلقي بكلمة وداع إلى إنسان، أو يومئ إلينا برأسه إيماءة واحدة، ولكن كل ما سمعناه هو

صوت عربته بجرسها المثبت فوقها، ثم وقفت عند الباب فركبها
وسارت به، ثم.. مع السلامة أيضًا!

ذلك أننا لا نريد ضيوفًا على شاكلته، ولا أجد مفترًا أيها القراء
الأعزاء من أن أقول لكم إنه ليس في هذا العالم أسوأ من أولئك
الناس الذين ينتمون إلى الطبقة العليا. إن الرجل يشمخ بأنفه على
كل إنسان؛ لأن عمه كان مأمورًا في يوم من الأيام، كأنما لا يوجد
في العالم طبقة أعلى من طبقة المأمور! ولا شك أن من الناس من
هم أعظم من المأمير. كلا! إنني لا أحب أولئك الناس الذين ينتمون
إلى الطبقة العليا، ولكن مثلًا فوما جريجوريفتش، فهو ليس من هذه
الطبقة، ولكن انظروا إليه، إن وجهه ينم عن العزة والكرامة في هدوء
ووقار، ولا يسمعك إلا أن تحبه وتحترمه، حتى حين يصيب قدرًا من
السعوط المألوف. ويعجز القلم عن وصف ما يبلغه صوته من أثر
في النفس عندما ينشد مع فرقة المرنمين في الكنيسة، إن قلوبكم
لخليقة بأن تذوب ذوبانًا عند سماعكم هذا الصوت! على حين أن
الرجل الآخر، ولكن دعونا منه، فإنه يظن ألا غنى لنا عن قصصه،
ولا عليكم فهاكم كتابًا عن القصص لا شأن له به.

وإنني لأذكر أنني كنت قد وعدتكم بأن أضمن هذا الكتاب
قصتي أنا أيضًا، وقد صح عزمي على أن أدخلها فيه فعلاً، إلا أنني
وجدت أنها سوف تقتضي ثلثة كتب من هذا الحجم على الأقل،
فاستقر رأيي على أن أطبعها على حدة، وقد فكرت في الأمر مليًا،
فإنني قد خبرتكم، ولو أنني فعلت هذا لسخرتم من الرجل العجوز،

كلا! لن أطبعها! ووداعاً وليمضين وقت طويل قبل أن نلتقي مرة
أخرى إذا قُدِّرَ لنا أن نلتقي، ولكنكم لم تعبئوا بهذا، بل لن تعبئوا
بوجودي أبداً، ولسوف تتوالى الأعوام عاماً إثر عام، ولن يذكر
أحدكم مربى النحل العجوز أو يحزن عليه!

بانكوا الأحمر الشعر

ليلة عيد الميلاد

انقضى آخر يوم قبل عيد الميلاد، وأسدل الظلام ستاره، وحلت ليلة من ليالي الشتاء صافية الأديم، وبصبغت النجوم، وطلع القمر مهيباً جليلاً يظل بنوره أهل الصلاح، بل يظل القوم جميعاً حتى ينعم الكل بإنشاد أناشيد الكولياكي^(١) ويسبحون بحمد الله، وأخذ الصقيع يشتد عما كان في الصباح، وازداد السكوت شمولاً، حتى كان صوت الجليد يترامى إلى الأسماع وهو يقرقع تحت وطء الحذاء على بعد نصف ميل، ولم تك قد ظهرت بعد جماعة واحدة من جماعات الفتيان تحت النوافذ، وإنما كان القمر يختلس النظر إليهم كأنما يهيب بالفتيات اللواتي كن يرتدين أعلى ما عندهن من ثياب، أن يعجلن ويركضن على

(١) من عاداتنا أن ننشد تحت النوافذ ليلة عيد الميلاد أناشيد تسمى «كولياكي»، وتلقى ربة البيت أو ربة أي شخص بقي فيه من أهل الدار، في كيس المنشد دائماً بعض السحق أو الخبز إن كان ثمة شخص غيبي يقال له كولياذا فحسبه الناس إلهاً، ومن ثم نسبت هذه الأناشيد إليه، ومن يدري؟ لعله لا يجوز لقوم بسطاء من أمثالنا أن يدلوا برأيهم في موضوع كهذا، وقد حرم الأب أوسيب على الناس في العام الماضي أن ينشدوا الكولياكي في المزارع قائلاً: إنهم إنما يجدون الشيطان بفعالهم هذا، مع أن هذه الأناشيد قد خلت من كلمة واحدة تشير إلى كولياذا، وهي تدور في كثير من الأحيان حول مولد المسيح، ثم يتمنى القوم في نهايتها الصحة السابعة لرب البيت وربته وأطفالهما وأفراد الأسرة جميعاً. «تعليق مربي النحل».

الجليد المقعق، وانبعث الدخان في تلك اللحظة يرتفع حلقات من مدخنة كوخ ويسبح كالسحاب في أجواز الفضاء، وارتفعت في الجو مع الدخان ساحرة تمتطي مكنسة.

ولو أن مساعد القاضي في بلدة سورتشينستي قد برز ببقعته التي حليت أطرافها بجلد الشاة وسويت على طراز قبعة الأوغلان^(١)، ومعطفه الأزرق القاتم المبطن بفراء أستراخان الأسود، ومر في تلك اللحظة بعربته المشدودة إلى جياده الثلاثة المستأجرة وسوطه المجدول جدلاً جهنمياً الذي ألف أن يستحث به حوزيه، لرآها بلا شك؛ ذلك أنه ما من ساحرة في العالم تستطيع أن تفلت من عين مساعد قاضي سورتشينستي، فهو يستطيع أن يعد على أصابعه عدد ما وضعت خنزيرة كل فلاح من صغار، ومقدار ما تحتفظ به في صندوقها من كتان، وأي ثوب من أثوابهم أو متاع من أمتعة المنزل يرهنه القوم الصالحون في الحانة يوم الأحد، ولكن مساعد قاضي سورتشينستي لم يمر بهذا المكان في عربته، وأي شأن له فيه حتى يمر؟ لقد كان حسبه أن يُعنى بشؤون ناحيته.

ولم تلبث الساحرة في هذه الأثناء أن شقت أجواز الفضاء حتى غدت نقطة سوداء صغيرة في كبد السماء، وكلما ظهرت هذه النقطة السوداء اختفت النجوم واحداً في أثر آخر، وسرعان ما جمعت الساحرة منها ملء ردها، وبقي من النجوم ثلاثة أو أربعة ظلت تتألق، ثم ظهرت فجأة نقطة صغيرة أخرى من مكان آخر، وأخذت تكبر وتكبر ثم تستطيل

(١) الأوغلان هم رجال الحرس من التتر.

وتستطيل، فلم تعد نقطة فحسب، وما كان لشخص قصير النظر أن يعرف قط ما الذي صارت إليه ولو وضع على أنفه عجلتي عربة المأمور بدلاً من النظارات. لقد كان الشكل الذي انتهت إليه يبدو من الأمان كالألماني القح^(١)، وكان وجهه الصغير الطويل، الذي راح يتلوى ويتلفت ويتشمم كل شيء في إلحاح لا ينقطع، ينتهي بزر كالزر الذي ينتهي به خطم خنازيرنا، وبلغت ساقاه من النحافة مبلغاً لو قُدِّرَ لشيخ قرية باريسكي أن يكون له مثلهما لكسرهما ولا شك في أول رقصة قوزاقية يؤديها، أما من الخلف فقد بدا في نظر الناس جميعاً وكيلاً للنيابة في زيه الرسمي، فقد كان له ذيل طويل مستدق الطرف كالسترات الرسمية في هذه الأيام، وإنما كانت لحية التيس التي في أسفل ذقنه والقرنان الصغيران البارزان في جبهته ولونه الذي لا يزيد في بياضه عن لون كناس المداخن، أجل كان ذلك كله هو الذي يجعل المرء ينكر أنه كان ألمانياً أو وكيلاً لنيابة ناحية من النواحي، ويجزم أنه من الشيطان. وقد بقيت له ليلة واحدة فحسب يطوف فيها بهذا العالم الفسيح ليقود القوم الصالحين إلى المعصية، ولكن ما إن ينبج الصبح، وتدق الأجراس دقاتها الأولى تدعو الناس إلى صلاة الفجر، حتى يضع ذيله بين ساقيه ويمضي إلى وكره لا يلوي على شيء.

واسترق الشيطان الحُطى في هذه الأثناء صاعداً إلى القمر. ومد يده ليمسك به، ولكنه استردها بسرعة كأنما لسعه القمر بحرارته، ومص

(١) لقد اصطالحنا على أن نطلق على أي شخص قادم من بلد أجنبي اسم الألماني. فهو ألماني عندنا حتى لو كان فرنسياً أو منغارياً أو سويدياً. (المؤلف).

أصابه، وراح يرقص هنا وهناك، ثم طار ملتفًا به من الجانب الآخر، ثم انقلب مرة أخرى وقد رد يده، إلا إن الشيطان الخبيث لم يكف عن ألأعيه بالرغم مما أصابه من خيبة فوق خيبة، فقط طار مصعدًا وأمسك بالقمر فجأة بكلتا يديه، وراح يقذف به بيد ليلقاه بالأخرى وهو يقطب حاجبيه وينفخ فيهما كما يفعل الفلاح إذ يلتقط جذوة نار لغليونه بأصابه المجردة، ولم يلبث أن وضعه في جيبه آخر الأمر، ومضى في طريقه كأن لم يحدث شيء ألبته.

ولم يلحظ أحد من أهل ديكانكا أن الشيطان قد سرق القمر، صحيح أن كاتب الناحية رأى القمر، وهو يخرج من الحانة يدب على أربع، يتراقص في السماء لغير ما سبب، وأقسم على ذلك للقرية بأسرها، ولكن الناس هزوا رؤوسهم بل سخروا منه. ترى ما الذي دعا الشيطان إلى أن يسلك هذا المسلك الشائن؟ لقد دعاه إلى ذلك أنه علم أن القندلفت كان قد دعا شوب القوزاقي الثري إلى وليمة عشاء من العصيدة يرتدي فيها قريب من أقرباء القندلفت، يعمل مع فرقة المرنمين التابعة للأسقف، ستره زرقاء قاتمة ويستطيع أن يؤدي أغلظ القرارات من النغم، وقد دُعِيَ إلى هذه الوليمة أيضًا شيخ القرية وسفير بيجوز القوزاقي وغيرهما، وأُعد العشاء بحيث يشتمل على الفودكا المطيية والفودكا المعالجة بالزعفران، وأطايب المأكولات من كل لون، فضلًا عن عصيدة عيد الميلاد، ولسوف تترك ابنته وهي فاتنة القرية، وحيدة في المنزل في أثناء ذلك.

ولم يك ثمة شك في أن الحداد، ذلك الفتى الوسيم العظيم القوة

سيزورها، وكان الشيطان يكرهه أكثر مما يكره عظام الأب كوندرات. وكان الحداد يصرف أوقات فراغه في النقش، حتى عده الناس أبرع الفنانين في الناحية، ولا أدل على ذلك من أن الضابط القوزاقي ب-كو الذي كان لا يزال على قيد الحياة في تلك الأيام، قد أرسل في طلبه من بلتاوة خصيصًا لينقش له السور الذي يحيط بمنزله، وكانت جميع الطاسات التي يتناول فيها قوزاق ديكانكا عشاءهم من الحساء من نقش ذلك الحداد.

لقد كان رجلًا يخشى الله وكثيرًا ما نقش الأيقونات، بل إنك لترى حتى اليوم الصورة التي صنعها للوقا الإنجيلي في كنيسة ت، ولكن أروع آثاره هي الصورة التي رسمها على جدار الكنيسة في الهيكل الذي إلى اليمين، وقد صور فيها بطرس الرسول يطرد الشيطان من جهنم يوم الحساب، وتملك الشيطان الفزع وهو يتكهن بمصيره، فأخذ يجري على غير هدى، على حين شرع أهل المعصية الذين أطلق سراحهم يطاردونه، ويضربونه بالسياط وقطع الخشب وكل ما يقع في أيديهم. وبينما كان الفنان يصنع هذه الصورة ويرسمها على لوح كبير من الخشب، راح الشيطان يبذل كل ما في وسعه ليعوقه عن عمله، فلكزه في ذراعه خفية ونفخ بعض الرماد من الكور إلى دكان الحداد ونثره على الصورة، إلا أن الحداد أنجز الصورة بالرغم من ذلك، ثم حُملت إلى الكنيسة، ورُكبت في جدار الهيكل الجانبي، فأقسم الشيطان ليتقمن من الحداد.

ولم تك قد بقيت للشيطان إلا ليلة واحدة يجوس فيها خلال الأرض، وكان يبحث عن وسيلة يصب بها جام غضبه على الحداد في

تلك الليلة، ولذلك صبح عزمه على سرقة القمر مقدراً أن شوب العجوز كان بليداً بطيء الحركة وأن كوخ القندلفت كان بعيد الشقة. وكان الطريق يمر بالطواحين وبالمقبرة التي في خارج القرية ويلتف حول أهدود، وكانت الفودكا المطيبة والفودكا المعالجة بالزعفران خليقتين بإغراء شوب إذا كانت الليلة مقمرة، أما إذا كانت ليلة حالكة الظلام كهذه الليلة، فقد كان من المشكوك فيه أن يستطيع إنسان جره من أريكة الموقد وإخراجه من الكوخ، وما كان الحداد الذي ساءت علاقته به منذ وقت طويل، ليجرؤ مهما كانت الحال، ومهما بلغ من قوته، على زيارة الابنة وأبوها مقيم في المنزل.

وهكذا كان، فما إن أخفى الشيطان القمر في جيبه حتى ساد الظلام العالم كله فجأة، فتعذر على أي امرئ أن يشق طريقه إلى الحانة، فما بالك إذا كان مقصده هو كوخ القندلفت. وأطلقت الساحرة صرخة عندما وجدت نفسها في الظلام فجأة وهرع إليها الشيطان، وهو يكثر لها من الانحناء والابتسام، وأمسك بذراعها وأخذ يهمس في أذنها بتلك العبارات التي ألف الرجال أن يهمسوا بها في آذان النساء جميعاً. ألا ما أعجب تدبير الأمور في عالمنا هذا! إن كل من يعيشون فيه يحاولون دائماً أن يقلد بعضهم بعضاً كأنهم القردة! لقد كان القاضي والعمدة في الأيام الخالية هما الوحيدان من أهل ميرجورود اللذان ألفا ارتداء معاطف من النسيج مبطنه بجلد الماعز في الشتاء، على حين كان صغار الموظفين يرتدون جلد الماعز العادي.

أما اليوم فإن مساعد القاضي وملاحظ الأراضي قد اكتسب

بالمعاطف الجديدة المصنوعة من النسيج والمبطنة بفراء أستراخان. وقد اشترى كاتب المركز وكاتب الناحية في العام الأسبق جلد بط أزرق قاتمًا ودفعًا في الiardة منه ستين كوبكًا، واكتسى سادن الكنيسة بسرّوال صيفي من النسيج المعروف باسم «نانكين»، وصديري مخطط من الصوف المغزول.

وصفوة القول أن كل إنسان كان يحاول أن يكون صاحب شأن، واعجبًا! متى يكف الناس عن الغرور؟ إني لعلّى استعداد أن أراهن بأن كثيرًا منهم تتتابهم الدهشة إذا هم رأوا الشيطان يسلك هذا المسلك. ومما تضيق له النفس أشد الضيق أنه يخال نفسه بلا شك فتىً وسيماً بالرغم من أن منظره مشين معيب، أما وجهه فأشنع من الشناعة كما يقول فوما جريجوريفتش، ومع ذلك فهو يصطنع الظرف والرقّة! إلا أن الظلام كان قد أسدل ستاره على السماء وما تحت السماء، فعز على الأنظار أن ترى ما وقع بين الشيطان والساحرة من بعد!

ووجه شوب القوزاقي، وهو يخرج من باب كوخه، سؤالاً إلى فلاح طويل القامة نحيل يرتدي جلد ماعز قصيراً: «إذن فإنك لم تذهب لزيارة القندلفت في كوخه الجديد يا صاح؟». وبدا على لحية الفلاح الكثة أنه لم تمسسها، منذ أسبوعين على الأقل، قطعة مكسورة من منجل ألف الفلاحون أن يحلقوا بها لحاهم لافتقارهم إلى موسى، ومضى شوب يقول وهو يبتسم ابتسامة كشف بها عن نواجذه: «لتكونن سكرة طيبة هناك الليلة، وأرجو ألا نكون قد تأخرنا!».

وشرع شوب في إصلاح شأن الحزام الذي كان يطوق به في إحكام

جلد الماعز الذي كان يرتديه، وأحكم القبعة على رأسه وأمسك بسوطه الذي كانت ترتعد منه الكلاب المزعجة، ولكنه رنا ببصره إلى السماء ثم توقف.

«يا للشيطان! انظر، انظر يا باناس!».

وسأله صديقه وهو يرنو ببصره أيضًا إلى السماء: «ما الخبر؟».

«ما الخبر، عجبًا! ليس ثمة قمر!».

«يا له من أمر مزعج! ليس ثمة قمر حقًا!».

وقال شوب وقد نمت لهجته عن شيء من الضيق لما أظهره صديقه من عدم اكتراث يتسم بالهدوء والرزانة: «صدقت كل الصدق! فليس ثمة قمر! ولا شك عندي أنك لا تحفل بالأمر!».

«وي! وماذا أستطيع أن أفعل؟».

واسترسل شوب يقول وهو يمسخ شاربه بردنه: «لا شك أن شيطانًا تدخل في الأمر. ألا فليحرم هذا الكلب حرمانًا حتى لا يجد قدحًا يصيبه من الفودكا صباحًا! لعمرى، كأنه يريد أن يسخر منا! لقد كنت أجلس داخل الكوخ ثم تطلعت من النافذة، فوجدت الليل غاية في السحر والفتنة! كان الضوء يفيض والجليد يتألق في ضوء القمر، حتى لترى كل شيء كأنك في وضوح النهار، وهأنذا لا أستطيع، ولما أبارح باب الكوخ، أن أرى يدي وهي مبسوطة أمامي!».

وراح شوب يدمدم ويلقي باللوم وقتًا طويلًا، إلا أنه كان في الوقت نفسه يفكر فيما عساه أن يصنع. لقد كان يتوق إلى الثرثرة بلغو الحديث

على جميع أشكاله وضروبه في كوخ القندلفت، حيث كان شيخ القرية ولا شك جالسًا الآن، هو وذلك المنشد الجهير الصوت وميكيتا تاجر القطران الذي ألف أن يقصد مرة كل أسبوعين سوق بلتاوة ويلقي من المُلح والنكات ما تشق له جنوب القرويين جميعًا من الضحك، وكان شوب يرى بعين الخيال الفودكا المطيبة على المائدة، وفي هذا من الإغراء ما فيه، ولكن حلقة الليل ذكرته بحلاوة الكسل الذي يميل إليه كل قوزاقي من كل قلبه. ألا ما أمتع أن يستلقي الآن على أريكة الموقد، وقد طوى ساقيه تحته، وأخذ يدخن غليونيه في هدوء منصتًا في نشوة النعاس اللذيذ إلى الأغاني والكوليادكي التي ينشدها فتیان وفتيات فاضت قلوبهم بالبشر، والتأم شملهم جماعات تحت النوافذ! ولو كان وحده لاستقر رأيه ولا شك على هذا المسلك، أما وهما اثنان معًا فلم يكن التماس الطريق في ظلمة الليل بالأمر الذي يدعو إلى كل هذا الخوف والفرع، زد على ذلك أنه كان لا يحب أن يظهر بمظهر الكسول أو الجبان في أعين الآخرين، وما إن فرغ من اللوم حتى التفت إلى صديقه قائلاً:

«إذن فليس ثمة قمر يا صاح؟».

«أجل».

«ما أعجب هذا حقًا! اسمح لي بنشقة من السعوط، فإن سعوطك

لرائع يا صاح، من أين لك به؟».

فأجاب صديقه وهو يغلق صندوق السعوط المصنوع من لحاء شجر البتولا والمُحلى ببعض الرسوم البارزة: «أرائع هو حقًا؟ عجبًا!

إنه لا يحمل دجاجة عجوزاً على العطس!».

فقال شوب: «أذكر أن زوزوليا صاحب الحانة أتى لي ببعض السعوط من نزين، آه، لقد كان سعوطاً بحق! أجل كان سعوطاً طيباً! والآن ما رأيك يا صاحب؟ إن الظلام حالك كما تعلم».

فأجابه صديقه وهو يمسك بمقبض الباب: «إذن، فخير لنا فيما أظن أن نلزم الدار».

ولو لم يقل صديقه هذا لاستقر رأي شوب ولا شك على أن يلزم الدار، إلا أن شيئاً كان يستحته الآن فيما يظهر على معارضته: «كلا يا صاح فلنذهب! فإنه لا يليق بنا التخلف، بل يجب أن نذهب».

وأحس شوب حتى وهو يقول ما قال، بالغيط من نفسه؛ لأنه أقدم على هذا الفعل، ذلك أنه كان يكره كل الكره أن يخرج في ليلة كهذه، على أنه أحس بالرضا والغبطة، فقد كان هو صاحب القرار ولم يستمع في ذلك لنصح أحد.

وتلفت صديقه حوله، وحك كتفيه بمقبض سوطه، ولم تبد على وجهه أي علامة تدل على الضيق شأن من لا يبالي: «ألزم الدار أم بارحها؟».. وهكذا شرع الصديقان في رحلتها.

ولنر الآن ماذا كان من أمر ابنة شوب الجميلة وهي وحيدة في كوخها. لقد كان الناس جميعاً قبل أن تبلغ أوكسانا السابعة عشرة، لا يكادون يتحدثون إلا عنها سواء في هذا الجانب من ديكانكا أو فيما وراءه، وقد أجمع الفتيان على أن القرية لم تشهد ولن تشهد فتاة

أجمل منها. وكانت أوكسانا تسمع وتعرف كل ما يقال عنها، كما كانت كغيرها من الحسان متقلبة الأهواء، ولو أنها ارتدت من الملابس ما ترتديه السيدات الفاضلات بدلاً من النقبة المخططة والمئزر، ما استطاعت أن تحتفظ قط بخادم. وكان الفتیان يهرعون خلفها زرافات، إلا أن صبرهم كان ينفد، فينصرفون عن هذه الفاتنة العنيدة واحداً بعد واحد، ويتحولون إلى غيرها من الفتيات اللواتي لم يكن في مثل دلالتها، ولم يبق منهم إلا الحداد الذي ظل يلاحقها بغزله، بالرغم من أنها لم تكن تعامله ألبتة خيراً مما تعامل سواه.

وما إن خرج أبوها، حتى قضت أوكسانا وقتاً طويلاً ترتدي أفخر ثيابها، وتزين وتتأنق أمام مرآة صغيرة في إطار من الزنك، إلا إنها لم ترض عن زينتها وحسنها كل الرضا.

وقالت كأنما شرد منها الفكر، فأرادت أن تتحدث إلى نفسها بشيء وحسب: «ما الذي ألقى في روع الناس أن يذيعوا عني أنني جميلة؟ إنهم يكذبون، فلست جميلة على الإطلاق!».

إلا أن الوجه الصبوح الذي انطبع في المرأة، بشبابه النضير البريء وعينه السوداوين المتألفتين، وابتسامته الفاتنة التي تجل عن الوصف وتهز النفس هزاً، كان يناقض ما تزعم في الحال.

ومضت الفتاة تقول وهي لا تزال ممسكة بالمرآة: «أيمكن أن يكون حاجباي السوداوان وعيناي بهذا الجمال الذي لا يُعرف له في العالم مثيل ولا ضريب؟ أي جمال في هذا الأنف المرفوع وفي هذين الخدين وهاتين الشفتين؟ وما بال ضفيري السوداوين؟ أجميلتان هما أيضاً؟

أف! إنهما خليقتان بأن تدخلتا الرعب في قلب المرء إذا جن الليل، فهما تلتويان وتلفتان حول رأسي كأنهما الأفاعي الطويلة، وإني لأرى الآن أنني لست جميلة على الإطلاق!»، ثم أبعدت المرأة قليلاً وصاحت: «أي نعم، إني لجميلة، آه، ما أروع حسني! إن جمالي لعجيب، ولأكونن قرة عين من يتزوجني من الرجال! ولشد ما يعجب بي زوجي! ليستخفنه الطرب، فيقبلني ويقبلني حتى ليزهق مني الأنفاس!».

وهمس الحداد وهو يدخل الكوخ في رفق وهدوء: «يا لها من فتاة عجيبة! ثم ألم ينل منها الغرور شيئاً؟ لقد ظلت واقفة أمام المرأة ساعة لا تستطيع أن تتزع نفسها منها، ولا تكف أيضاً عن إطراء نفسها جهاراً نهاراً!».

ومضت الفتاة الجميلة ذات الدلال قائلة: «أو كفء أنا لكم أيها الفتيان؟ انظروا إليّ وتأملوا رشاقة خطوي! إن قميصي مطرز بالحرير الأحمر، ويا للشرائط التي تزين رأسي! لن تقع عينكم أبداً على أثمن من هذه الشرائط، لقد اشترى لي أبي كل هذا ليزوجني زينة شباب العالم طراً»، ثم قهقهت، والتفتت، فرأت الحداد.

فأطلقت صرخة ووقفت تواجهه ساكنة رابطة الجأش.

وسقطت يدا الحداد إلى جنبه في يأس.

وليس من اليسير أن نصف التعبير الذي لاح على وجه الفتاة الضارب إلى السمرة، لقد كان فيه صرامة تلمح من خلالها لوناً من ألوان السخريّة بالحداد الذي ظهر عليه الارتباك. وشابت وجهها في الوقت نفسه مسحة رقيقة لا تلاحظ من الخجل الدال على الغضب، واختلط هذا

كله، فأكسبها حسناً يجعل عن الوصف، ولا تستطيع حياله إلا أن تمطرها لتوك بفيض من القبلات لا يُحصى ولا يُدرك له عدد.

وأنشأت أوكسانا تقول: «لماذا جئت؟ أتريد مني أن ألقى بك من الباب بمجرقة؟ ما أبرعك في تخير الوقت لزيارتنا! إنك لتتنسم من فورك اللحظة التي يغيب في الآباء عن المنازل. واهًا لك، فإني أعرفك! هل أتممت صنع صندوقي؟».

«لأنجزنه بعد عيد الميلاد يا قرة عيني، آه لو تعلمين مقدار ما أنفقت من جهد في صنعه، إنني لم أبارح الدكان ليلتين، وهيهات أن تحظى ابنة قس بصندوق مثله. إن الحديد الذي طوقته به لأفضل من الحديد الذي وضعته في عربة الضابط عندما كنت أعمل في بلتاوة، ويا للطلاء الجميل الذي سأطليه به! لن تجدي له مثيلاً وإن فتشت في الناحية بأسرها سعيًا على قدميك البيضاء الصغيرتين، ولأنثرن عليه الأزهار الحمر والزرق، فيتوهج توهج النار، فلا تغضبي مني، واسمحي لي على الأقل بأن أحدثك وأن أنظر إليك!».

«لتحدثني وتنظرن إليَّ ما شئت.. فما من أحد يمنعك».

وجلس على الأريكة وتطلعت في المرأة مرة أخرى، وأخذت تصلح شعرها، ونظرت إلى عنقها وإلى قميصها الجديد المطرز بالحرير الأحمر، وتلاأأت شفتها ووجتها الناضرتان بشعور خبيث بالرضا تجلى أثره في عينيها.

وقال الحداد: «اسمحي لي أن أجلس بجوارك».

فقالت أوكسانا، وما زال الشعور نفسه يتلأأ على شفيتها وفي عينيها الراضيتين: «اجلس».

وقال الحداد وقد ازداد جرأة: «ما أروع حسنك! أي أوكسانا الجميلة، اسمحي لي أن أقبلَك!»، وجذبها نحوه وقد اعتزم أن يختلس منها قبلة، ولكن أوكسانا أشاحت عنه بخدها الذي كان قريباً من شفيتها كل القرب، ودفعته بعيداً عنها.

«أو تريد شيئاً آخر؟ لن تنال الشهد حتى تلمس الوسيلة إليه! اغرب عني، فإن يديك أقسى من الحديد، ورائحة الدخان تفوح منك، وإني لأحسب أنك لو ثت جسمي كله بالسناج الذي ينضح منك».

ثم تناولت المرأة، وأخذت تتأمل نفسها فيها مرة أخرى.

وقال الحداد يحدث نفسه وقد مال رأسه: «إنها لا تحبني! وإنما هي تعبث في كل هذا الأمر، على حين أقف أنا أمامها كالأبله لا أستطيع أن أحول عيني عنها، بل أحب أن أقف أمامها دائماً لا أرد عنها بصري أبداً! يا لها من فتاة غريبة الأطوار! وإني لأبذل النفس والنفيس لأعلم ما في قلبها ومن تحب، ولكنها لا تبالي أحداً، وإنما هي تعجب بنفسها. إنها تعذبني أنا المسكين، فينفطر قلبي من الحزن حتى لأجد نفسي في ظلام ليس بعده ظلام. إني أحبها حباً لم يكابده أحد من قبل ولا من بعد».

وقالت أوكسانا: «أصحيح أن أمك ساحرة؟»، ثم ضحكت، وشعر الحداد بأن كل ما فيه يضحك، وبدا له أن هذا الضحك يتردد صدها في قلبه وفي عروقه التي أخذت تختلج اختلاجاً عذباً، إلا أن نفسه كانت

بالرغم من هذا كله قلقته؛ لأنه لم يكن يحق له أن يقبل ذلك الوجه الضاحك البديع.

«وماذا يهمني من أمر أمي؟ إنما أنت أبي وأمي، بل كل ما هو عزيز في هذا العالم، ولو أن القيصر أرسل في طلبي وقال لي: «أيها الحداد فاكولا تمن عليّ أعز ما في مملكتي أعطك إياه - لآمرنهم أن يصنعوا لك كورًا من الذهب تعمل فيه بمطارق من الفضة، أجل لو أن القيصر قال لي هذا لأجبهته: «لست أبالي الأحجار الكريمة أو مملكتك وحسبي أن تهب لي فتاتي أو كسانا».

فقالت أو كسانا وهي تبتسم في مكر ودهاء: «يا لك من فتى! إن أبي ليس أيضًا بالغر الأحق! ولتعلمن هذا عندما يحجم عن الزواج من أمك! ولكن الفتيات لم يحضرن بعد، فما بالهن؟ لقد كان أولى بنا أن نبدأ في إنشاد الكولياكي منذ زمن طويل، فإني قد مللت الانتظار!». «خير لنا أن يناين عنا يا فاتنتي!».

«آه، كلا! وإني لأحسب أن الفتيان سيأتون معهن، فنستطيع أن نلهو ونمرح، وإني لأتخيل القصص التي سوف يروونها!». «إذن ستمرحين معهم؟».

«أجل، وليكونن مرحي معهم أكثر من مرحي معك، آه! إن بعضهم يقرع الباب، ولا بد أنهم الفتيان والفتيات».

وقال الحداد بينه وبين نفسه: «فيم بقائي بعد؟ إنها تسخر مني، ولست عندها بأكثر قيمة من حدوة حصان قديمة علاها الصدا. ولكن

إذا كان الأمر كذلك فلن أدع رجلاً آخر يهزأ بي، فلئن تبين لي أنها تعجب بشخص أكثر مما تعجب بي، لأودبته حتى يبتعد عنها».

ودوت طرقة على الباب وصيحة مجلجلة في الصقيع، تهتف: «افتحي!» فقطعت عليه تأملاته.

وقال الحداد: «انتظروا! وسأفتح الباب»، ثم خرج وقد تملكه الغضب حتى نوى أن يكسر ضلوع أي شخص ألمّ بالباب.

وزاد الصقيع حدة، واشتد البرد في الطبقات العليا من الجو، حتى أخذ الشيطان ينط على ظلف تارة وعلى الظلف الآخر تارة أخرى، وينفخ في قبضتيه محاولاً أن يبعث الدفء في يديه المتجمدتين، وأي عجب في أن يشعر بالبرد وهو الذي ألف أن يجوس في أرجاء الجحيم يوماً بعد يوم، حيث لا تبلغ البرودة، على ما نعرف جميعاً، مبلغ الشتاء عندنا، وحيث يضع قبعته على رأسه ويقف أمام الموقد، كأنه الطاهي الحق، يشوي أهل المعصية مغتبطاً اغتباط الفلاحة وهي تقلي المقائق «السجق» في عيد الميلاد.

وشعرت الساحرة أيضاً ببرودة الجو، ولو أنها كانت ترتدي من الملابس ما يبعث في أوصالها الدفء، فقدفت بذراعيها إلى أعلى ووقفت تمد قدماً من قدميها واتخذت هيئة رجل يسابق الريح على قبقاب التزحلق دون أن تحرك عضلة واحدة من عضلات جسمها، ثم انزلقت في الهواء كأنها تهبط منحدرًا من الثلج، ودخلت مدختها لا تلوي على شيء.

وتبعها الشيطان على هذا النحو نفسه، ولكن هذا المخلوق كان

أخف حركة من أي رجل متعجب يرتدي الجوارب، فلا غرو أنه وقع على عنق خليلته عند قمة المدخنة، ووجد كلاهما نفسه بين القدور في فرن رحب فسيح الأرجاء.

وزحزحت الساحرة باب الفرن خلصة لترى: أدعا ابنها فاكولا بعض الضيوف إلى الكوخ، أم لم يدع؟ ولكنها لم تر أحداً، إلا الأكياس الملقاة على الأرض، فتسللت من الفرن وخلعت عنها معطفها الدافئ وعادت إلى حالتها الطبيعية، وما كان لأحد أن يذهب في القول إلى أنها كانت تمتطي مكينة منذ لحظة.

وكانت أم فاكولا لا تجاوز الأربعين من عمرها، ولم تك بالوسيمة ولا بالدميمة، والحق أن من العسير أن يكون أي مخلوق وسيماً في تلك السن، على أنها كانت بارعة جداً في غواية القوزاق، فلا يمتنع عليها خيرهم استقامة وصلاًحاً «ولا يفوتنا أن نذكر أن هؤلاء القوزاق كانوا لا يحفلون بالجمال كثيراً»، حتى إن شيخ القرية وأوسيب نيكيفوروفتش والقندلفت «عندما تغيب زوجته من الدار بطبيعة الحال»، والقوزاقي كورني شوب والقوزاقي كاسيان سفير بيجوز قد ألفوا زيارتها، ومن آياتها أنها كانت تسوسهم في براعة عجيبة، فلا يدور بخلد أحد أن له منافساً، ولو أن سيّداً أو فلاحاً ممن يخافون الله «كما يصف القوزاق أنفسهم» يطرح على كتفيه دثاراً ذا قلنسوة قد قصد الكنيسة يوم الأحد أو ألمّ بالحانة، ما فاته قط أن يزور سولوخا ويأكل لقيمات القاضي المصنوعة من الجبن والقشدة المتخثرة، ويثرثر في الكوخ الدافئ مع ربه المحدث اللبقة الأنيسة.

وكان القوزاقي يتعمد أن يلف ويدور طويلاً قبل أن يبلغ الحانة، ويسمي هذا «التطلع أثناء الطريق»، وعندما كانت سولوخا تذهب إلى الكنيسة في يوم من أيام الراحة مرتدية النقبات ذات الخطوط الزاهية اللون ومثزراً من القطن، ومتشحة فوق ذلك بدثار أزرق قاتم طُرِّز على ظهره وشي من ذهب، وتتخذ موقفها بالقرب من الجانب الأيمن من فرقة المنشدين، كان القندلفت لا يفوته أن يسعل، وأن يزر عينيه مومئاً إليها في غير فطنة. أما شيخ القرية فكان يسوي شاربه ويلف قنزة رأسه خلف أذنه، ويقول للرجل الذي يجاوره: «آه، هاك امرأة بمعنى الكلمة، بل داهية من الدواهي!»، وكانت سولوخا تنحني لهما، فيظن كل منهما أنها إنما تنحني له وحده.

وما من امرئ مشغوف بأن يدس أنفه في شؤون الناس إلا لاحظ أن سولوخا كانت تعامل القوزاقي شوب معاملة غاية في الكرم واللطف، ذلك أن شوب كان أرمل، تقوم أمام كوخه دائماً ثمانية أكداش من القمح، وتطل رؤوس زوجين من الثيران القوية من مخزن الحبوب المسور إلى جانب الطريق، وتخور الثيران في كل مرة ترى فيها صاحبها الوفية البقرة أو عمها الثور الربل وهو يمر بها، وقد ألف تيس ملتج أن يتسلق إلى السقف ويثغو في صوت أجس كصوت العمدة، زاجراً الديكة الرومية وهي تخطر في الفناء، مدبراً إذا شاهد أعداءه الصبيان الذين جروا على السخريه بلحيته. وكانت صناديق شوب تضم ذخيرة وافرة من الكتان وكثيراً من السترات والمعاطف العتيقة قد طُرِّزت بالمخرمات الذهبية، فقد كانت زوجته مغرمة بالملابس النفيسة، وكانت قطعتان من حديقة

خضرة تزرعان كل عام تبغاً، علاوة على الخشخاش والكرنب وعباد الشمس. وكانت سولوخا تراود نفسها قائلة ألا ضير لو ضمت كل هذا إلى مزرعتها، وراحت بالفعل تضاعف ما تغدقه على شوب العجوز من أفضال ومنن، وهي تفكر فيما تكون عليه مزرعة شوب من نظام حسن عندما تؤول إليها.

وأرادت أن تمنع ابنها فاكولا من مغازلة ابنة شوب والاستيلاء على مزرعته والاستئثار بها، ولو قد تم ذلك لمنعتها على الأرجح من التدخل في أي أمر، فلجأت إلى تلك الحيلة التي تلجأ إليها عادة السيدات في سن الأربعين -وهي أن تثير شوب على الحداد كلما استطاعت إلى ذلك سبيلاً، ولعل هذه الحيل الخبيثة وتلك التدابير التي تنطوي على الدهاء هي التي جعلت العجائز من النساء يرمين بالقول هنا وهناك إذا أفرطن في الشراب بعض الإفراط في اجتماع مرح، بأن سولوخا ساحرة ولا شك، وأن الفتى كيزيا كولو بينكو قد رأى ذيلًا ينبت في ظهرها لا يزيد طوله على طول مغزل الفلاحة، وأنها عبرت الطريق مسرعة منذ وقت قريب يرجع إلى يوم الخميس الماضي متخذة صورة هرة سوداء، وأن خنزيرة قصدت مرة زوجة القس، وصاحت كالديك، ثم وضعت قبعة الأب كوندرات على رأسها، وركضت لا تلوي على شيء.

وقد اتفق أن مر بالمكان تيميش كورو ستيا في حين كانت العجائز يروين هذه الروايات، ولم يفته أن يقص عليهن كيف اتفق له في الصيف، قبل صيام بطرس الرسول تمامًا، أن استلقى لينام في حظيرة البقر مسندًا

رأسه إلى شيء من القش، فرأى بعيني رأسه ساحرة مرسله الشعر لا ترتدي من الملابس إلا قميصًا، وقد شرعت تحلب البقر. وثلت أوصال الرجل وعجز عن الحركة، فقد نال منه الدهول مناله، ولطخت الساحرة شفتيه بشيء كربه جدًا، جعله يبصق اليوم التالي بأسره، إلا أن ذلك كله كان أمرًا تحيط به الشكوك؛ ذلك أن مساعده قاضي سورتشينستي كان هو الوحيد الذي يستطيع أن يري ساحرة من الساحرات، لذلك كان أعيان القوزاق جميعًا يلوحون بأيديهم وهم يسمعون هذه الروايات تلويحًا ينم عن نفاذ الصبر، وقد ألفوا أن يجيبوا على مثل هذه الأقاويل: «إنهن يكذبن، أولئك العاهرات!».

ولما تسللت سولوخوا من الفرن وعادت إلى حالها الطبيعية أخذت ترتب شؤون الدار وتضع كل شيء في مكانه شأن ربة البيت الصالحة، ولكنها لم تلمس الأكياس، وقالت تحدث نفسها: «لقد جاء فاكولا بهذه الأكياس، فعليه أن يخرجها بنفسه»، وفي هذه الأثناء اتفق أن التفت الشيطان وهو يطير مندسًا في المدخنة، فلمح شوب يتأبط ذراع جاره وهما يسيران على مسافة كبيرة من دارهما، فخرج من المدخنة طائرًا وقطع عليهما الطريق، وراح يثير أكوامًا من الجليد المتجمد، فهبت عاصفة ثلجية، وساد البياض الجوى، وكان الجليد يدور بسرعة خلف الصديقين وأمامهما حتى أوشك أن يطمس عيونهما وآذانهما وفمهما، وعاد الشيطان طائرًا إلى المدخنة وهو مقتنع كل الاقتناع بأن شوب سيعود إلى داره بصحبة صديقه، وسيجد الحداد في بيته، ولعله يؤدبه تأديبًا يكفه عن أن يمسك فرشاة الرسم زمنًا طويلًا حتى يمتنع عليه أن

يرسم صوره الهزلية الساخرة.

والحق أنه ما إن بدأت العاصفة الثلجية في الهبوب وأخذت الريح تصك وجهيهما صكًا، حتى تمنى شوب أن لم يشرع في رحلته، ثم شد قبعته المصنوعة من الفراء على رأسه شدًا محكمًا، وراح يصب اللعنات على نفسه وعلى الشيطان وعلى صديقه، غير أن غضبه كان مفتعلًا، ذلك أن هبوب العاصفة الثلجية أفعم قلبه بالسرور، فقد كان لا يزال أمامهما من الطريق ثمانية أمثال ما قطعوه منه حتى يبلغا كوخ القندلفت، فعادا أدراجهما، وكانت الريح تلفح مؤخر رأسيهما، إلا أنهما لم يستطيعا أن يريا شيئًا في غمرة الجليد الذي كان يدور بسرعة.

وقال شوب بعد أن سارا قليلًا: «قف يا صاح! فإني لأحسب أننا ضللنا الطريق، إذ لا أرى أمامي كوخًا واحدًا، يا لها من عاصفة ثلجية! امض قليلًا في ذلك الاتجاه، وانظر إن كنت تستطيع أن تجد الطريق، أما أنا فسأرقب الناحية الأخرى، وما هذا إلا من فعل الشيطان الملعون الذي هبأ لي أن أضرب في هذه العاصفة، لا تنس أن تنادي عندما تجد الطريق، آه، يا لكوم الجليد الذي ألقى به الشيطان في عيني!».

على أن الطريق غاب عن أنظارهما، فقد ابتعد صديق شوب عنه، وأخذ يتخبط على غير هدى منتعلًا حذاءه الطويل، ووقع آخر الأمر على الحالة المعهودة، وسرته هذه اللقية الموفقة حتى نسي كل ما عداها، ونفض الجليد عن ملابسه، ودخل الحانة لتوه، غير عابئٍ مثقال ذرة بصديقه الذي تركه في الخارج. وخيّل إلى شوب في الوقت نفسه أنه قد وجد الطريق، فوقف وصاح بأعلى صوته، إلا أن صديقه لم يظهر،

فاستقر رأيه على أن يسير وحده، ومضى قليلاً فشاهد كوخه تحيط به
أكوام الثلج من كل جانب وتعلو سقفه، وصفق يديه المتجمدتين، ثم
قرع الباب وصاح في لهجة حازمة هاتفاً بابنته أن تفتح له الباب.

وصاح الحداد في تجههم وعبوس وهو يخرج إليه: «فيم مجيئك إلى
هنا؟».

وعرف شوب صوت الحداد فترجع قليلاً، وقال يحدث نفسه: «آه،
إذن فهذا ليس كوكخي، وما كان الحداد ليهبط على كوكخي، على أنني قد
تبينت بعد أن أنعمت النظر أنه ليس بكوكخي الحداد أيضاً. ترى كوكخ من
هذا؟ لقد عرفته! ولم أك قد تبينته بعد! إنه الكوكخ الذي يقيم فيه ليفشكنو
الأعرج الذي تزوج شابة في مقتبل العمر منذ عهد قريب، ذلك أن كوكخه
هو الوحيد الذي يشبه كوكخي، إذن فما الذي جاء بالحداد إلى هنا؟ وي!
لقد جاء يزور زوجة ليفشكنو الشابة! وهذا هو السر في الأمر! مرحى
لقد فهمت الآن!».

وقال الحداد وهو يدنو من شوب وقد ازداد تجهماً وعبوساً: «من
أنت؟ وما الذي يدعوك إلى التسكع على أبواب الناس؟».

وقال شوب يحدث نفسه: «لن أكشف له عن شخصيتي، وإلا
ضربني ابن الخنازير ضرباً موحجاً»، ثم غير صوته وأجابه بقوله: «إنني
أنا أيها الرجل الصالح! لقد جئت أروح عنكم بإنشاد الكولياكي تحت
نوافذكم».

فصاح فاكولا غاضباً: «اذهب إلى الشيطان أنت وأناشيدك، لماذا
تقف هناك؟ أسمعني؟ اغرب عني!».

وكان شوب قد عزم بالفعل على سلوك هذا المسلك الفطن، إلا أن إحساسه بالاضطرار إلى الرضوخ لأوامر الحداد أثار فيه الضيق والحنق، ويظهر أن روحاً شريرة قد لكزت ذراعه وأكرهته على الاعتراض، فقال ملتزمًا الصوت الذي حدثه به أولاً: «لِمَ تصرخ هكذا؟ إنما أريد أن أنشد الكولياكي، وهذا هو كل ما في الأمر!».

«وي! أرى أن الكلام لا يكفيك!»، ولم يلبث شوب أن شعر بضربة موجعة تصيب ذراعه.

فقال وهو يرتد قليلاً: «أرى أنك قد بدأت القتال!».

وصاح الحداد وهو يدفع شوب دفعة أخرى: «اغرب عني! اغرب عني!».

فقال شوب في صوت ينم عن الألم والتبرم والوجل: «ماذا تفعل؟ أرى أنك تقاتل بحرارة، وتضرب أيضًا ضرباً موجعاً».

فقال الحداد: «اغرب عني! اغرب عني!» ثم صفق الباب.

وقال شوب عندما أصبح وحيداً خارج الباب: «انظر كيف يتبخر ويختال! بل حاول أن تدنو منه! يا له من فتى! إنه ليحسن الظن بنفسه! أو تحسب أنني لن أنالك بسطوة القانون؟ كلا يا صاحبي العزيز، فلأذهبن من فوري إلى المأمور، وألقي عليك درساً! ويستوي عندي أن تكون حداداً أو نقاشاً، ولكن لا محيص من أن ألقى نظرة على ظهري وكتفي، فإنني أظن أنه قد شابهما الآن السواد والزرقة. لا شك أن ربيب الشيطان كان يضربني بقوة، ويؤسفني أن الجو بارد يمنعني من أن أخلع معطفي».

صبرًا أيها الحداد الشرير، وليحطمنك الشيطان، أنت ودكانك معك،
ولأحملنك على الرقص! آه، يا للوغد الملعون! ولكنني لا أظن أنه في
داره الآن، بل إنني لأحسب أن الدار قد خلت إلا من سولوخا. إيه، إنها
ليست بعيدة على كل حال، وإنني لمستطيع أن أمضي إليها، ثم إن الجو
ممعن في السوء ولن يفاجئنا أحد، وقد تواتينا الفرصة.. واهًا لي! لقد
اشتد هذا الحداد في ضربتي!».

وحك شوب ظهره ثم سلك طريقًا آخر، وخفف من ألمه بعض
الشيء ما كان يتوقعه من فرص مواتية في لقائه المنتظر لسولوخا،
وأفقدته ذلك الإحساس بالصقيع الذي كان صوت قرعته يُطغي في
جميع الطرق على هدير العاصفة، وكانت ترسم على وجهه من حين
إلى حين سمة كريهة من الرضا، وإن كانت العاصفة الثلجية قد غطت
لحيته وشاربه بزبد من الجليد أخف وقعًا من أي حلاق يمسك بأنف
ضحيته في تجبر واستبداد. ولو لم تكن غاشية الجليد قد أخفت كل
شيء لرأيت شوب يقف بعد ذلك بوقت طويل ويحك ظهره مغمغمًا:
«لقد ضربني الحداد الملعون فأوجع!»، ثم يمضي في طريقه.

وبينما كان المخلوق المتعجب الخفيف الحركة، يطير من المدخنة
بذيله ولحيته التي تحاكي لحية التيس ثم يعود إليها، إذا بالجيب المتدلي
من حمالة إلى جانبه، أجل الجيب الذي كان يضع فيه القمر الذي سرقه،
قد علق بشيء في الموقد فانفتح، وانتهز القمر هذه الفرصة فانطلق من
مدخنة كوخ سولوخا وسيح في سهولة ويسر يشق أجواز الفضاء، وغمر
الضوء كل شيء، كأنما لم تغش الجو عاصفة ثلجية، وتألق الجليد سهلًا

فضيًّا فسيح الأرجاء مرصعًا بنجوم كأنها البلّور، وبدأ أن الصقيع قد خفت برودته، وظهرت الأناشيد، وانبعثت جماعات المنشدين تصدح بالكولياذكي تحت النوافذ لا تكاد تترك كوخًا إلا حيته بالغناء.

وما كان أروع ضوء القمر! وأين القلم الذي يستطيع أن يجد من الكلمات ما يستطيع أن يعبر به عن مقدار ما يملك النفس من سرور في مثل هذه الليلة؟ إذ يختلط المرء بجماعة الفتيات المنشدات الضاحكات ويندمج وسط هؤلاء الفتيان الذين لا يجدون ضربًا من ضروب اللهو والمرح توحى إليهم به هذه الليلة الباسمة المرححة إلا التمسوه. إن الدفء ليسري في الأوصال تحت العباءة السمكية، وتزداد الوجنتان من الصقيع وهجًا فوق وهج، ويغري ذلك الشيطان الخبيث نفسه بالأذى والضرر.

واقتحمت جماعات من الفتيات يحملن الأكياس كوخ شوب، واجتمعت حول أوكسانا، وأصاب أذني الحداد وقر من صياحهن وضحكهن وما كن يروينه من قصص، ورحن يتنافسن في رواية نبأ من الأنباء للغادة الفاتنة وفي إفراغ أكياسهن والمفاخرة بالأرغفة الصغيرة والمقانع «السجق» ولقيمات القاضي المصنوعة من الجبن التي جمعن منها عددًا لا بأس به بإنشادهن الأناشيد، ولاح السرور على وجه أوكسانا، فأخذت تحدث هذه تارة، ثم تحدث تلك تارة أخرى، وتضحك ضحكًا متصلًا لا ينقطع.

وكان الحداد ينظر بعين الحسد والغضب إلى هذا المرح، ويلعن ما أخذ به القوم أنفسهم من إنشاد الكولياذكي، وإن كان هو شخصيًا مولعًا به.

وصاحت الغادة التي استخفها المرح ملتفتة إلى فتاة من الفتيات:
«آه يا أوداركا! إنك ترتدين خُفًّا جديدًا! ما أجمله! وي، وعليه وشي
من ذهب أيضًا! يا لك من فتاة سعيدة يا أوداركا، فقد وهب الله لك
رجلًا يشتري لك كل شيء، أما أنا فأين من يشتري لي مثل هذا الخف
البديع؟».

وقال الحداد: «لا تحزني يا حبة قلبي أوكسانا، فسأتيك بخُفٍّ لم
تحظَ به إلا القليلات».

فقالت أوكسانا وهي ترمقه بنظرة سريعة تنم عن الإباء والاستعلاء:
«أنت؟ بودي أن أعرف من أين تأتي لي بخُفٍّ أَرْضَى بأن انتعله في
قدمي؟ من يدري لعلك توافيني بالخف الذي تنتعله القيصرة نفسها!».
وصاحت الفتيات ضاحكات: «انظرن أي خُفٍّ تُريد؟».

ومضت الفتاة تقول في زهو: «أجل! ولتشهدن عليَّ جميعًا، لو أن
فاكولا الحداد أتى لي بالخف الذي تلبسه القيصرة نفسها، فإنني أعدكن
وعدًا صادقًا بأن أتزوجه في اليوم نفسه!».

وخرجت الفتيات وفي صحبتهن هذه الفتاة الفتاة المتقلبة.

وقال الحداد يحدث نفسه وهو يتبعهن: «اضحكن إذا شئتن! فإني
أسخر من نفسي! ولست أدري ماذا دهاني! إنها لا تحبني -وي! وأي
ضير في هذا؟ كأن العالم قد خلا إلا من أوكسانا، أحمد الله فإن القرية
لحافلة بغيرها من الفتيات الجميلات، وماذا تكون أوكسانا؟ إنها لن
تكون أبدًا ربة بيت صالحة، فهي لا تحسن إلا التأنق، ولأضعن حدًّا لهذا

حقًا، فقد آن لي أن أكف عن السخرية بنفسي!». .

واعترزم الحداد أن يصطنع الحزم، ولكن روحًا شريرة أطلقت في اللحظة نفسها طيف أوكسانا يسبح أمامه، وتمثلت له الفتاة ضاحكة ساخرة وهي تقول: «اثنني بخف القيصرة أيها الحداد أتزوجك!»، فثارت مشاعره كلها، ولم يستطع أن يفكر إلا في أوكسانا.

وانبعثت حشود المترنمين بالكولياكي زمراً من الفتيان والفتيات يسعون مهرولين من شارع إلى شارع. إلا أن الحداد مضى في طريقه لا يرى شيئاً، ولم يشترك في المرح الذي كان يحبه أكثر من أي إنسان آخر. وكان الشيطان في هذه الأثناء يطارح سولوخا الغرام بحرارة، فيقبل يدها في رقة كما يفعل مساعد القاضي حين يقبل يد ابنة القس، ويضع يده على قلبه ويتأوه، ويقول لها في غلظة إنها ما لم ترض بإشباع هواه وتجزيه على إخلاصه الجزاء الحسن هان عليه كل أمر، ومن يدري؟ لعله يلقي بنفسه في الماء ويجعل روحه تنطلق إلى الجحيم لا تلوي على شيء. ولم تكن سولوخا قد بلغت من القسوة هذا المبلغ، ثم إن الشيطان كان كما نعلم يسايرها كل المسائرة، فقد كانت مولعة بأن تحيط بها جمهرة من الناس، ويندر أن تراها بغير صحبة، على أنها كانت تتوقع أن تقضي هذا المساء وحيدة؛ ذلك أن أعيان القرية جميعاً كانوا قد دعوا للاحتفال بليلة عيد الميلاد في كوخ القندلفت، غير أن الأمور جرت على غير ما تشتهي؛ فما إن بدأ الشيطان يلح في طلبه، حتى سمعا فجأة قرعاً على الباب وطرق آذانهما صوت شيخ القرية البدين، وهرعت سولوخا لتفتح الباب، على حين تسلل الشيطان الخفيف الحركة إلى

كيسٍ ملقيٍّ على الأرض.

ونفض شيخ القرية الجليد عن قبعته، وشرب قدحًا من الفودكا من يد سولوخا، ثم أنبأها بأن العاصفة الثلجية قد حالت بينه وبين الذهاب إلى كوخ القندلفت، فلما رأى ضوءًا في كوخها جاء لزيارتها معتزمًا أن يقضي السهرة معها.

وما إن أتم شيخ القرية قوله هذا، حتى سمعا طرقًا على الباب كما سمعا صوت القندلفت.

فهمس الشيخ يقول: «أخفيني في أي مكان، فإنني لا أريد أن ألقى القندلفت الآن».

وفكرت سولوخا لحظة في مكان تستطيع أن تخفي فيه هذا الزائر الضخم الجثة، واختارت آخر الأمر أكبر كيس للفحم، وأفرغت الفحم في برميل، ثم تسلل الشيخ إلى الكيس بشاربه وقبعته وفرائه وكل ما عليه!

ودخل القندلفت الكوخ، وفرك يديه، ثم أخبر سولوخا بأنه لم يحضر حفلته أحد، وما أسعده بأن أتاحت له هذه الفرصة لينعم بزيارتها! أما العاصفة الثلجية فهو لا يخشاها، ثم دنا منها ولمس بأصابعه الطويلة ذراعها العارية البضة، وهو يسعل ويتكلف الابتسام، ثم قال في لهجة تنم عن الدهاء والرضا جميعًا:

«وما هذا الذي حَبَّيْتَه به هنا أي سولوخا الرائعة؟»، وما إن قال هذا، حتى ارتد قليلًا.

فأجابت سولوخا: «ماذا تعني؟ أذراعي يا أوسيب نيكيفوروفتش؟».

فصاح القندلفت وقد سرتة براعة استهلاله كل السرور: «آه! ذراعك، أليس كذلك؟ ها -ها- ها!»، وراح يذرع الغرفة جيئة وذهابًا.

ثم قال مصطنعًا اللهجة نفسها وهو يدنو منها مرة أخرى، ويلمس عنقها لمسًا خفيفًا، ويرتد مرة ثانية كما فعل في المرة الأولى: «وهذا أي سولوخا يا حبة القلب؟».

فأجابت سولوخا: «ماذا تعني؟ أذراعي يا أوسيب نيكيفوروفتش؟ إنه عنقي وقلادتي!».

«آه! قلادتك، ها -ها- ها!»، وراح القندلفت يذرع الغرفة مرة أخرى وهو يفرك يديه.

«وهذا أي سولوخا يا زينة النساء؟»، ولم يك يدري أحد ما الذي اعتزم القندلفت أن يلمسه بعد ذلك بأصابعه الطويلة لو لم يسمعا فجأة قرعًا على الباب وصوت شوب القوزاقي.

وصاح القندلفت في فزع: «يا إلهي! فضولي! ماذا يكون من أمر رجل في مكاني لو ضُبطَ هنا! تالله ليلغن ذلك مسامع الأب كوندرات!».

إلا أن مخاوف القندلفت كانت، في حقيقة الأمر، متجهة إلى ناحية أخرى، فقد كان أخشى ما يخشاه أن يتصل نبأ أفعاله بمسامع شريكة حياته التي نحلت يدها القاسية قفاه الكث أو كادت.

فقال وقد ارتعدت أوصاله جميعًا: «بالله عليك أي سولوخا الطاهرة النقية! إن شفقتك الحانية كما يقول إنجيل لوقا الإصحاح

الثالث و.. أو اه يا عزيزتي إن شخصًا يقرع الباب، أجل إن شخصًا يقرع الباب! أخفيني في مكان ما!». .

وقلبت سولوخا الفحم من كيس آخر، وتسلسل إليه القندلفت، ولم يك ضخم الجثة، واستقر في صميم قاعه حتى كان من اليسير أن تهيل عليه ملء نصف غرارة من الفحم.

وقال شوب وهو يدخل الكوخ: «طاب مساؤك يا سولوخا! لقد جئت على غير انتظار، أليس كذلك؟ وما كنت تتوقعين قدومي، أو كنت تتوقعينه؟»، ومضى شوب يقول، وقد انشرح صدره وعلى وجهه تعبير له مغزى يوحي بأن عقله البليد كان يعمل متأهبًا لإلقاء ملحمة ساخرة مسلية: «لعلي تطفلت عليك، أو لعلك كنت تستضيفين شخصًا هنا، أو لعلك أخفيت أحدًا في هذا المكان، إيه!»، وضحك شوب وقد فتنته ملاحظته هذه، إلا أنه كان يحس في قرارة نفسه بالانتصار، فقد ظن أنه هو الرجل الوحيد الذي سوف يحظى برعاية سولوخا.. «والآن يا سولوخا عليّ بكأس من الفودكا التو واللحظة، فإني لأحسب أن حلقي قد تجمد وجف بفعل هذا الصقيع الملعون، يا للجو الذي ساقه الله إلينا في ليلة عيد الميلاد هذه! ويا لها من عاصفة ثلجية يا سولوخا! آه، لقد تجمدت يداي، فلا أستطيع فك أزرار جلد الماعز الذي أرتيه يا لها من عاصفة ثلجية!». .

ودوى صوت في الشارع يهتف: «افتحي الباب!»، وصحبته طريقة على الباب.

فقال شوب وقد توقف عن الحركة: «إن شخصًا يقرع الباب».

ودوى الصوت وقد ازداد علوًّا: «افتحي!».

فصاح شوب وهو يتناول قبعته: «إنه الحداد، هلا تخفيني يا سولوخا حيث شئت! فما من شيء في العالم يغريني بأن أظهر أمام ابن الخنازير الملعون هذا! إلا فليبله الله بثؤلول ككومة القش تحت كل عين من عينيه ابن الشيطان هذا!».

وانتاب الفزع سولوخا نفسها، فأخذت تجري هنا وهناك كالمتخبط المسلوب اللب، ونسيت ما كانت تنوي القيام به، ثم أشارت إلى شوب بأن يندس في الكيس الذي كان القندلفت يجلس مخبئًا فيه بالفعل، ولم يجرؤ القندلفت المسكين أن يفصح عن آلامه بالسعال أو التأوه حين استوى القوزاقي الثقيل فوق رأسه أو كاد، ووضع كل فردة من فردي حذائه المتجمد على جانب وجهه.

ودخل الحداد الكوخ دون أن ينطق بكلمة واحدة أو يخلع قبعته، وهوى على الأريكة أو كاد، وقد لاح للأنظار أنه نائر منفعل إلى أقصى حد.

وما إن همت سولوخا بإغلاق الباب وراءه، حتى طرق طارق الباب مرة أخرى، وكان الطارق هو القوزاقي سفير بيجوز، ولم يكن من المستطاع إخفاء الرجل في كيس، فقد خلا المكان كله من كيس كبير يسع هذا الرجل الذي كان أضخم من شيخ القرية وأطول من باناس جار شوب، فقاده سولوخا إلى حديقة الخضر لتسمع منه كل ما كان يريد أن يقصه عليها.

وأخذ الحداد يقلب الطرف شارد الفكر في أنحاء كوخه، منصتاً بين الفينة والفينة إلى أصوات المنشدين تنساب بعيداً مجتازة القرية، واستقرت عيناه آخر الأمر على الأكياس: «ما بال هذه الأكياس ملقاة هنا؟ لقد كان من الواجب أن تنقل من هذا المكان منذ وقت طويل، لقد سلب هذا الحب الطائش مني اللب، وجعلني كالأبله سواء بسواء، فإن غداً لعيد الميلاد، ولا تزال النفايات من كل نوع باقية في الكوخ، لأنقلنها إلى الدكان!».

وانحنى الحداد من فوره على الأكياس الضخمة وربطها ربطاً محكمًا وتأهب لرفعها على كتفيها، على أن فكره كان قد شرد فيما يظهر، ولا يعلم إلا الله أين شرد، ولا سمع كيف راح شوب يلهث عندما التف بشعر رأسه الخيط الذي كان الكيس مربوطاً به، وكيف شرع شيخ القرية البدين في الفواق بصوت واضح كل الوضوح.

وكان الحداد يقول: «أما من حيلة تخرج أو كسانا الشقية من رأسي؟ لا أريد أن أفكر فيها، ولكني لا أنقطع عن التفكير فيها، ويشاء الحظ ألا أفكر إلا فيها، ترى ما بال الأفكار تتسلل إلى رأسي بالرغم مني؟ يا للجنة! يخيل إليّ أن الأكياس قد ازدادت ثقلًا عما كانت عليه، ولا شك أن شيئاً آخر غير الفحم قد وضع فيها، يا لي من أحقق لقد نسيت أن كل شيء يبدو لي الآن أثقل مما كان، وكنت في سالف الأيام أستطيع أن أثني قطعة نحاسية من النقود أو حدود حصان بيد واحدة، أما الآن فلا أستطيع أن أرفع بعض أكياس الفحم، ولعل الريح تحملني من بعد»، ثم صاح مستجمعاً أطراف شجاعته بعد أن سكت لحظة: «كلا! لست

جبانًا! لن أدع مخلوقًا يسخر مني! لو أن أمامي عشرة أكياس كهذه لرفعتها جميعًا»، ورفع بخفة الكيسين اللذين كان ينوء بحملهما رجلان قويان ووضعهما على كتفيه، ثم مضى يقول وهو يتناول الكيس الصغير الذي انكمش الشيطان قابلاً فيه: «لأحملن هذا أيضًا، فإنني لأحسب أنني وضعت فيه أدواتي»، وما إن فرغ من قوله هذا، حتى غادر الكوخ وهو يصفر لحن الأغنية: «لن تطيب لي الحياة مع أي زوجة!».

وأخذ الغناء والضحك والصياح يعلو ثم يعلو في طرقات القرية، وزاد القادمون من القرى المجاورة في جماهير القوم المتزاحمة المتدافعة، وامتألت جعبة الفتیان بما فيها من معاكسات ودعابات حمقاء، وما أكثر ما كانت تنبعث من بين أناشيد الكولياكي أغنية مريحة يهتف بها شاب من شباب القوزاق على البديهة! وتنطلق فجأة عقيرة واحدة من الجماعة بأنشودة يحيى بها السنة الجديدة. بدلاً من أنشودة عيد الميلاد صائحًا بأعلى صوته:

ها هو ذا عيد الميلاد يولي؟

فلا تدخروا شيئًا!

وجودوا علينا بكعكة أو فطيرة!

أو طاس من العصيدة!

أو حبل من المقانق!

وكان هذا الماكن يُكافأ بعاصفة من الضحك، وتفتح النوافذ على مصاريعها وتمتد يد ذابلة لامرأة عجوز بواحد من المقانق أو بقطعة من

الفطير؛ ذلك أنه لم يك يبقى في الأكواخ إلا عجائز النساء والآباء من أهل الرزانة والوقار.

وكان الفتيان والفتيات ينافس بعضهم بعضًا في فتح أكياسهم وتلقي غنائمهم، ويجتمع الفتيان من كل حذب وصوب في صعيد واحد يحيطون بجماعة من الفتيات، فيعلو صخبهم ويرتفع ضجيجهم، وكان أحدهم يلقي كرة من الثلج ويخطف آخر كيسًا مليئًا بأطياب المأكولات على اختلاف أشكالها، وراحت الفتيات في مكان آخر يقبضن على فتي ويدفعنه، فينكفى على وجهه هو وكيسه في الجليد، وبدا أن الجميع كانوا على استعداد للمرح طوال الليل، فقد كانت الليلة رائعة كل الروعة! وقد تجلى ضوء القمر وزاده بريق الجليد تألقًا.

ووقف الحداد بأكياسه لا يبدي حراكًا، وخُيِّل إليه أنه سمع بين زحمة الفتيات صوت أوكسانا وضحكها الرنانة، فأخذ كل عرق فيه ينبض، وألقى بالأكياس على الأرض، فتأوه القندلفت الذي كان يقبع في قرار أحدها مما ناله من رضوض، وفاق شيخ القرية فواقًا عاليًا، ثم سار الحداد متمهلاً والكيس الصغير على كتفيه صحبة طائفة من الفتيان يلاحقون جمهرة من الفتيات سمع بينهن صوت أوكسانا.

«أجل إنها هي! وقد وقفت كالملكة وعيناها السوداوان تتألقان، وراح فتي وسيم يلقي على مسامعها شيئًا، ولا بد أن هذا الشيء يبعث على الضحك لأنها تضحك، بيد أنها تضحك دائمًا»، ولم يدرِ الحداد كيف شق طريقه وسط زحمة الناس ووقف إلى جوارها، وإن كان في هذا من قلة الفطنة ما فيه.

وقالت الحسناء والابتسامة التي سلبت لب فاكولا أو كادت لا تزال تداعب شفيتها: «آه أنت هنا يا فاكولا! طاب مساؤك هل أصبت الكثير لقاء أناشيدك؟ وي! ما أصغر الكيس الذي تحمله! أو جئت بالخف الذي تلبسه القيصرة؟ ائتني بالخف أتزوجك!»، ثم ضحكت وجرت مع الفتيات الأخريات.

ووقف الحداد كأنما سُمر في مكانه، ثم غمغم آخر الأمر قائلاً: «كلا، لا أستطيع أن أحتمل هذا، فإنه فوق طاقتي، ولكن، يا إلهي! لم وضعت فيها هذه الفتنة الطاغية؟ إن عينيها وكلماتها وكل ما فيها يلسعني لسعاً، أي والله يلسعني، كلا لا أستطيع أن أتمالك نفسي، وقد آن لي أن أضع حدًا لكل هذا، إلا فلتحل بي اللعنة! ولأذهبن وأغرق نفسي في فجوة بين الثلوج، وعندئذ ينتهي الأمر كله!».

ثم سار في خطى حازمة ولحق بجماعة الفتيات حتى وقف بحذاء أوكسانا، وقال في صوت ينم عن العزم: «وداعاً يا أوكسانا! ولتبحثي لك عن أي حبيب شئت، واسخري بمن شئت، أما أنا فلن يقع عليّ بصرٌ مرة أخرى في هذا العالم».

وبدت الدهشة على الحسناء، وهمت بأن تقول شيئاً لولا أن الحداد مضى مهرولاً وهو يلوح بيده.

وصاح الفتیان وهم يرون الحداد يجري: «إلى أين يا فاكولا؟».

فصاح الحداد مجيباً: «وداعاً أيها الفتیان! أسأل الله أن يكتب لنا اللقاء في العالم الآخر، ولكننا لن نعود للمرح في هذا العالم، وداعاً!

واذكروني بالخير! وقولوا للأب كوندرات أن ينشد قداسًا على روحي
الآثمة، فقد عصيت الله وآثرت عرض الدنيا على إنجاز رسم الشموع
لأيقونات القديس والعذراء البتول، وكل ما تجدونه في صندوقي من
سلع هبة مني للكنيسة، وداعًا!».

وما إن فرغ الحداد من قوله هذا، حتى انطلق يحمل الكيس.

وقال الفتیان: «لقد ذهب عقله!».

وغمغت امرأة عجوز كانت تمر بالمكان في لهجة تنم عن التقى
والورع: «نفس ضالة! ولأذهبن وأقول للقوم: إن الحداد قد شقق نفسه!».
وكان فاكولا في هذه الأثناء قد توقف ليسترد أنفاسه بعد أن جرى
مجتازًا بعض الطرقات، وقال يحدث نفسه: «فيمَ انطلاقي هكذا كأنني
فقدت كل شيء؟ ولألتمس وسيلة أخرى واحدة، ولأمضين إلى
باتسيوك الزابورجاوي ذي الكرش، فإنه يعرف فيما يُقال الشياطين
جميعًا، ويستطيع أن يفعل ما يريد، أجل لأمضين إليه، فقد ضلت روحي
على كل حال.

وعندئذ أخذ الشيطان يقفز فرحًا في الكيس، وكان قد قبع في مكانه
وقتًا طويلًا لا يأتي بحركة، إلا أن الحداد ظن أنه لوى الكيس بيده على
نحو ما، فأثار هذه الحركة، ولم يكن منه إلا أن لكز الكيس بقبضته
القوية، وهزه على كتفيه، ومضى ميمًا شطر باتسيوك ذي الكرش.

وكان باتسيوك قوزاقيًا زابورجاويًا في وقت من الأوقات على أنه
لم يدر أحد أطرِد من المعسكر أم هرب من زابورجوي من تلقاء نفسه؟

وكان الرجل يقيم في ديكانكا منذ وقت طويل، لعله يبلغ عشر سنوات أو خمس عشرة سنة، فقد راح في صدر حياته يعيش عيشة الزابوروجاوي القح، لا يقوم بأي عمل وينام ثلاثة أرباع النهار، ويزدرد من الطعام قدر ما تحصده ست محاصد، ويشرب ملء سطل من الفودكا أو نحو ذلك في وقت واحد، على أن جسمه كان يتسع لهذا كله، فهو وإن لم يكن فارغ الطول كان مبسوط الجنبين بعض الشيء، ثم إن السروال الذي ألف أن يرتديه كان من الفضفضة بحيث لا يظهر إليك أنه برميل من براميل مقطري الخمر، ولعل هذا هو السر في تلقيهم إياه بذى الكرش، وقد عرف القوم جميعاً أنه ساحر قبل أن يمضي وقت طويل على قدومه إلى القرية، فإذا أصيب أحد بمرض استدعى باتسيوك في الحال، وكان حسبه أن يهمس ببضع كلمات فتزول عنه العلة، وإذا اتفق أن سيداً جائعاً غص حلقه بعظم سمكة بادر باتسيوك فلطمه على ظهره ببراعة حتى يستوي العظم في مجراه الصحيح دون أن ينال حلق السيد أي أذى، أما في السنوات الأخيرة فقلما كان باتسيوك يُشاهد في أي مكان، وربما كان السبب في ذلك هو الكسل، أو ربما كان الرجل يجد مشقة عامًا بعد عام في أن يضغط جسمه ضغطاً حتى يستطيع أن يخرج من الباب، واضطر الناس منذ عهد قريب أن يقصدوه إذا كانوا في حاجة إليه.

وفتح الحداد الباب في شيء من التَهَيُّب، فرأى باتسيوك يجلس متربّعاً على الأرض أمام برميل صغير عليه طاس من لقيمات القاضي، وكان هذا الطاس في مستوى فمه، كأنما وضع في هذا الموضع عن

قصد، وكان يحني رأسه قليلاً تجاه الطاس دون أن يحرك إصبعاً ثم يرتشف المرق، ويمسك لقيمات القاضي بين أسنانه من حين إلى حين. وقال فاكولا بينه وبين نفسه: «وي، إن هذا الرجل لأكسل من شوب نفسه، ذلك أن شوب يأكل بملعقة، أما هو فيكسل أن يرفع يده!».

وما من شك أن باتسيوك قد شغلته لقيمات القاضي حتى استحوذت على تفكيره، فقد بدا عليه أنه لم يتنبه إطلاقاً إلى دخول الحداد الذي انحنى له انحناءة كبيرة بمجرد أن وطئت قدمه عتبة الدار.

وقال فاكولا وهو ينحني مرة أخرى: «لقد جئت التمس منك فضلاً يا باتسيوك».

ورفع باتسيوك البدين رأسه، وعاد مرة أخرى يزدرد لقيمات القاضي.

وقال الحداد وقد استجمع أطراف شجاعته: «يقول الناس عنك -وأنا لا أقصد بذلك الإساءة-، أجل أقول هذا ولم يخطر ببالي قط أن أسيء إليك- إنك تمت بصلة من القربى للشيطان».

وروع فاكولا إذ نطق بهذه الكلمات، فقد ظن أنه عبر عن نفسه تعبيراً جافياً فظاً ولم يهذب لغته تهذيباً كافياً، وتوقع أن يتناول باتسيوك البرميل والطاس جميعاً ويقذف بهما في وجهه لا يلوي على شيء، فتنحى قليلاً وغطى وجهه بردنه؛ حتى لا يصيبه رشاش من مرق لقيمات القاضي الساخن، إلا أن باتسيوك رفع عينيه وعاد يلتهم لقيمات القاضي من جديد.

وتشجع الحداد وصح عزمه على أن يمضي في حديثه.

«لقد جئت أقصّدك يا باتسيوك، متعك الله بكل شيء ورزقك من الأطايب على اختلاف أشكالها الكثير، ومن الخبز ما يناسب هذا القدر!»، وكان الحداد يستطيع أحياناً أن يتألق في عبارته، وقد ألف هذا خلال إقامته في بلتاوة عندما كان ينقش سور الضابط، «إني لا أجد أمامي أنا المذنب إلا الخراب، وليس لي في هذا العالم من معين ولا نصير! وليكن ما يكون فإني لا أجد مناصاً من التماس العون حتى من الشيطان نفسه»، ثم مضى الحداد في قوله إذ رأى باتسيوك لا يزال مخلداً إلى الصمت: «أي باتسيوك، ما عسي أن أصنع؟».

فأجابه باتسيوك وهو ماض في التهام لقيمات القاضي دون أن يرفع بصره: «إذا كنت في حاجة إلى الشيطان، فاذهب إليه».

فقال الحداد وهو ينحني له انحناءة أخرى: «وهذا هو ما حدا بي إلى القدوم إليك، فإني أعتقد أنه ما من مخلوق في العالم يعرف الطريق إليه سواك».

ولم ينبس باتسيوك ببنت شفة، بل أتى على ما بقي من لقيمات القاضي.

وألحف الحداد في طلبه قائلاً: «اشملي بفضلك أيها الرجل الصالح ولا ترفض طلبي! ولن أبخل عليك إذا دعت الحاجة ولتكن شيمتنا في ذلك ما جرى عليه كرام القوم، ولك ما شئت من لحم الخنزير أو المقانق أو دقيق الحنطة السوداء أو الدقيق الأبيض أو الكتان أو الدخن، فقل لي على الأقل كيف ألتمس الطريق إلى الشيطان؟».

وقال باتسيوك في غير ما اكتراث وهو ملازم مكانه: «إن من يحمل الشيطان على كتفيه لا يذهب بعيداً في طلبه!».

وتعلقت أنظار فاكولا بالساحر كأنما كان تفسير هذه الكلمات مسطوراً على جبينه، وبدت على وجه فاكولا سيماء من يتساءل في صمت: «تُرى ماذا يعني؟»، وفتح فمه متأهباً لالتقاط أول كلمة ينطق بها الساحر كما يزدرد لقمة القاضي.

ولكن باتسيوك كان قد أخذ للصمت.

ثم لاحظ فاكولا أنه لم يكن أمام الساحر برميل ولا لقيمات القاضي، وإنما كان يقوم على الأرض بدلاً منهما طاسان من الخشب: أحدهما مملوء بالفطائر المحشوة بالجبن والآخر مملوء بالقشدة، وتعلقت عينا فاكولا وأفكاره بهذه الأطياب على غير وعي منه، وراح يحدث نفسه قائلاً: «لنر الآن كيف يأكل باتسيوك هذه الفطائر، ولا شك أن الأمر لن يقتضيه أن ينحني ليأتي عليها كما فعل بلقيمات القاضي، وما كان ليستطيع لو أراد، فقد كان عليه أن يغمسها أولاً في القشدة».

وما إن مر بذهنه هذا الخاطر حتى فتح باتسيوك فمه، ونظر إلى الفطائر، ثم ازداد فمه اتساعاً، وفي تلك اللحظة قفزت فطيرة من الطاس وانحطت في القشدة ثم انقلبت على وجهها الآخر ثم قفزت إلى أعلى، وطارَت مندفعة إلى فمه رأساً، وأتى باتسيوك عليها، ثم فتح فمه من جديد، وسلكت فطيرة أخرى هذا المسلك نفسه، ولم يك باتسيوك ليتحمل من المشقة إلا مضغ الفطيرة وازدرداها.

وقال الحداد يحدث نفسه: «بالله! أي عجيبة هذه؟»، وفغر فاه دهشة، وفي اللحظة نفسها أدرك أن فطيرة تنطلق في طريقها إلى فمه هو وقد لطخت شفثيه بالقشدة فعلاً، فدفع الفطيرة عنه، ومسح شفثيه، ثم راح يفكر في العجائب التي يحفل بها هذا العالم وما يتوصل به الشيطان من مكر ودهاء ليضل الإنسان عن سواء السبيل، محدثاً نفسه بأنه ما من أحد يستطيع مساعدته إلا باتسيوك.

«سأنحني له مرة أخرى، لعله يفصح عما يطن.. ويا لبس الشيطان! إن اليوم يوم صيام ومع ذلك فهو يأكل الفطائر! يالي من غبي حقاً! أقف هنا وأهم بارتكاب المعصية!»، واندفع الحداد الورع لساعته خارجاً من الكوخ لا يلوي على شيء.

على أن الشيطان الذي كان قابلاً في الكيس يحدق في فريسته لم يكن يستطيع أن يدع هذا الصيد الثمين يفلت من بين يديه، فما إن وضع الحداد الكيس على الأرض حتى انفلت الشيطان منه وركب عنقه.

وسرت رعدة باردة في جسم الحداد، وامتقع لونه، وانتابه الخوف، ولم يدر ماذا يفعل، وهم بأن يرسم إشارة الصليب، إلا أن الشيطان أدنى أنفه الذي يشبه أنف الكلب من أذن فاكولا اليمنى وقال: «إنني أنا صديقك، ولن أذخر شيئاً في سبيل صديق وزميل!»، ثم هتف في أذنه اليسرى قائلاً: «لأعطيك من المال ما تشاء»، ومال بأنفه على أذن الحداد اليمنى مرة أخرى وهمس قائلاً: «لتكونن أو كسانا من نصيبك في هذا اليوم بالذات».

ووقف الحداد ساكناً لا يبدي حراكاً وقد استغرق في التفكير.

ثم قال آخر الأمر: «مرحى، مرحى، إذا كان هذا هو الثمن، فأني مستعد أن أكون طوع بنانك!».

ولوح الشيطان بيديه ابتهاجًا، وراح يقفز على عنق الحداد صاعدًا هابطًا، ثم قال بينه وبين نفسه: «والآن قد قُضي على الحداد! ولأجزيك الآن على كل ما رسمته ريشتك من صور، وعلى كل ما رويته من قصص قذفت بها في حق الشياطين! تُرى أي حديث يدور بين رفاقي حين يعلمون بأن أتقى رجال القرية جميعًا قد وقع في قبضة يدي!».

وضحك الشيطان فرحًا مسرورًا وهو يفكر فيما أتيح له من تعبير زبانية الجحيم الطوال الذنب جميعًا، وكيف أن الغضب سوف يشتد بالشيطان الأعرج الذي كانوا يعدونه أدهى الشياطين طرًا.

وصاح الشيطان وهو يتشبث بعنقه كأنما كان يخشى أن يهرب: «أي فاكولا، إنك لتعلم أنه ما من أمر يبرم بغير عقد».

فقال الحداد: «إنني لعلى استعداد! وقد علمت أن العقود في شريعتكم تمهر بالدم، فصبرًا، ولأخرجن من جيبي مسمارًا».

وعندئذ وضع يده خلفه وأمسك الشيطان من ذيله.

فصاح الشيطان وهو يضحك: «إنك لبارع في الدعابة! هلم، ودعني وشأني، فحسبك ما ألحقته بي من أذي!».

وصاح الحداد: «اصبر قليلًا يا صديقي! ما رأيك في هذا؟»، وما إن فرغ من قوله حتى رسم إشارة الصليب، فإذا بالشيطان يصبح في وداعة الحمل، ثم قال الحداد وهو يجذبه من ذيله إلى الأرض: «اصبر

قليلاً ولأعلمنك كيف توقع بالصالحين والمسيحيين الصادقين في المعصية!». .

وهنا قفز الحداد واعتلى ظهر الشيطان منفرج الساقين، ورفع يده ليرسم إشارة الصليب.

فتأوه الشيطان مستجيراً: «الرحمة يا فاكولاً! ولأفعلن كل ما تريد، أي نعم كل ما تريد، فأبقى على حياتي، ولا ترسم إشارة الصليب المهلكة!». .

«آه! أهكذا تتغير لهجتك أيها الألمانى الملعون! إنى لأعرف الآن ما سأصنع بك، احملني على ظهرك في الحال! أسمعني؟ وطر كما يطير العصفور!». .

وسأله الشيطان الحزين: «إلى أين؟». .

«إلى بترسبرج، إلى القيصرة رأساً!»، وكاد الحداد يغشى عليه من الرعب، إذ أحس بأنه يشق أجواز الفضاء.

وقفت أوكسانا وقتاً طويلاً تفكر في الكلمات الغريبة التي فاه بها الحداد، وانبعث من أعماقها هاتف يقول لها: «إنها قست عليه فأمعنت في القسوة، وماذا يكون لو صح عزمه على أن يرتكب أمراً إذا؟ لست أعجب إن هو فعل! ولعل حزنه يؤدي به إلى الوقوع في هوى فتاة أخرى، فيدعوها في غضبه أجمل الجميلات في القرية، ولكن كلا، فهو يحبني وقد بلغت الغاية في الحسن والبهاء! لن يهجرني لأي سبب، وإنما هو يتحایل ويتظاهر، ولن تنقضي عشر دقائق حتى يعود ليراني،

أجل، إنني لقاسية حقاً بل ممعنة في القسوة، ويجب أن أدعه يقبلني كما لو كان يفعل ذلك على الرغم مني، أفلا يسر ويرضى بذلك؟». وعادت الحسنة العابثة إلى المزاح مع أترابها.

وقالت إحداهن: «صبراً، فقد نسي الحداد كيسيه، ألا ما أبشعهما من كيسين كبيرين! لقد جمع من إنشاده أناشيد عيد الميلاد أكثر مما جمعنا، ويخيل إليّ أن القوم قد وضعوا له ربع شاة في كل منهما، ولا أشك أنهم دسوا له أيضاً عددًا لا يُحصى من المقائق والأرغفة، مرحى، لسوف يتوافر لنا ما يكفي الاحتفال بأسبوع عيد الميلاد كله».

وسألت أوكسانا: «هل هذان الكيسان للحداد؟ إذن فلنعجل بجرحهما إلى كوخى، ولننعمن النظر فيما وضعه فيهما».

ووافقت الفتيات جميعاً على هذا الاقتراح ضاحكات.

وصاحت لمة الفتيات كلهن وهن يحاولن نقل الكيسين: «ولكننا لا نستطيع رفعهما!».

فقال أوكسانا: «انتظرن لحظة، ولنمض في طلب زلاقة، ثم ننقلهما عليها!»، وجرت الفتيات باحثات عن زلاقة.

وكان الأسرى قد ضاقوا ذرعاً ببقائهم في الكيسين، وإن كان القندلفت قد ثقب ثقباً كبيراً يختلس منه النظر، ولو قد خلا المكان لاستطاع أن يتسلل من الكيس، ولكن التسلل من كيس أمام الجميع خليك بأن يجعله أضحوكة القوم.. وهذا هو ما حال بينه وبين تنفيذ ما يريد، وصح عزمه أن ينتظر، ولم يكن منه إلا أن تأوه في صوت خافت

تحت وطأة حذاء شوب الثقيل!

ولم يك شوب نفسه أقل رغبة منه في الحرية، وهو يحس بأن شيئاً تحته لا يُستطاب الجلوس عليه أبداً، فما إن سمع ما دبرته له ابتته حتى ارتاح باله، واستقر رأيه على أن يكف عن محاولة التسلل من الكيس، معتقداً أن المسافة بينه وبين كوخه لا تقل عن مائة خطوة أو أقل عن مائتي خطوة، فإن هو أقدم اقتضاه ذلك أن يصلح من شأنه ويزور معطفه المصنوع من جلد الماعز ويثبت حزامه، ويا للمشقة التي سوف يعانيتها من ذلك! ثم تذكر أيضاً أنه ترك قبعته في كوخ سولوخا، إذن فلتجره الفتيات الآن في الزلاقة.

على أن الأمور جرت على غير ما يحب ويشتهي، ففي اللحظة التي جرت فيها الفتيات ليبحثن عن الزلاقة خرج من الحانة جاره النحيل باناس مضطرب الأعصاب نائر النفس؛ ذلك أن صاحبة الحانة أبت أن تقدم له شيئاً من الخمر على الحساب، وفكر الرجل في البقاء في الحانة راجياً أن يأتي سيد كريم يتحفه بكأس، ولكن شاء سوء حظه أن يلزم السادة جميعاً منازلهم ويأكلوا الأرز والشهد في أحضان أسرهم، كما يفعل المسيحيون الصالحون، وخرج باناس من الحانة وهو يفكر فيما أصاب أخلاق الناس من انحلال وما اتصف به قلب اليهودية صاحبة الحانة من قسوة وغلظ، ثم وقع على الكيسين فوقف مشدوهاً.

وقال وهو يتلفت حوله: «يا للكيسين ألقى بهما شخص في الطريق! يقيني أن فيهما شيئاً من لحم الخنزير، ومن حسن الطالع أن يجمع هذا المنشد لأناشيد عيد الميلاد هدايا كثيرة كهذه من جميع الألوان،

يا للكيسين! وهب أنهما حافلان بالكعك والبقسماط المصنوع من الحنطة السوداء فحسب، فإنهما جديران مع ذلك بأن أستولي عليهما، ولو قد اقتصروا على الأرغفة لرحبت بذلك أيضًا، فإن اليهودية لخليقة بأن تعطيني كأسًا من الفودكا عن كل رغيف، يجب أن أسرع بنقلهما قبل أن يراهما أحد».

ولفع على كتفه الكيس الذي كان فيه شوب والقندلفت، ولكنه أحس بثقله الشديد، فقال: «كلا، إنه لأثقل من أن يستطيع رجل واحد حمله، وها هو ذا شابو فالنكو النساج قد أقبل لحسن الحظ، طاب مساؤك يا أوستاب!». فقال النساج وهو يتوقف: «طاب مساؤك».

«إلى أين أنت ذاهب؟».

«حيث تقودني خطاي».

«أعني على حمل هذين الكيسين أيها الرجل الصالح! لقد كان بعضهم ينشد أناشيد عيد الميلاد، وألقى بهما في الطريق، ولنقتسم ما فيهما مناصفة».

«كيسين؟ وماذا فيهما؟ أرغفة بيضاء أم ماذا؟».

«أعتقد أن فيهما أشياء من كل لون».

وأسرعا فانتزعا بعض العصي من السياج، ووضعوا عليها كيسًا من الكيسين وحملاه على أكتافهما.

وسأل النساج وهما في الطريق: «إلى أين نمضي به؟ إلى الحانة؟».

«هذا ما كنت أفكر فيه، ولكن اليهودية الملعونة لن تثق بنا، ولسوف

يذهب بها الظن إلى أننا سرقناه من مكان ما، ثم إنني قادم لتوي من الحانة، فلنمض به إلى حيث كوخى، ولن يقف في سبيلنا أحد هناك، فإن زوجتي قد بارحت الدار».

وسأله النساج الحذر: «أوافق أنت أنها ليست في الدار؟».

فقال باناس: «إنني والحمد لله لم أصل بعد إلى حد البلاهة، وإنما الشيطان وحده هو الذي يستطيع أن يقذف بي إلى حيث تكون، وإنني لأحسب أنها ستجول مع النساء الأخريات حتى مطلع الفجر».

وسمعت زوجة باناس الضوضاء الصادرة عن الرجلين والكيس في الغرفة الخارجية، ففتحت الباب وهتفت: «من هناك؟»، وعلقت الدهشة لسان باناس.

وقال النساج في يأس: «ها نحن أولاء قد وقعنا في مأزق».

وكانت زوجة باناس كنزاً من ذلك النوع الذي لا يعز عليك أن تجد له مثيلاً في هذا العالم، وكانت كزوجها لا تلزم الدار إلا نادراً، وتمضي في كل يوم تقريباً لزيارة بعض صويحاتها وعجائز النساء الثريات، تتملقهن وتأكل «بشهية» عظيمة على حسابهن، ولم تك تتشاجر هي وزوجها إلا في الصباح، فقد كانت لا تراه أحياناً إلا في هذا الوقت، وكان كوخهما أقدم بكثير من سروال كاتب الناحية أو قل يزيد عنه في العمر ضعفين، وكانت بعض المواضع من سقفهما المعرض بالجريد من القش، ولا ترى من سياج الكوخ إلا بقايا، فقد كان كل من يخرج من داره لا يرى حاجة تدعوه إلى حمل عصا يطرد بها الكلاب، وحسبه أن يمر بحديقة الخضر من كوخ باناس فينتزع عصا من سياجه. وكان

الموقد يظل ثلاثة أيام متصلة بلا إحماء، وكلما أصابت الزوجة الحنون شيئاً من فيض أيدي المسيحيين الصالحين أخفته ما وسعها بعيداً عن تناول زوجها.

وكثيراً ما كانت تصطنع الخلاعة والمعابثة لتحرمه ما يكسب إذا لم يتسع لها الوقت لإنفاقه على الشراب، ولم يك باناس بالرغم مما عرف عنه من احتشام ورزانة يحب أن يرضخ لها، فكان يغادر داره كل يوم تقريباً وقد اسود ما حول عينيه الاثنتين، في حين كانت شريكة حياته تتنهد وتتأوه ثم تنطلق لتخبر عجائز النساء بسوء خلق زوجها، وما كاله لها من ضربات لم تجد بداً من التجاوز عنها.

ولتتخيل أيها القارئ مقدار ما أصاب النساج وباناس من حيرة لظهور المرأة المفاجئ، وألقى الرجلان بالكيس ووقفا أمامه وعمدا إلى إخفائه بأطراف معطفيهما، ولكنهما كانا قد تأخرا كثيراً؛ ذلك أن زوجة باناس لمحت الكيس بالرغم مما أصابها به الكبر من ضعف في البصر.

وقالت ووجهها ينم عن فرح كفرح الصقر: «مرحى، مرحى! وجميل منكما أن تكونا قد جمعتما هذا الخير الكثير بإنشاد أناشيد عيد الميلاد! وهكذا حال المسيحيين الصالحين دائماً، ولكن كلا، فإني لأحسب أنكما سرقتماه من مكان ما، أرياني الكيس في الحال. أسمعان؟ أرياني في التو والساعة!».

وقال باناس وهو يتظاهر بالوقار: «ليرينك الكيس الشيطان الأصلع، أما نحن فلا».

وقال النساج: «وما شأنك بالكيس؟ إنا نحن اللذان أنشدنا الكوليا دكي لا أنت!». «

وصاحت الزوجة وهي تضرب زوجها الطويل القائمة على ذقنه بقبضة يدها وتقتحم طريقها اقتحامًا إلى الكيس: «بل ستريني الكيس أيها السكير الشقي!»، إلا أن النساج استبسل هو وباناس في الدفاع عن الكيس وأكرهاها على الارتداد، على أن الزوجة هرعت إليهما وفي يدها محراك النار قبل أن يستردا أنفاسهما، وضربت به زوجها في مهارة على ذراعيه، ثم ضربت النساج ضربة على ظهره، وبلغت الكيس.

وقال النساج وقد أفاق مما أصابه: «لم تركناها تصل إليه؟».

وقال باناس في برود: «لم تركناها تصل إليه؟ بل لم تركتها أنت؟».

وأخلد النساج إلى الصمت برهة، ثم قال وهو يحك ظهره: «لا شك أن محراك نارك مصنوع من الحديد! لقد اشترت زوجتي محراكًا من السوق في العام الماضي، ودفعت خمسة وعشرين كوبكًا ثمنًا له، ولكن ذلك المحراك لا ضرر منه، فهو لا يؤلم».

وفي هذه الأثناء وضعت الزوجة الظافرة السراج المتخذ من الخزف على الأرض، وفكت الكيس واختلست النظر إليه، ولكن عينيها الواهتين اللتين لمحتا الكيس من قبل خدعتها هذه المرة ولا شك.

فصاحت مصفقة بيديها في فرح وسرور: «آه إن خنزيرًا كاملاً يقبع في هذا الكيس!». «

ولكز النساج باناس قائلاً: «خنزير! هل سمعت؟ خنزير كامل!
وإنك لمسؤول عن هذا الخطأ كله!».

وأجاب باناس وهو يهز كتفيه: «لا حيلة في الأمر!».

فصاح النساج وهو يخطو إلى الأمام: «أجل، لا حيلة في الأمر!
فقيم الانتظار؟ ولنمضين بالكيس! هلمي بنا، اغربي عنا! فالخنزير
خنزيرنا!».

وقال باناس وهو يدنو منها: «اذهبي، اذهبي أيتها المرأة الشيطانة!
فإن هذا الكيس ليس ملكك!».

وتناولت زوجته محراك النار مرة أخرى، ولكن شوب تسلل من
الكيس في تلك اللحظة، ووقف وسط الغرفة وراح يتمطى كما يفعل
المرء إذ يستيقظ لتوه من نوم طويل، وصرخت زوجة باناس، ووقفوا
جميعاً فاغرين أفواههم.

وقال باناس وهو يحدق النظر وقد اتسعت حدقتاه: «ما بال هذه
المرأة الحمقاء تقول إنه خنزير؟ إنه ليس بخنزير».

وقال النساج وهو يترنح مرتدّاً إلى الوراء في زعر: «يا إلهي! ويا
للرجل الذي سقط في الكيس! ألا فلتقل ما تشاء ولتنفجر إن شئت فما
من ريب أن للشيطان الزئيم يدّاً في ذلك، وي! إن الشيطان لا يأتي من
النوافذ!».

وصاح باناس وهو يدقق النظر: «إنه شوب!».

وقال شوب ضاحكاً: «ومن يكون سواه؟ مرحى، ألم أخدعكم

خدعة بارعة؟ لا شك عندي في أنكم كنتم تنوون أن تأكلوني ظانين أنني خنزير من الخنازير! فاصبروا لحظة أعوضكم عما فاتكم، فإن في الكيس شيئاً آخر، إن لم يك خنزيراً بأكمله، فهو بلا ريب حلوف صغير أو حيوان آخر من الحيوانات الحية، فقد ظل شيء يتحرك من تحتي».

واندفع النساج وباناس إلى الكيس، وتشبثت ربة البيت بالطرف الآخر منه، وربما كان التنازع عليه خليقاً بأن يتجدد، لولا أن القندلفت أدرك أنه لم يعد له أمل بعد في الاختفاء، فتسلل من الكيس بمحض إرادته.

وذملت المرأة، فتركت الساق التي كانت قد بدأت تجر منها القندلفت إلى خارج الكيس.

وقال النساج في فرع: «هاكم رجلاً آخر من الزمرة! إن الشيطان ليعلم ماذا دها العالم! لقد اختلط عقلي، وكيف بي والرجال يوضعون في الأكياس بدلاً من الأرغفة أو المقانق؟».

وقال شوب، وقد زادت دهشته عن الآخرين: «إنه القندلفت! وي، وي! ما أبرعك يا سولوخا! تضعين رجلاً في كيس! لقد ظننت وقتئذ أن كوخها زاخر بالأكياس، والآن أدركت الحقيقة، لقد كانت تخفي كل رجلين في كيس! وكنت أظن أنني الوحيد الذي... يا لها من امرأة!».

وتملك الفتيات شيء من الدهشة عندما وجدن أن أحد الكيسين قد اختفى.

وهتفت أو كسانا: «لا حيلة في الأمر، وحسبنا هذا الكيس».

ورفعت الفتیان الکیس، وألقینہ علی الزلاقة.

واستقر رأي شيخ القرية على التزام الهدوء، وقال يحدث نفسه: «إنه لو أهاب بهن أن يحلن الكيس ويخرجنه منه لهربت الفتيات الحمقاوات، ظناً منهن أن الشيطان هو الذي قبع فيه، وظل وهو ملقي في الطريق حتى يجيء اليوم التالي. ولم تلبث الفتيات أن طرن بالزلاقة متشابكات الأذرع، كالعاصفة تجتاح الجليد المقرقع، وجلست كثيرات منهن على الزلاقة طلباً للمتعة، بل تسلق بعضهن واستوين على رأس شيخ القرية، وصح عزم الشيخ على أن يتحمل كل شيء».

ووصلن آخر الأمر إلى الكوخ، وفتحن الباب المؤدّي إلى الغرفة الخارجية، وجررن إليها الكيس ضاحكات.

وصحن جميعاً معجلات بفتحه: «فلنر ما فيه!».

وفي تلك اللحظة زاد الفواق الذي يعذب الشيخ شدة على شدة، حتى أخذ صوته يعلو بالفواق والسعال جميعاً.

وصرخت الفتيات مبتعدات في فزع: «آه، إن ثمة شخصاً يقبع في الكيس!».

وقال شوب وهو يدخل عليهن: «ما بالكن؟ لماذا تجرين كأنما أصابكن جميعاً مس من الشيطان!».

وصاحت أوكسانا: «آه يا أبت! إن في الكيس رجلاً!».

«في الكيس؟ من أين جئتن بالكيس؟».

فقلن جميعاً على الفور: «لقد تركه الحداد في الطريق».

وراح شوب يحدث نفسه قائلاً: «إذن هذا هو السر؟ ألم أقل هذا؟». «ما يخيفكم؟ فلنلق نظرة عليه، هيا أيها الرجل، وأرجو ألا يسوؤك أننا لا نخاطبك باسمك اللائق، هلم ولتخرجن من الكيس زاحفاً!». وفعل شيخ القرية ذلك. وصرخت الفتيات «آه!».

وقال شوب يحدث نفسه وقد انتابه الدهول وهو يتفرس في الشيخ من قمة رأسه إلى أخمص قدميه: «إذن فقد اندس الشيخ في كيس أيضاً! مرحى، مرحى!»، ولم يزد. ولم يك شيخ القرية نفسه بأقل حيرة منه، فلم يعرف كيف يبدأ الحديث.

ثم قال موجهاً الخطاب إلى شوب: «أظن أن الليلة باردة». فأجاب شوب: «لقد ألم بالجوشى من الصقيع، ولكن اسمح لي أن أسألك بماذا تطلي حذاءك، أبدن الإوز أم بالقطران؟»، ولم يك شوب يقصد أن يسأل هذا السؤال، بل كان يريد أن يقول: «كيف اندسست في هذا الكيس أيها الشيخ؟»، ولأمر ما سأل سؤالاً مختلفاً عن ذلك كل الاختلاف.

وقال الشيخ: «القطران أفضل، طابت ليلتك يا شوب»، وشد قبعته على رأسه وغادر الكوخ.

وقال شوب، وهو ينظر إلى الباب الذي خرج منه شيخ القرية: «ماذا دهاني حتى أسأله بم تطلي حذاءه؟ ألا ما أبرعك يا سولوخا حتى تضعي

رجلاً كهذا في كيس! تالله إنها لامرأة شيطانة! وقد أدت بي غباوتي..
ولكن أين ذلك الكيس الملعون؟».

فقالت أوكسانا: «ألقيت به في ركن من الأركان، فقد خلا مما فيه». إنني لأعرف قصته كلها، ليس فيه شيء حقاً! أتني به إلى هنا، إن فيه رجلاً آخر، هزبه جيداً، ماذا وجدت فيه؟ لا شيء؟ يا للمرأة الملعونة! ومع ذلك فإنك إذا نظرت إليها حسبتها قديسة لم تذق قط إلا طعام الصائمين».

ولنترك الآن شوب يصب جام غضبه كما يشاء، ولنعد إلى الحداد، فإن الساعة قد جاوزت الثامنة بكثير.

واستبد الخوف بفاكولا أول الأمر، وخاصة عندما ارتفع عن الأرض ارتفاعاً أعجزه عن أن يرى شيئاً مما يقع تحته، ومضى الفتى يطير كالذبابة تكاد تمس هامته القمر، ولو لم ينحن لعلقت قبعته به، وما إن انقضت فترة وجيزة حتى استعاد ثقته بنفسه، بل بدا يسخر من الشيطان، وكان يطرب كثيراً إذ يرى كيف يعطس الشيطان ويسعل حين يخلع صليبه الصغير المصنوع من خشب السرو من عنقه ويدلي به إليه، وكان يتعمد رفع يده حتى تحك رأس الشيطان، فيظن الشيطان أنه يرسل عليه إشارة الصليب، فيزيد من سرعته في الطيران وكان الضوء باهراً في ذلك الارتفاع، والهواء شفافاً تلتف به غلالة فضية رقيقة من الضباب، وكان كل شيء واضحاً للعيان، حتى إن الفتى استطاع أن يرى مشعوذاً يمرق مروق السهم بجوارهما وهو جالس في قدر، والنجوم تتجمع في لمة لتلعب لعبة الاستخفاء، وقد راح حشد كامل من الأرواح بدور في

سحابة مبتعدة عنهما.

وأخذ شيطان يرقص في ضوء القمر ويخلع قبعته حين يرى الحداد يمر به غادًا السير، وانطلقت مكنسة تطير عائدة إلى مقرها، وكان من الجلي أن ساحرة قد ترجمت عنها لتوها بعد أن بلغت مقصدها، وصادف الفتى هو والشيطان كثيرًا من المخلوقات البشعة أيضًا، وكانت جميعها تقف حين ترى الحداد لتتفرس فيه برهة، ثم تسرع في طريقها لا تلوي على شيء. وظل الحداد طائرًا حتى لاح له بطرسبورج فجأة وهي تتألق بالأنوار، وقد اتفق أن كانت المدينة مضاءة في ذلك اليوم، واتخذ الشيطان، وهو يطير فوق باب المدينة، هيئة الجواد، ووجد الحداد نفسه يمتطي صهوة جواد أصيل يتقد غيرة وحماسة وهو ماضٍ في عرض الطريق.

يا إلهي! ما أعجب هذا الصليل وتلك الضوضاء وذلك النور الباهر المتألق! لقد كانت الجدران ترتفع وتقوم على كل جانب منها أربع طبقات، وكان وقع حوافر الخيل وقرقعة العجلات يتردد صداها ويتجاوب من كل حذب وصوب، وبدا للأعين أن الأرض تنشق عن المنازل في كل خطوة، وكانت الجسور تهتز، والعربات يستبق بعضها بعضًا وهي تمضي في طريقها، وسائقو الزلاقات وسوَّاس الخيول يصرخون، والجليد يقرقع تحت وطء ألف الزلاقة التي كانت تسرع من جميع الأنحاء، وكان المارة يتجمعون ويتكأون تحت المنازل التي كانت مرصعة بالمصاييح الصغيرة، فتمرق ظلالهم الضخمة على الجدران حتى تبلغ رؤوسهم الأسقف والمداخل.

وتلفت الحداد حوله في ذهول، وقد خُيِّلَ إليه أن المنازل جميعًا قد تعلقت به عيونها المتقدة التي لا حصر لها ترقبه، ورأى عددًا كبيرًا من السادة يرتدون معاطف النسيج، فلم يدر من منهم يرفع له قبعته، وقال يحدث نفسه: «يا إلهي! ما أكثر الأعيان هنا! إنني لأحسب أن كل من يجتاز الشارع في معطف من الفراء إنما هو مساعد قاض يجيء في أثره مساعد قاض آخر! أما أولئك الذين يركبون تلك العربات الجميلة ذات النوافذ الزجاجية فهم من العُمد أو هم بلا شك مأمير أو لعلهم في مركز أرفع»، وقطع عليه حبل تفكيره سؤال وجهه إليه الشيطان:

«أو أذهب رأسًا إلى القيصرة؟».

وقال الحداد يحدث نفسه: «كلا، إنني لخائف، فإن القوزاق الزابوروجاويين الذين اجتازوا ديكانكا في الخريف الماضي يعسكرون في مكان ما هنا، وقد جاءوا من المعسكر يحملون أوراقًا من القيصرة، فلا سألنهم الرأي على كل حال».

«إيه أيها الشيطان! ادخل في جيبي، وانطلق بي إلى الزابوروجاويين!».

ولم يلبث الشيطان أن استحال شيئًا غاية في الرفع والصغر حتى أنه لم يجد صعوبة ما في أن يندس في جيب الحداد، ووجد فاكولا نفسه قبل أن يتسع له الوقت للتلفت أمام بيت كبير، وارتقى درجًا، وهو لا يكاد يدري ماذا يفعل، وفتح بابًا، ثم تراجع قليلًا وقد بهره الضوء المتألق، إذ رأى الغرفة الفاخرة الرياش، ولكنه استرد بعض جأشه عندما أبصر الزابوروجاويين الذين اجتازوا ديكانكا، وقد استووا الآن على

أرائك فرشت بالحريز، ودسوا تحتهم أحذيتهم الملطخة بالقطران،
وراحو يدخنون أقوى أنواع الطباق.

وقال الحداد وهو يتجه إليهم، محيياً إياهم بانحناءة كبيرة: «طاب
يومكم أيها السادة! وليكن الله معكم، فقد قُدِّر علينا أن نلتقي هنا».

وسأل الرجل الذي كان يجلس في مواجهة الحداد تماماً صاحباً له
على مبعدة منه: «من يكون هذا الرجل؟».

فقال الحداد: «أو لا تعرفني؟ إنني أنا فاكولا الحداد، وإنني لأذكر
أنك يا سيدي لبثت يومين في ديكانكا عندما قصدت إليها راكباً جوادك
في الخريف الماضي، متعك الله بالصحة السابعة، ومد في عمرك! وقد
وضعت طوقاً جديداً من الحديد على العجلة الأمامية من عربتك».

فقال ذلك الزابوروجاوي نفسه: «آه، إنه ذلك الحداد الذي يجيد
النقش، طاب صباحك أيها الجار! ما الذي جاء بك إلى هنا؟».

وأجاب الزابوروجاوي وهو يشد قامته في اعتداد بالنفس: «حسناً
أيها الجار»، ثم أردف في لكنه أوكرائية قوية يريد أن يظهر بمظهر من
يستطيع التكلم بالروسية: «حسناً، إنها لمدينة كبيرة، أليس كذلك؟».

وأراد الحداد أيضاً أن يثبت علو كعبه في هذه اللغة حتى لا يظهر
بمظهر المبتدئ، ثم إنه كان يستطيع هو أيضاً أن يتحدث بلغة الكتب
على ما مر بنا من قبل.

فأجاب بالروسية أيضاً في غير ما اكتراث: «إنها لمدينة عظيمة! ولا
مشاحة في أن المنازل كبيرة جداً، كما أن الصور المعلقة متقنة الرسم

إلى حد عجيب، وقد زين كثير من المنازل بحروف وشيت بالذهب في إسراف، وما من ريب في أن التناسب بين هذا وذاك رائع».

وارتفع قدر الحداد في نظر الزابوروجاويين، إذ رأوه يفيض في حديثه هذه الإفاضة.

«لنواصلن الحديث معك فيما بعد أيها الجار؛ ذلك أننا ذاهبون الآن إلى القيصرة».

«إلى القيصرة؟ أفلا تفضلون أيها السادة وتأخذونني معكم؟».

وهتف زابوروجاوي يقول في لهجة تحاكي لهجة الرجل الناضج وهو يحدث ابنًا له في الرابعة من العمر إذا هو طلب أن يمتطي صهوة جواد حقيقي كبير: «أنت؟ وما عسى أن تفعل هناك؟ كلا، لا نستطيع ذلك، فإننا سنتحدث مع القيصرة في شؤوننا الخاصة»، وشابت وجهه أمارات تنبئ بخطر الأمر وجلاله.

وألحف الحداد في الرجاء قائلاً: «بل خذوني معكم»، وهمس إلى الشيطان في صوت خفيض وهو يدق على جيبه بقبضة يده: «دعهم يأخذوني!».

وما إن قال هذا حتى هب زابوروجاوي آخر يقول: «فلنأخذه معنا أيها الرفاق!».

وانضم إليه آخرون قائلون: «أجل، فلنأخذه معنا!».

«إذن فعليك أن ترتدي من اللباس ما نرتديه».

وشرع الحداد يرتدي سترة زرقاء، وإذا بالباب يفتح فجأة ويدخل

رجل تغطيه المخمرات الذهبية قائلاً: «لقد حان الوقت للمضي إلى القيصرة».

وتملك الذهول الحداد مرة أخرى وهم يدفعون به في عربة عظيمة تتأرجح على زنبركات، وأخذت البيوت ذات الطبقات الأربع تمر به سراعاً على الجانبين، بدا له أن أديم الطريق المجلجل يموج تحت وقع حوافر الخيل.

وقال يحدث نفسه: «يا إلهي! ما أبهر الضياء! إن الضوء لا يبلغ هذا المبلغ في موطني حتى في أثناء النهار!».

ووقفت العربات أمام القصر، وترجل الزابوروجاويون، ودخلوا بهواً فخمًا، وشرعوا يرقون درجًا تتلأأ فيه الأنوار الساطعة.

وغمغم الحداد يقول بينه وبين نفسه: «يا له من درج! ومن المؤسف أن يطأه المرء بقدميه، يا للزخارف! يقولون إن الحكايات تكذب، وحق الشيطان إنها لا تكذب إلا قليلًا! يا إلهي! يا للدرابزون! وما أروعها من صنعة! لا شك أن الحديد وحده قد تكلف خمسين روبلاً سويًا».

وما إن صعد الزابوروجاويون الدرج حتى اجتازوا أول غرفة للاستقبال، وتبعهم الحداد في تهيب، مشفقاً أن تنزلق قدماه على خشب الأرض الأملس في كل خطوة، ثم ساروا مجتازين ثلاث غرف للاستقبال، والحداد لا يكف عن الإعجاب الذي ملك عليه له، فلما ولجوا الغرفة الرابعة لم يتمالك نفسه من المضي إلى صورة معلقة على الجدار، وكانت صورة العذراء البتول تحمل ابنها بين ذراعيها.

وراح يتحدث بينه وبين نفسه قائلاً: «يا لها من صورة! ويا لهذا الرسم البديع! إنه يوشك أن ينطق! وكأنما دبت الحياة فيه! ثم الابن المقدس! إنه يضغط يديه الصغيرتين كلاً بالأخرى، ثم يتسم هذا المسكين! والألوان! يا إلهي! ما أروعها! يُخيل إليّ أن الصورة ليس فيها من تراب الحديد إلا ما يساوي كوبكاً واحداً، إن كل ما فيها أخضر زمردى وصباغ قرمزي، أما اللون الأزرق فيتلاً تلاً، يا لها من قطعة فنية رائعة! وإنني لأحسب أن بطانة الصورة قد طُليت بأعلى أنواع الرصاص الأبيض، ومضى يبدئ ويعيد شاخصاً إلى الباب يتحسس القفل، «وهذه الصورة على الرغم من بلوغها الغاية في الروعة فإن هذا المقبض النحاسي لأكثر منها جمالاً وإبداعاً، آه، يا لجمال الصقل! إنني لأحسب أن ذلك كله قد قام به الحدادون الألمان، وتكلف أموالاً طائلة».

ولعل الحداد كان خليقاً بأن يسترسل إلى تأملاته هذه وقتاً طويلاً لو لم يلكره في ذراعه خادم يرتدي لباسه الرسمي ويذكره بالأيتأخر عن رفاهه، واجتاز الزابوروجاويون غرفتين أخريين ثم توقفوا، وقيل لهم أن ينتظروا في الغرفة الثالثة، وكان فيها عدد من القواد يرتدون زيهم العسكري الموشى بالذهب، وانحنى الزابوروجاويون ذات اليمين وذات اليسار، ثم توقفوا جميعاً عن الحركة.

وبعد لحظة واحدة دخل الغرفة رجل أقرب إلى البدانة، عظيم الهامة في جلال يرتدي زي زعماء القوزاق وحذاء أصفر، وفي ركابه حاشية كاملة، وكان أشعث الشعر يشوب عينيه شيء من الحول وتبدو على وجهه أمارات الاستعلاء والاعتداد بالنفس، تنطق كل حركة من

حركاته بما ألفه من إصدار الأوامر، ودب الاضطراب بين القواد الذين كانوا يذرعون الغرفة مزهوين بزيهم الموشى بالذهب، وبدا عليهم وهم ينحنون له انحناءات كبيرة أنهم يرقبون في لهفة أي كلمة ينطق بها، بل أقل حركة تصدر منه حتى يهرعوا في الحال ملبين رغباته وطلباته، ولكن زعيم القوزاق لم يعر ذلك كله أدنى التفات، وكل ما فعله أن أومأ إليهم، ثم اتجه إلى الزابوروجاويين.

وانحنى الزابوروجاويون جميعاً حتى مست جباههم الأرض.

فقال الرجل في تمهل وكانت الكلمات تخرج من أنفه بعض الشيء: «أو حضرتم جميعاً إلى هنا؟».

فأجاب الزابوروجاويون وهم ينحنون مرة أخرى: «جميعاً يا باتكو!»^(١).

«لا تنسوا أن تتحدثوا بالطريقة التي أشرت عليكم بها».

«لن ننسى يا باتكو!».

وسأل الحداد واحداً من الزابوروجاويين: «هل هذا هو القيصر؟».

فأجاب صاحبه: «القيصر حقاً! إنه الأمير بوتمكنين نفسه!».

وطرقت أذني الحداد أصوات تنبعث من الغرفة الأخرى ولم يدر في أي اتجاه يدير بصره حتى يرى رتل السيدات يلجن الغرفة مرتديات ثياباً من الأطلس لها ذيول طويلة، ولمة من رجال البلاط في سترات موشاة بالذهب وقد ربطوا شعورهم في ضفيرة تسترسل على ظهورهم،

(١) باتكو في الأوكرانية معناها الأب - المؤلف.

لقد كان الفتى لا يرى في ذلك كله إلا غاشية من نور وسنا يحار فيهما
البصر.

وخر الزابوروجاويون جميعاً على أيديهم وركبهم وهتفوا في
صوت واحد: «الرحمة يا مامو، الرحمة!»^(١).

واستلقى الحداد أيضاً على الأرض في غيرة وحماسة شديدتين،
وإن كان لم ير شيئاً، وهرع بعض رجال البلاط، ولكزوا الزابوروجاويين.
فصاح الزابوروجاويين: «لن ننهض يا مامو! لن ننهض، ولنمت
ولكننا لن ننهض!».

وعض بوترمين شفتيه، ثم شخص إليهم بنفسه آخر الأمر، وهمس
في أذن واحد من الزابوروجاويين في صوت حازم بات، فهبوا وقوفاً.
ثم تجرأ الحداد أيضاً، ورفع رأسه، فرأى أمامه امرأة قصيرة القامة،
بل هي أقرب إلى البدانة، زرقاء العينين يحف بها ذلك الجلال السني
الذي لا يملك أي إنسان حياله إلا أن يخضع ويستسلم، أجل ذلك
الجلال الذي لا نجده إلا في الملكات.

وقالت السيدة ذات العينين الزرقاوين وهي تنظر إلى الزابوروجاويين
نظرة فاحصة يشوبها الفضول: «لقد وعدني سمو الأمير بأن يعرفني
اليوم، من لم أرهم بعد من أفراد شعبي»، ثم مضت تقول وهي تدنو
منهم: «أو تحظون بالعناية الواجبة هنا؟».

«أجل، وشكراً لك يا مامو! إن الطعام الذي يُقدَّم لنا لجيد

(١) مامو في الأوكرانية معناها الأم - المؤلف.

كل الجودة، وإن كان لحم الضأن لا يشبه في شيء ما نصيبه منه في زابوروجي، ولكننا بدأنا نتأقلم».

وقطب بوتمكن حاجيه إذ رأى الزابوروجاويين ينهجون في أقوالهم نهجًا يختلف تمام الاختلاف عما أرشدهم إليه.

وشد واحد من الزابوروجاويين قامته في اعتداد بالنفس وتقدم منها قائلاً:

«كوني رحيمة يا مامو! لم تعاقبين شعبك المخلص؟ ترى كيف أثرتنا غضبك؟ هل وضعنا يدنا في يد التتر الفجار، أو عقدنا اتفاقاً مع الترك؟ وهل خنا عهدك في قول أو فعل؟ أم فقدنا عطفك؟ لقد كان أول ما سمعناه إنك أمرت ببناء الحصون في كل مكان لمقاومتنا، ثم سمعنا بأنك تنوين إدخالنا في زمرة الجنود النظاميين، وها نحن أولاء الآن نسمع بمصائب جديدة في طريقها إلينا، فأبي خطأ ارتكبه الجنود الزابوروجاويين؟ هل أخطأوا في حقك إذ عبروا بجيشك بيريكوب وأعانوا قوادك على هزيمة أهل القريم؟».

وحك بوتمكن، في غير اكتراث، أحجار الماس التي كان يرصع بها يديه بفرشاة صغيرة، ولم ينبس ببنت شفة.

وسألتهم القيصرة في قلق: «ماذا تريدون؟».

ونظر بعض الزابوروجاويين إلى بعض نظرات ذات مغزى.

وقال الحداد يحدث نفسه: «هذا هو الوقت المناسب! إن القيصرة تسألنا عما نريد!»، وانبطح على الأرض فجأة.

«لا تأمري بعقابي يا صاحبة الجلالة، بل رفقا بي وارحميني! أفلا تقولين لي يا صاحبة الجلالة، وحاشاي أن أقصد الإساءة إلى شخصك الكريم، ممن صنع الخف الصغير الذي تتعلينه؟ فإني لأحسب أنه ما من صانع أحذية في أي مملكة في العالم يستطيع أن يصنع خفاً مثله، رحماك يا ربي! تمنيت أن تتعل زوجتي خفاً كهذا!».

وضحكت الإمبراطورة، وضحك رجال البلاط أيضاً، وقطب بولمكين حاجبيه وابتسم في الوقت نفسه، ولكز الزابوروجاويون الحداد تحت ذراعه، وتساءلوا في عجب: «أجن الرجل؟».

وقال الإمبراطورة في تلمظ: «انهض إذا كانت الرغبة في خف كهذا قد استبدت بك إلى هذا الحد، فما أيسر تدبير الأمر! ائتوا له فوراً بأحسن خف وليكن موشى بالذهب، لشد ما أطرب حقاً لمثل هذه الطوية السليمة!»، ثم مضت تقول: «هاك موضوعاً خليقاً بأن يتناوله قلمك البارع»، ملتهفة إلى سيد متوسط العمر ذي وجه مكتنز أقرب إلى الشحوب كان يقف على مسافة ما من الآخرين وكانت سترته المتواضعة بأزرارها الصدفية الكبيرة تنبئ بأنه ليس من رجال البلاط.

وأجاب الرجل ذو الأزرار الصدفية وهو يحيي هامته: «ما أعظم فضلك يا صاحبة الجلالة، وهيهات أن يوفي هذا الموضوع حقه إلا رجل من طراز لافونتين على الأقل!».

«إني لأقول لك مخلصه بأن السرور الذي أفاضته على روايتك

«قائد اللواء»^(١) لا تزال آثاره عالقة في نفسي، وإن قراءة آثارك لمتعة أي متعة!»، ومضت الإمبراطورة تقول وهي تلتفت مرة أخرى إلى الزابوروجاويين: «على أنني سمعت أنه ما من أحد منكم أقبل على الزواج في المعسكر».

فأجاب الزابوروجاوي الذي كان يحدث الحداد قائلاً: «كيف هذا يا مامو؟ إنك لتعلمين أن الرجل لا غنى له عن زوجة». وعجب الحداد إذ سمعه يخاطب القيصرة خطاباً كأنما تعمد فيه أن تكون لهجته خشنة كتلك التي يتحدث بها الفلاح، ولو أنه كان يستطيع أن يتحدث بلغة الكتب.

فقال يحدث نفسه: «يا لهم من قوم ذوي دهاء ومكر! وإني لأحسب أنه لا يفعل هذا إلا لغرض!».

واسترسل الزابوروجاوي يقول: «لسنا نساًگا، بل نحن قوم آثمون، من السهل أن نقع في المعصية شأن جميع المسيحيين الصادقين، وكثير منا متزوجون، ولكنهم لا يقيمون مع زوجاتهم في المعسكر، وبعضنا لهم زوجات في بولندا، وبعضنا في أوكرانيا، بل إن بعضنا لهم زوجات في تركيا».

وجاءوا للحداد في تلك اللحظة بالخف.

فصاح فرحاً وهو يتناول: «يا إلهي، ما أبدع ما وُشي به من تطريز! يا صاحبة الجلالة! ما دام الخف الذي تنتعليه كهذا الخف -وإني

(١) ألف رواية «قائد اللواء» الهزلية الكاتب الروسي الساخر فونفيزين من سنة (١٧٤٥ - ١٧٩٢) - المؤلف.

لأحسب أن جلالتك تتزحلقي به على الجليد - فما بال قدميك ! لا شك
أنهما مصنوعتان من السكر الخالص !».

وكان للإمبراطورة وايم الحق قدمان بديعتان صورتا أحسن تصوير،
فلم تتمالك نفسها من الابتسام وهي تسمع ذلك الإطراء تنطق به شفتا حداد
ساذج، يبدو في لباسه الزابوروجاوي وسيماً بالرغم من وجهه القاتم.

وسر الحداد بهذه اللفتة الكريمة، فصبت نفسه إلى سؤال
القيصرة الجميلة عن كل شيء بالتفصيل: أصبح أن القياصرة لا
يأكلون إلا الشهد ولحم الخنزير الحنيد وما أشبه ذلك؟ إلا أنه شعر
أن الزابوروجاويين ينخسونه بين ضلوعه نخساً، فصح عزمه على أن
يلزم الهدوء، وعندما التفتت الإمبراطورة إلى الرجال الذين هم أكبر منه
سنّاً، وبدأت تسألهم عن سبيلهم في الحياة وعاداتهم في المعسكر، ارتد
الحداد إلى الوراء وانحنى على جيبه وقال في رفق: «ابتعد بي من هنا
وأسرع!»، ولم يلبث أن وجد نفسه خارج أبواب المدينة.

هتفت زوجة النسّاج البدينة تقول في لثغة، وهي واقفة مع جماعة
من نساء ديكانكا في عرض الطريق: «لقد غرق! تالله إنه غرق! ولا قدر
عليّ أن أبرح المكان أبداً إن لم يكن قد غرق!».

وصاحت امرأة أرجوانية الأنف ترتدي سترة قوزاقية ملوحة
بذراعيها: «وي! أكاذبة أنا إذن؟ وهل سرقت بقرة أحد، أو حسدت أحداً
حتى تنكرن قلبي؟ ألا كتب عليّ الله أن تعاف نفسي شرب الماء إن
كانت بيرير شيحاً العجوز لم تربعيني رأسها الحداد وهو يشق نفسه!».
وقال شيخ القرية وهو يغادر كوخ شوب ويلحق بالجماعة: «أو

شنق الحداد نفسه؟ وي! ما كنت لأصدق هذا!«.

وقالت زوجة النساج: «خير لك أن تقولي: كتب الله عليّ أن تعاف نفسي شرب الفودكا أيتها السكيرة العجوز! لقد كان حتمًا عليه أن يكون في مثل جنونك حتى يشنق نفسه، أأغرق نفسه؟ أجل أغرق نفسه في الفرجة التي بين الجليد! وإني لأعلم ذلك علمي بأنك كنت في الحانة لتوك!«.

وردت المرأة ذات الأنف الأرجواني في حق وغضب: «أيتها الفاجرة! انظرن؟ بماذا تتهمني! لخير لك أن تعقلي لسانك أيتها الفاجرة! أو تحسبين إنني لا أعرف أن القندلفت يذهب لزيارتك كل ليلة؟«.

واستشاطت زوجة النساج غضبًا.

«ماذا تقولين عن القندلفت؟ لمن يذهب القندلفت! أي أكاذيب تختلقين؟«.

وشقت زوجة القندلفت طريقها إلى المتشاجرين، وكانت ترتدي سترة من القطن الأزرق مبطنة بجلد الأرانب، وصاحت تقول: «القندلفت؟ لأرينكما كيف تحترمان اسم القندلفت! من منكما جرى اسم القندلفت على لسانها؟«.

فقالت المرأة ذات الأنف الأرجواني مشيرة إلى زوجة النساج: «هذه هي الفاجرة التي يزورها القندلفت».

فقالت زوجة القندلفت وهي تخطو صوب زوجة النساج: «إذن فإنك أنت أيها العاهرة! أجل أنت، أليس كذلك؟ أنت الساحرة التي

نفث فيه من سحرِك وسقيته شرابًا دنسًا لتحمليه على القدوم إليك». .
فقالَت زوجة النساَج وهي تتراجع مترنحة: «اختف ورائي أيها
الشيطان!». .

«آه أيتها العاهرة الملعونة! قصف الله عمرِك، ولا كتب عليك أن
ترى أطفالك! أيتها المخلوقة الشقية!». .

وعندئذ بصقت زوجة القندلفت في وجه المرأة الأخرى مباشرة.
وحاولت زوجة النساَج أن تفعل بها مثل ما فعلت، ولكنها بصقت
بديلًا من ذلك على ذقن شيخ القرية، ولم يكن حلقه بعد، وكان قد دنا
من المتشاجرِين حتى يزداد سمعًا لما يدور بينهما من شجار.
وصاح الشيخ وهو يمسح وجهه بطرف سترته ويرفع سوطه: «إيه
أيتها المرأة القذرة!». .

وكانت حر كته كافية لتفريقهن، فانطلقن مهرولات كل ناحية يلقيَن
اللوم على الشيخ صارخات هاتفات.

وردد الشيخ ولم يفرغ بعد من مسح وجهه: «ما أبشع هذا! إذن فقد
غرق الحداد! يا إلهي! ما كان أبرعه من نقاش! ويا للسكاكين ومناجل
الحصاد الجيدة التي كان يصنعها! وما كان أقواه من رجل!»، ومضى في
تأملاته يحدث نفسه قائلاً: «أجل ليس في قريتنا الكثير من أمثاله، والحق
أنني لم ألحظ وأنا قابع في ذلك الكيس الملعون أن الفتى المسكين كان
شديد الاكتئاب، إذن فهكذا انتهت حياة الحداد! لقد كان حيًّا بالأمس،
أما اليوم فلم يعد له وجود، وقد كنت أنوي أن أقصد إليه لإحدى فرسي
البقاء!». .

والتمس الشيخ طريقه إلى كوخه في هدوء وقد شغل باله بهذه الأفكار المسيحية.

واضطربت أوكسانا أيما اضطراب عندما بلغها النبأ، وكانت لا تثق كثيراً بقول بيربير شيخا أنها رأت الحداد يشنق نفسه، ولا بشرثرة النساء، ولكن ماذا يكون لو أنه كان قد رحل معتزماً ألا يعود إلى القرية أبداً؟ والحق أنه كان من المتعذر على المرء أن يجد في أي مكان فتى قويم الخلق كهذا الحداد، ثم إنه كان مفتوناً بها! وقد احتمل نزواتها أكثر من أي فتى غيره، وأخذت الحسنة تتقلب في فراشها الليل بطوله، على جانبها الأيمن تارة وعلى جانبها الأيسر تارة أخرى، ثم تعود إلى جانبها الأيمن ثم إلى الأيسر، واستعصى عليها النوم، أجل أخذت تتقلب عارية في كامل فنتتها التي حجبها الليل حتى عن نفسها، وراحت تصب على رأسها اللوم في صوت أوشك أن يكون جهيراً، ثم هدأت بعض الهدوء فصح عزمها على ألا تفكر في شيء، ومع ذلك فقد ظلت تفكر وتفكر، لقد كانت تضطرم بنار الحمى، وما إن لاح الصباح حتى كانت غارقة في حب الحداد إلى أذنيها.

ولم يبد شوب سروراً ولا حزناً على مصير فاكولا، فقد شغل فكره بأمر واحد؛ ذلك أنه لم يستطع أن ينسى خيانة سولوخا، ولم يكف عن التنديد بها حتى أثناء نومه.

وانبلج الصبح، وامتألت الكنيسة بروادها ولما يتنفس الصبح تماماً، ورسمت عجائز النساء عند مدخل الكنيسة علامة الصليب في ورع وتقى، وكن يعصبن رؤوسهن بأغطية من الكتان الأبيض ويرتدين سترات

من النسيج الأبيض أيضاً، وقد وقفت أمامهن سيدات في صدارت خضر وصفّر، بل كان بعضهن يرتدين معاطف زرقاء داكنة وُشيت ظهورها برسوم مذهبة، وحاولت الفتيات أن يشقن طريقهن مقتربات من مكان الأيقونات، وكن يرتدين ملء دكان من الشرائط تلتف حول رؤوسهن، ويتقلدن القلائد والصلبان وقطع النقود حول أعناقهن.

وكان يقف أمام هؤلاء جميعاً السادة والفلاحون المتواضعون بشواربهم وقنزعات رؤوسهم ورقابهم الغليظة وذقونهم التي حلقوها حديثاً، وكانوا كلهم يرتدون العباءات ذات القلائس تطل من تحتها سترة بيضاء حيناً أو سترة زرقاء داكنة حيناً آخر، ويشيع السرور في كل وجه يقع عليه بصرك، وكان الشيخ يلحق شفثيه مفكراً في المقانق التي سيفطر عليها، أما الفتيات فكن يفكرن فيما هن بسبيله من تزحلق على الجليد مع الفتيان، وأخذت عجائز النساء يتمتمن بصلواتهن في غيرة وحماسة متزايدة. وكان المرء يستطيع أن يسمع في أي ناحية من نواحي الكنيسة سفير ييجوز القوزاقي وهو ينحني إلى الأرض، على أن أوكسانا كانت تقف وحدها شاعرة باكتئاب لا عهد لها به، فقد كانت تتمتم بالصلاة ولا تصلي، وتزاحمت في قلبها مشاعر كثيرة متباينة كل منها أكثر إقلاقاً للنفس وأعظم إثارة للأسى من الآخر، فلا يجد من ينظر إلى وجهها إلا حيرة ممضة وهمّاً ثقيلاً وترقرقت الدموع في عينيها وعجزت الفتيات عن التكهّن بالسبب، ولم يدر بخلدهن أن الحداد هو المسؤول عما هي فيه، على أن أوكسانا لم تكن هي الوحيدة التي شغل بالها على الحداد، فقد لاحظ القريون جميعاً أن العيد قد خلا من البهجة المعهودة في

الأعياد، وأنه كان ينقصه شيء. ومما زاد الطين بلة أن صوت القندلفت كان غليظاً أجش بعد ما كابد من رحلاته وهو قابع في الكيس، وأخذ يئز أزيزاً لا يكاد يسمعه أحد. صحيح أن المرتل الذي كان يزور القرية، راح يرتل من قرار النغم ترتيلاً جميلاً، ولكن هذا الترتيل كان خليقاً بأن يكون أعذب وأجمل في وجود الحداد الذي ألف دائماً، حين يرى القوم ينشدون صلاة «يا أبانا» أو صلاة «الطفل المقدس»، أن يعتلي منصة المرنمين وينشد الأنشودة من فوقها بالنغمة التي جرى أهل بلتاوة على الترجم بها، ثم إنه كان الفتى الوحيد الذي يؤدي مهمة السادن، وفرغ القوم من صلاة الفجر، ثم انتهوا من القداس بعد أدائهم صلاة الفجر.. ترى، أين اختفى الحداد حقاً؟

* * *

وفي باكورة الصباح عاد الشيطان بالحداد طائراً بسرعة فاقت السرعة التي طار بها في ذهابه، ووجد فاكولا نفسه في غمضة عين بجوار كوخه، وانطلق الديك صائحاً في تلك اللحظة.

وهتف الحداد وهو ممسك بالشيطان من ذيله، وكان قد أوشك أن يولي الأدبار: «إلى أين؟ صبراً لحظة يا صديقي، فإن ما بيننا لن ينتهي، ذلك أنني لم أشكرك بعد»، ثم أمسك بقضيب وجلده ثلاث جلدات، فانطلق الشيطان المسكين يجري كفلاح جلده مساعد القاضي لتوه، وهكذا انقلب عدو البشرية من خادع يغوي الناس ويضلهم ويعبث بهم، إلى مخدوع جازت عليه الحيلة، ثم ولج الحداد الغرفة الخارجية، وأعد لنفسه مكاناً في القش، ونام حتى حان وقت الغداء، ثم استيقظ فراعه أن

الشمس قد اعتلت كبد السماء، وهتف يقول: «لقد أفرطت في النوم، وفاتتني صلاة الفجر والقداس!».

وغلب الحزن على الحداد الورع، فقد اعتمد اعتقادًا جازمًا أن الله قد شاءت إراداته أن يقتص منه لما انتواه من إثم بإلقاء نفسه في موارد التهلكة، فأصابه بهذا النوم الثقيل الذي منعه من حضور الكنيسة في مثل هذا العيد المقدس، على أنه أخذ يعزي نفسه بقوله إنه سوف يعترف للقس بكل هذا في الأسبوع المقبل، وسوف يخشع من الآن فصاعدًا خمسين مرة كل يوم عامًا كاملاً، ثم نظر في الكوخ، فلم يجد به أحدًا؛ ذلك أن سولو خال لم تكن قد عادت من الكنيسة بعد فيما يظهر.

وأخرج الخف بعناية من صدر سترته، وراح يتعجب مرة أخرى من نفاسة صناعته وما خاضه من مغامرة عجيبة في الليلة الماضية، واغتسل الفتى وارتدى أغلى ما عنده من ثياب، وتحلى بالملابس التي حصل عليها من الزابوروجاويين نفسها وأخرج من صندوق قبة جديدة من الأستراخان الجيد ذات قمة زرقاء داكنة لم يلبسها مرة واحدة منذ اشتراها أثناء إقامته في بلتاوة، وأخرج أيضًا حزامًا جديدًا تمثلت فيه ألوان قوس قزح، وجمع هذا كله في منديل، وزاد عليه سوطًا ثم مضى من فوره لمقابلة شوب.

وحملق شوب في الحداد وهو يدخل كوخه، ولم يدر أي حال من أحوال الحداد أعجب وأغرب؟ أقيامه من بين صفوف الأموات، أم جرأته في القدوم عليه، أم تأنقه هذا التأنق كأنه زابوروجاوي حق؟

بل ازداد دهشة على دهشة عندما فك فاكولا المنديل وطرح أمامه قبعة جديدة وحزامًا لم ير لهما في القرية مثيلاً من قبل، ثم جثا أمامه وقال في لهجة تفيض بالتوسل والابتهاال: «الرحمة يا باتكو! اضربني إن شئت، ولكن لا تغضب عليّ! هاك سوطاً، اضربني به ما شاء لك الضرب، فإني مسلم أمري إليك، وهأنذا أعترف بندمي على كل ما قدمت يداي! اضربني، ولكن لا تحنق عليّ، فقد كنت يوماً زميلاً لأبي، وأكلتما الخبز والملح معاً وشربتما كأس الوفاء والإخلاص!».

وإنما سرّ شوب في قرارة نفسه، إذ رأى الحداد يجثو عند قدميه، وهو الذي لم يذعن لأحد في القرية، بل لقد بلغ من شدة بأسه أنه كان يستطيع أن يلوي القطع ذات خمسة الكوبكات وحدى الخيل بين يديه كأنها الكعك، وأراد شوب أن يؤكد ما له من منزلة فتناول سوطاً، وجلده به ثلاث جلدات على ظهره.

«وي! هذا حسبي، فانهض! وتعلم أن تطيع دائماً من يكبرونك سنّاً، ولتنس ما مر بيننا، والآن حدثني بما تريد».

«زوجني أو كسانا يا باتكو!».

وفكر شوب قليلاً، ونظر إلى القبعة والحزام، وكانت القبعة جميلة ينشرح لها الصدر، ولم يكن الحزام دونها في ذلك، ثم فكر في سولو خا الخائنة وقال في حزم: «حسنّاً! ف لترسل الخطاب!».

وصاحت أو كسانا: «آه!»، عندما اجتازت عتبة الباب ورأت الحداد، وراحت تحملق فيه وقد تملكته الدهشة والسرور جميعاً.

وقال فاكولا: «انظري الخف الذي جئتُك به، إنه الخف الذي تلبسه القيصرة بلا فرق ولا خلاف».

وقالت الفتاة وهي تلوح بذراعيها ولا تكف عن التأمل فيه: «كلا، كلا! لا أريد الخف، فأني راضية بك بصرف النظر عن الخف...»، ثم علت وجهها حمرة الخجل ولم تزدد.

وقصد إليها الحداد وأخذ بيدها، وأرخت الفتاة الحسناء بصرها، وتجلّى حسنهما الفائق كما لم يتجلّى من قبل، وقبلها الحداد المفتون قبلة رقيقة، فتضرج وجهها بحمرة قانية من الخجل، وازدادت فتنة على فتنة. وكان الأسقف الطيب الذكر يحتاز ديكانكا راكباً العربية، فأعجب بموقع القرية، وتوقف وهو يهبط الطريق أمام كوخ جديد.

وسأل غبطته امرأة جميلة كانت تقف بجوار الباب وقد حملت بين ذراعيها طفلاً رضيعاً: «كوخ من هذا الذي طلي بهذا الطلاء الباهر؟». فأجابته المرأة وهي تنحني: «كوخ الحداد فاكولا»، ولم تكن هذه الفتاة سوى أوكسانا.

وقال غبطته وهو يلقي على الأبواب والنوافذ نظرة فاحصة: «رائعة! أجل صنعة رائعة!»، وكانت النوافذ جميعاً قد حُطّطت بالطلاء الأحمر، وراح القوزاق في كل مكان يمتطون صهوات جيادهم بجوار الأبواب وغلايينهم بين أسنانهم.

ولكن غبطته زاد فاكولا إطرء عندما علم أن فاكولا أراد أن يكفر عن ذنبه في حق الكنيسة، فطلا الجناح الأيسر كله من منصة المرتلين

باللون الأخضر ورصعه بالأزهار الحمر.

ولم يكتف فاكولا بذلك، بل رسم الشيطان في الجحيم على ناحية من الجدار يطالع الداخل إلى الكنيسة، وكان منظره بشعاً كل البشاعة، لا يمر به أحد إلا بصق عليه. وكانت النساء إذا لج طفل في البكاء بين أذرعهن حملنه ورفعنه إلى حيث الصورة، وقلن له: «هاك! وانظر! ما أبشع هذا المنظر!»، فيحبس الطفل دموعه ويختلس نظرة إلى الصورة، ثم يندس في صدر أمه ويزداد بها التصاقاً.



انتقام رهيب

- ١ -

كان ثمة هرج ومرج وضجيج في حي من أحياء كيف، فقد كان الصاغ جوروبتس القوزاقي يحتفل بزواج ابنه، وأمّ الحفل عدد عظيم من الضيوف كانوا في الأيام الخالية يحبون الأكل الطيب، ويحبون الشراب أكثر، ويحبون المرح أكثر وأكثر، وجاء ميليتكا الزابوروجاوي، فيمن جاءوا، ممتطيًا صهوة جواده الأشقر مقبلًا، لا يلوي على شيء من حفل صاخب أقيم في سهل برشلاي حيث قضى سبعة أيام بليالها ينقل على جنود ملك بولندا ويعب النبيذ الأحمر عبًا، وجاء أيضًا دانيلو بورو لباش، أخو الصاغ بالتبني مصطحبًا زوجته الشابة كاترينا وابنه البالغ من العمر اثني عشر شهرًا مقبلين من وراء نهر الدنيبر حيث بيت أسرته يقوم بين تلين، وأخذ الضيوف بحسن طلعة كاترينا الشابة، وحاجبيها اللذين يحاكيان في سوادهما المخمل الألماني، وثوبها الأنيق المصنوع من النسيج الثقيل، ونقبتها الحريرية الزرقاء وحذاءها ذي الكعب الفضي، ولكن دهشتهم كانت أعظم من عدم حضور والدها الشيخ معها، فقد

قضى الرجل عامًا بل أقل من من عام في ذلك الإقليم، ولم يسمع القوم عنه شيئًا طيلة الواحد والعشرين عامًا السابقة على ذلك، ولم يأت لزيارة ابنته إلا بعد أن تزوجت ورزقت ولدًا ذكرًا، ولا شك أن في جعبته قصصًا غريبة كثيرة جديدة بأن تُحكى، وكيف لا يكون هذا شأنه وقد قضى في البلاد الأجنبية هذه الحقبة الطويلة من الزمن؟ إن كل شيء فيها يختلف عما هو عليه في بلادنا، فالقوم ليسوا هم القوم كما أن تلك البلاد قد خلت من الكنائس المسيحية، ومع ذلك تخلف الرجل عن الحضور.

وجاء أهل البيت للضيوف بفودكا مطيبة فيها زبيب وفيها برقوق، كما جاءوا لهم بكعكة زفاف في طبق كبير، وانقض الموسيقيون على الطبقة السفلى منها التي دست فيها قطع النقود عند خبزها، وألقوا بكماناتهم وصنوجهم ودفوفهم التماسًا لفترة قصيرة من الراحة، وفي هذه الأثناء خرجت الفتيات والسيدات الشابات مرة أخرى، بعد أن مسحن أفواههن بالمناديل المطرزة، ووضع الفتيان أذرعهم في خاصرتهن وأخذوا يتلفتون حولهم في استعلاء متأهبين للمضي للقائهن، وإذا بالصاغ العجوز يبرز أيقونتين يبارك بهما الزوجين الشابين.

وكان قد أعطاها إياهما الناسك الموقر الأب فارفولومي، ولم تكونا مركبتين على رصيعتين نفيستين ولا يشع منهما بريق لذهب أو فضة، على أن أي روح شريرة ما كانت لتجرؤ على الاقتراب من أي امرئ وضعهما في بيته، ورفع الصاغ الأيقونتين عاليًا، وهمَّ بأن يتلو صلاة قصيرة، وإذا بالأطفال الذين كانوا يلعبون على الأرض يصرخون فجأة صرخات يشيع فيها الرعب والفرع، وتراجع القوم وأخذ كل منهم يشير

في رهبة إلى قوزاقي وقف وسطهم ولم يدر أحد من يكون، ولكنه كان قد أبدع في الرقص، واستحوذ على الملتفين حوله، وما إن رفع الصاغ الأيقونتين حتى انقلبت سحنة القوزاقي في الحال، فازداد أنفه كبراً، ومال على جانب وتبدل لون عينيه من السمرة إلى الاخضرار وازرقت شفاته، وارتجف ذقنه ودق حتى غدا كالرمح، وأطلت من فمه ناب، وظهرت حذبة خلف رأسه، واستحال رجلاً عجوزاً نالت منه الأيام.

وصاح القوم وقد التصق بعضهم ببعض: «إنه هو! إنه هو!».

وصاحت الأمهات يتخطفن أطفالهن: «لقد ظهر الساحر مرة أخرى!».

وتقدم الصاغ في مهابة، واعتداد بالنفس وصوب إليه الأيقونتين، ثم هتف: «اغرب عنا يا صورة الشيطان! فلا مكان لك هنا!»، فاختفى الشيخ الغريب وهو يفتح فحيح الأفعى، ويقعقع بأسنانه كأنه الذئب.

ولغط القوم وثارَت بينهم التكهّنات، وكان ضجيجهم أشبه بهدير بحر ألَمَّت به عاصفة.

وتساءل الشبان: «من يكون هذا الساحر؟»؛ ذلك أنهم لم يكونوا يعرفون عنه شيئاً.

وتمتم الشيوخ وهم يهزون رؤوسهم: «تالله لتثورن المتاعب!»، واجتمع الناس في كل مكان من الفناء الفسيح زرافات ينصتون إلى قصة الساحر المخيف، على أن كلاً منهم كان يرويها رواية تختلف عن رواية الآخر، ولم يستطيع أحد أن يقول عنه شيئاً محققاً.

ودحرج القوم برميلاً من شراب العسل المخمر، وجاءوا إلى
الفناء بجالونات كثيرة من النبيذ اليوناني، وعاد الضيوف إلى مرحهم،
وعزفت فرقة الموسيقى، فأخذت الفتيات والسيدات الشابات، كما
أخذ كرام القوزاق في ستراتهم الزاهية الألوان يدورون بسرعة وهم
يرقصون، وشرب الشيوخ الذين ناهزوا التسعين، بل المائة، كأساً أو
كأسين، ثم شرعوا يرقصون هم أيضاً عائدین بالذكري إلى السنوات
الخوالى التي لم تضع منهم سدى، وظلوا يحتفلون حتى ساعة متأخرة
من الليل احتفالاً لا نجد له نظيراً اليوم، وبدأ الضيوف يفرقون، ولكن
لم يعد منهم إلى البيوت إلا القليل، فقد بقي الكثيرون يقضون الليلة
في فناء الصباغ الفسيح، بل أخلد جمع عظيم من القوزاق إلى النوم من
غير دعوة، فاستلقوا تحت الأرائك أو على الأرض أو بجانب خيولهم
أو بجانب الحظيرة، وكان السكارى يرقدون حيث يتعثرون، ويغطون
غطيطاً يصل إلى أسماع أهل القرية جميعاً.



وانبعث من السماء ضوء رقيق غشي الأرض جميعاً، فقد بزغ القمر من خلف التل، وغمر ضوؤه ضفة الدنيير الوعرة بغلالة بيضاء كالثلج، أو كأنها النسيج الموصلي النفيس الذي اشتهرت به دمشق، وانحسرت الظلال مرتدة إلى أعماق غابة الصنوبر.

وكان ثمة قارب حفر من شجرة سنديان، يسبح هابطاً نهر الدنيير، وقد جلس غلامان في مقدمته، ووضعاً قبعتيهما القوزاقيتين السوداوين على جانب من رأسهما، وراح الرشاش يتطاير من مجدافيهما كأنه الشرر ينبعث من حجر من الصوان.

ما بال هذين القوزاقيين قد صمتا عن الغناء، وكفا عن الحديث عن القساوسة البولنديين الذين كانوا يتجولون في أوكرانيا يحملون القوزاق على اعتناق الكاثوليكية، وعن المعركة التي استغرقت يومين مع التتر عند البحيرة الملحة، ولكن كيف تنطلق عقيرتهما بالغناء ويتشدقان بالحديث عن ضروب البسالة، وقد استغرق سيدهما في التفكير وتدلّى ردن سترته القرمزية من القارب يخط في صفحة الماء، وراحت سيدتهما كاترينا تهز طفلها في رقة ولطف وقد تعلقت أنظارها

به، على حين أخذ الغبار الرمادي الدقيق الذي يحمله الرشاش يلوث ثوبها الأنيق المصنوع من النسيج الثقيل وقد تجرد من غطاءه الكتاني.

ويا لها من متعة أن ترنو ببصرك من وسط الدنيبر إلى التلال العالية والمروج الفسيحة والغابات الخضراء، ولم تك هذه التلال تتلألاً بالمعنى المفهوم، فقد كانت تنتهي من أسفلها ومن أعلاها بقنن تشرف عليها السماء في علاها، وتشرف هي على السماء، وأما الغابات القائمة على منحدراتها فلم تك أيضاً غابات بالمعنى المفهوم، بل كانت هي الشعر الذي يغطي رأس شيطان الحرجة الأشعث، يتدلى إلى الماء يغسل فيه لحيته التي تنبسط من تحتها السماء في علاها، وتمتد فوق رأسه مشرفة في ذراها، وكذلك لم تكن المروج مروجاً، بل كانت نطاقاً أخضر يتوج قبة السماء، ويتدلى من فوقه ومن تحته.

ولم يكن السيد دانيلو يتلفت حوله، بل كان ينظر إلى زوجته الشابة: «ما بالك غارقة في الحزن أي زوجتي الصغيرة ومهجة قلبي كاترينا؟».

قالت كاترينا وهي تخرج منديلاً تمسح به وجه الطفل النائم: «لست غارقة في الحزن أي زوجي دانيلو! وإنما يملؤني الخوف مما سمعته من القصص الغريبة عن الساحر، ويقول القوم: إنه ولد بشع المنظر تتقحمه العين، لا يرضى أي طفل بأن يلعب معه، فهلا تستمع أي زوجي دانيلو إلى القصص المخيفة التي يروونها عنه! لقد خُيِّلَ إليه أن الناس جميعاً يسخرون منه، وكان إذا لقي إنساناً في الظلام ظنه يفتح فمه ويكشف عن أسنانه استهزاء به، حتى إذا جاء اليوم التالي وجدوا هذا الإنسان ميتاً لا حراك به. وقد عجبت لتلك القصص وروعني سماعها». وكان المنديل

الذي أخرجه كاترينا لتمسح به وجه ابنها قد طرزته بأوراق الشجر والتوت مستعينة بالحرير الأحمر.

ولم ينبس السيد دانيلو ببنت شفة، بل أخذ يحدّق النظر في الظلام حيث كان يلوح للأعين فيما وراء الغابة بمسافة كبيرة حافة مظلمة لسور بُنيّ باللبن يقوم خلفه قصر قديم، وكان جبين دانيلو يخطه ثلاثة خطوط من التجاعيد، وأخذت يده اليسرى تربت شاربه الجليل.

وقال: «ليس المخيف في الأمر أنه ساحر، بل المخيف أنه ضيف شرير، تُرى أي نزوة بعثت به إلى هنا؟ لقد أُنبئت أن البولنديين ينوون بناء حصن ليفرقوا بين الزابوروجاويين، وقد يكون ذلك صحيحًا، وتالله لأطاحن بعش ذلك الشيطان إذا بلغتني أي إشاعة بأنه يأوي أعداءنا فيه، ولأحرقن هذا الساحر العجوز حتى لا تجد الغربان من بقاياهِ شيئًا تنبش فيه، وإنني لأحسب أن لديه ذهبًا وثروة من كل نوع، وهناك يقيم الشيطان! فإذا كان عنده ذهب.. وسنمر بعد قليل بالصلبان. وتلك هي المقبرة! وفيها يرقد أجداده الأشرار، وقد تعفنت جثثهم، وقد علمت بأنهم جميعًا كانوا مستعدين أن يبيعوا أنفسهم للشيطان بالمال. أجل كانوا مستعدين أن يبيعوا أرواحهم وأجسادهم الفانية وكل ما يملكون، ولو كان لديه ذهب حقًا، فما من داع يدعو إلى الانتظار، فليست كل حرب تأتي بالغنائم!».

«أعلم ما تدبر، وإن قلبي ليحدثني بأنك لن تخرج من لقائه بخير، إنك تلهث، وقد غلبت على محياك القسوة البالغة، وتقطب حاجيك من شدة الغضب فوق عينيك...».

فقال دانيلو غاضبًا: «اعقلي لسانك يا امرأة! فلئن قُدِّرَ لرجل أن يعاملك لا نقلب هو نفسه امرأة، يا غلام، عليّ بنار أشعل بها غليونني!»، وعندئذ التف إلى غلام من الغلامين الذين كانا يجدفان، ودق الغلام غليونه ينفض بعض الرماد الحامي، وبدأ يحشو به غليون سيده، ومضى دانيلو قائلاً: «أتريد امرأتي أن تخيفني بذكر الساحر! وي! إن القوزاقي لا يخاف الشيطان، ولا القس البولندي! وماذا يكون من أمرنا لو أنصتنا إلى السيدات يا ولدي؟ إن خير الزوجات في نظرنا الغليون والسيف الماضي!».

وأخذت كاترينا إلى الصمت، وراحت تنظر إلى النهر الهاجع وهب النسيم فأثار الماء، وتألّق الدنيير بلون الفضة كجلد ذئب يلوح للعين بليل.

وانعطف القارب واحتضن الضفة المشجرة، وتبدت للأنظار مقبرة، انقلبت صلبانها رأسًا على عقب، وتجمعت في لمة واحدة، ولم ينبت بين القبور زهر ولا عشب، وإنما كان يؤنس القمر وحشتها من علياء سمائه.

وقال دانيلو وهو يلتفت إلى المجدفين: «أتسمعان الصيحات أيها الغلامان؟ إن شخصًا يستنجدنا!».

وصاح الغلامان في صوت واحد وهما يشيران إلى المقبرة: «أجل نسمعها، ويظهر أنها تنبعث من تلك الضفة».

ولكن الهدوء عاد فشمّل المكان، والتف القارب مسائرًا ثنية الضفة البارزة، ثم ألقي المُجَدِّفان مجدفيهما فجأة، وراحا يحملقان أمامهما

دون أن يبديا حراكًا، وفعل دانيلو مثل ما فعلا، وسرت رعدة من الفزع في أوصال القوزاقي.

وتهاوى صليب على قبر من القبور، وبرزت من الأرض جثة ذابلة استرسلت لحيثها حتى بلغت وسطها، واستطالت أظافرها فزادت في الطول عن الأصابع نفسها، ورفعت الجثة يديها عاليًا في بطء وكان وجهها كله متقلصًا شائهاً، ينم بجلاء عما تعانیه من عذاب فظيع، ثم أخذت تن في صوت مخيف وحشي: «إني أختنق! إني أختنق!»، حتى لقد بدا هذا الصوت يحز في القلب حز السكين، ثم غابت في باطن الأرض فجأة، وتهاوى صليب آخر، ثم برزت من الأرض جثة ثانية أطول قامة وأكثر بشاعة، يغطي جسمها الشعر وتسترسل لحيثها حتى تبلغ ركبتيها، وتمتد أظافرها حتى تزيد على أظافر الجثة الأولى، ثم صاحت في صوت أشد هولاً ورعباً: «إني أختنق»، ولم تلبث أن غابت في جوف الأرض، وتهاوى صليب ثالث وبرزت جثة أخرى، بدت للأنظار كالهيكـل العظمي تنشق عنه الأرض، وكانت لحيثها تبلغ عقبـيها، وأظافرها تنغرس في الأرض، ورفعت الجثة يديها إلى السماء في حركة مفزعة كأنما تهـم بأن تمسك القمر، وأطلقت صرخة خـيـل إلى الأسـماع أن أحـدًا ينـشر عظامها الصفر نشرًا.

وصاح الطفل النائم في حجر كاترينا واستيقظ من نومه، وصاحت السيدة أيضًا، وترك المُجـدِّفـان قبعـتيهما تسقطان في النهر، ولم ينبـج سـيدهما من رعدة سرت في جسمه.

وانطوت صفحة هذا كله كأن لم يكن، على أن المُجـدِّفـين لم يعودا

إلى مجدافيهما إلا بعد وقت طويل، ونظر بورو لباس في قلق إلى زوجته الشابة، وقد تملكها الرعب، وراحت تهز الطفل الذي لم يكف عن الصياح بين ذراعيها، وضمها دانيلو إلى صدره وطبع قُبلة على جبينها.

وقال وهو يشير إلى ما حوله: «لا تراعي يا كاترينا! انظري، فما من شيء هناك، وكل ما في الأمر أن الساحر يريد أن يلقي الرعب في قلوب الناس حتى لا يجروا أحد على اقتحام وكره الدنس، ولكنه لن يخيف بهذا أحداً إلا النساء! فخلي عنك وأعطيني ولدي!».

وما إن فرغ دانيلو من قوله هذا، حتى رفع ولده وقبله: «إيه يا إيفان أظنك لا تخاف السحرة، أليس كذلك؟ أجبني وقل كلا يا أبت، فإني قوزاقي، حسبك! وكف عن البكاء، فسرعان ما نبلغ دارنا، فتطعمك أمك الثريد، وتضعك في مهدك ثم تغني لك:

هوه هوه يا صغيري

هوه هوه نم يا حبيبي.

العب والعب حتى تغدو رجلاً

يفخر بك القوزاق.

وتثير الارتباك في صفوف الأعداء.

«أعيريني أذنك يا كاترينا، فإني أظن أن أبائك لن يعيش معنا في سلام، فقد كان حين أقبل علينا حزيناً كاسف البال كأنما يملكه الغضب، تُرى، ما الذي حمله على المجيء إذا كان لا يروق له؟ ثم إنه لم يشأ أن يشرب نخب حرية القوزاق، ولم يلاعب الطفل قط، لقد كنت خليقاً بأن

أثق به من كل قلبي، ولكنني عجزت عن ذلك، فقد احتبست الكلمات في حلقي، لا، لا! ليس لأبيك قلب القوزاقي! إن القلوب القوزاقية إذا تلاقت قفزت من الصدور أو كادت ليرحب كل منها بالآخر، أي غلامي العزيزين، أوقد اقتربنا من الشاطئ؟ لأهبن لكما قبعتين جديدتين، واحدة لك أنت يا ستيتسكو مصنوعة من المخمل والذهب، انتزعتها من تترى هي ورأسه، وآل إليّ كل ما كان يتزين به اللهم إلا روحه، فقد تركتها تذهب في... مرحى لقد بلغنا البر! وها نحن أولاء قد وصلنا إلى دارنا يا إيفان، ولكنك لا تكف عن البكاء، خذيه يا كاترينا».

ونزلوا جميعاً من القارب، وبدأ للأنظار سقف مغطى بالقصب من وراء التل، وكان هذا هو بيت دانيلو وبيت أجداده، وقام من ورائه تل آخر ثم السهل المنبسط، وما كنت لتجد هناك قوزاقياً واحداً، وإن سرت مرتحلاً مائة ميل.



كان بيت دانيلو بين تلين في واد ضيق ينحدر حتى يبلغ نهر الدنيبر، وكان هذا البيت قليل الارتفاع مثل الأكواخ القوزاقية المتواضعة، ليس فيه إلا غرفة واحدة، ولكنه كان يسعه ويسع زوجته وخادمتها العجوز واثني عشر غلامًا من الغلمان المختارين، وكانت تلتف بالجدران من عل رفوف من خشب السنديان، تكدست فوقها الطاسات وأواني الطهي، ومن بينها كؤوس فضية وأقداح شراب رُصّعت بالذهب، وهدايا أو غنائم من غنائم الحرب، وعلقت تحت الرفوف سيوف وبنادق و«قربينات» ورماح نفيسة، أخذت طوعًا أو كرهًا من التتر والترك والبولنديين، وحملت كثيرًا من آثار الحرب، وكان دانيلو ينظر إلى هذه النفائس، فيرى فيها شواهد تذكره بالمواقع التي خاص غمارها. وامتدت أسفل الجدران أريكتان من السنديان صقلهما المسحج صقلًا، وقام المهد بجوارهما أمام أريكة الموقد، وقد عُلق بحبال تتدلى من حلقة ثبتت في السقف، ودق أديم الغرفة دقًا جيدًا وُعطي بطبقة من الطين.

وكان دانيلو وزوجته ينامان على الأريكتين والخادم العجوز على أريكة الموقد، ويلعب الطفل وتهدهده أمه حتى ينام في مهده، ويرقد الاثنا عشر غلامًا في صف واحد على الأرض، على أن أي قوزاقي لا يرضى بالأرض المنبسطة بديلًا، فهو ينام عليها في الهواء الطلق، ولا يحتاج إلى فراش من الريش أو وسادة، بل يكون شيئًا من القش الندي تحت رأسه ويتمدد على العشب كما يحلو له، وإن صدره لينشرح إذ يستيقظ في بهيم الليل ويتأمل السماء العالية المرصعة بالنجوم وتأخذه من برد الليل رعدة تنعش عظامه القوزاقية، ثم يشعل غليون، وهو يتمطى ويدمدم في نعاسه، ويحكم حوله غطاءه المصنوع من جلد الماعز.

ولم يستيقظ بورو لباس مبكرًا بعد ما أصاب من مرح في أمسه، فلما استيقظ جلس في ركن من الأريكة، وأخذ يشحذ سيفًا تركيًا جديدًا، كان قد قايض به لتوه، وشرعت كاترينا تعمل في تطريز منشفة من الحرير بخيوط من ذهب.

وهبط عليهما أبو كاترينا فجأة، غاضبًا مقطب الجبين، وقد وضع بين أسنانه غليونًا أجنبيًا ويمم شطر ابنته، وأخذ يسألها في صرامة عن السبب في عودتهما متأخرة كل التأخر في الليلة الماضية.

وقال دانيلو وهو ماضٍ في عمله:

«أي حماي، إن الذي يُسأل في ذلك هو أنا لا هي! أجل، إن الزوج هو المسؤول لا الزوجة، واسمح لي أن أقول: إن هذه هي السُّنة التي جرينا عليها هنا، ولست أدري، لعل السُّنة في بلاد الكفار تجري على غير هذا!«.

وتورد وجه حميه وتألقت عيناه ببريق وحشي.

وغمغم مخاطبًا نفسه: «من أولى بالسهر على البنت من أبيها؟
وليكن ما تريد، ولأوجهن السؤال إليك: أين كنت تهيم حتى تلك
الساعة المتأخرة من الليل؟».

«آه، هكذا يكون الخطاب يا حماي العزيز! وهأنذا أجيبك بأنني
شبيتُ عن الطوق منذ وقت طويل! وإني لقادر على أن أسوس الجواد،
كما أحسن استعمال السيف المرهف، فضلًا عن أمور أخرى أستطيعها،
وإني لقادر على أن أرفض تقديم حساب لأحد عما أفعل».

«إني لأعلم أنك تلتمس العراك يا دانيلو! فإن الرجل إذا أبى أن
يفصح كان صدره منطويًا على الشر».

فقال دانيلو: «فلفتكر كما تشاء ولأفكر أنا كما أشاء، وإني لأحمد
الله على أنني لم أشارك بعد في أي عمل مشين. لقد وقفت دائمًا أنا فح
عن مذهبي الأرثوذكسي وبلادي، ولم أنهج نهج بعض المشردين الذين
يضربون في الأرض، فلم يعلم مستقرهم إلا الله، ويتركون المسيحيين
الصالحين يهلكون حتى الموت، ثم يعودون ليجنوا ثمرة ما لم يزرعوه،
إنهم لأسوأ من الأونيّات، فهم لا يأتُمون أبدًا بكنيسة الله، وأولئك هم الذين
يجب أن يحاسبوا الحساب العسير على ضلالهم وما كانوا فيه يهيُمون».

«إيه أيها القوزاقي! هل علمت أنني لا أجيد الرماية، وإنما تخترق
رصاصتي القلب على مسيرة سبعمائة قدم! وليس لي أن أفخر ببراعتي
في السيف، فإني لأترك غريمي قطعًا أدق من الحب الذي يصنع منه
الثريد».

فقال دانيلو: «مرحبًا بك»، وراح في خفة يرسم بالسيف إشارة الصليب في الهواء، كأنما كان يعلم السبب الذي حمله على شحذه. وصاحت كاترينا صيحة عالية، وقد أمسكت بذراعه وتعلقت به: «دانيلو! تدبر ما أنت فاعل أيها المجنون، وانظر في وجه من ترفع يدك! أبتاه، لقد ابيض شعرك، فغدا ناصعًا كالثلج، ولكنك استسلمت للغضب كالفتى الطائش!».

فقال دانيلو مهددًا زوجته: «أيتها الزوجة! إنك لتعلمين أنني لا أَرْضَى عما تفعلين، فانصرفي إلى ما تنصرف إليه النساء!».

وصلصل السيفان صلصلة مخيفة، وتقارعت النصال وأثار القوزاقيان الشرر كأنه الغبار، وانطلقت كاترينا إلى غرفة مستقلة تبكي، وألقت بنفسها على الفراش، وسدت أذنيها كي لا تسمع صليل السيفين. على أن القوزاقيين لم يكونا يتقاتلان قتال الجبناء الرعايد حتى تستطيع أن تحمد صوت ضرباتهما، وأوشك قلبها أن ينفطر، وخَيَّلَ إليها أن صوت قعقة السيفين ينساب في جسمها كله: «كلا، كلا، إن هذا فوق ما أحتمل، أجل فوق ما أحتمل، ومن يدري؟ لعل الدم القاني يسيل الآن من الجسد الأبيض، ولعل زوجي العزيز الآن عاجز! لا حول له ولا قوة، وأنا أرقد هنا!»، وعادت أدراجها ممتعة الوجه لا تكاد تقوى على التنفس.

وكان القتال بين الرجلين رهيبًا تعادلت فيه الكفتان، ولم يتحقق لأحد من القوزاقيين الغلبة على الآخر، فقد كان أبو كاترينا يهاجم حينًا، فيبدو أن دانيلو على وشك الاستسلام، ويهاجم دانيلو حينًا آخر،

فيلوح على الوجه الغضوب أنه قد أشرف على الإذعان، ثم يعود القتال بينهما فيدور سجالاً. وكان الرجلان يتميزان غيظاً، ويلوحان بسيفهما، ويصلصل السيفان، ويتطاير النصلان مقععين من مقبضيهما.

وهتفت كاترينا: «حمداً لله!»، ولكنها عادت فصرخت عندما أبصرت القوزاقيين، وقد تناولا بندقيتهما، ووضعاً فيهما حجر الصوان، ثم رفعاً الزناد.

وأطلق دانيلا النار فأخطأ، وصب أبوها بندقيته، وكان رجلاً عالي السن لا يبلغ في حدة بصره مبلغ غريمه الفتى، إلا أن يده لم ترتجف، ودوت طلقة فترنح دانيلو وخضب الدم القاني الردن الأيسر من سترته القوزاقية.

وصاح دانيلو: «كلا! لن أستسلم بهذه السهولة، فإن اليد اليمنى هي التي تتخضب بالدم، ولدي غدارة تركية معلقة على الجدار لم تخني قط، فاهبطي إليّ أيتها الزميلة القديمة! وقدمي يدًا لصديقك»، ومد دانيلو يده.

فصاحت كاترينا في يأس وهي تمسك بيده، وتجتثو عند قدميه: «دانيلو! أتوسل إليك لا رحمة بي، فأني لا أعرف لي إلا نهاية واحدة، ولبئست الزوجة تبقى بعد أن يقضي زوجها، وليكونن نهر الدنيبر قبري، وفي مياهه الباردة مثواي، ولكن انظر إلى ابنك يا دانيلو، انظر إليه! من ذا الذي يدل هذا الطفل المسكين؟ ومن الذي يشمله برحمته؟ ومن يعلمه الركض على صهوة الجواد الأسود الأصيل، والقتال في سبيل الدين والحرية! والشرب والمرح كما يفعل القوزاق أجمعون؟ لتهلكن

يا بني، لتهلكن! فإن أباك لا يريد أن يفكر فيك! انظر كيف يدير رأسه، آه، لقد عرفتك الآن! إنك لوحش ضار ولست إنساناً! إن قلبك قلب ذئب وعقلك عقل ثعبان داهية، لقد كنت أحسب أن قلبك فيه ذرة من رحمة وأن صدرك الحجري ينطوي على شيء من المشاعر الإنسانية، ولكن واخيبة أمني فيك! تالله لينشرحن صدرك وترقص عظامك في القبر فرحاً حين تسمع الوحوش البولنديين الأنجاس يلقون بابنك في اللهب، وحين تسمع صرخات ولدك تعلوه السكين أو يغمره الماء الحار! آه، إني أعرفك! وأعرف أنك تُسرُّ إذ تقوم من قبرك وتزكي النار من تحته بقبعتك!«.

«كفي يا كاترينا! تعال يا حبة قلبي إيفان، ودعني أقبلك. كلا يا بني، لن يلمس أحد شعرة من رأسك، ولسوف تنمو ويشتد عودك وتكون فخراً لبلادك، ولسوف تطير كالعاصفة ومن ورائك القوزاق وعلى رأسك قبعة من المخمل وفي يدك سيف مرهف»، ثم مضى دانيلو يقول لأبي كاترينا الذي كان يقف بلا حراك ولا تظهر على وجهه سيماء الغضب أو أمارات المسالمة: «أعطني يدك يا أبت! ولننس ما دار بيننا! واسمح لي أن أسألك الصفح عما بدر مني في حقك. ما بالك لا تمد لي يدك؟».

وصاحت كاترينا، وهي تطوق أباهما بذراعيها وتقبله: «أبتاه! لا تكن غليظ القلب، واصفح عن دانيلو، ولن يعود أبداً إلى الإساءة إليك!». فأجاب أبوها وهو يقبلها وفي عينيه بريق غريب: «إنما الصفح عنه إكراماً لك وحدك يا ابنتي!».

وسرت رعدة خفيفة في جسم كاترينا، فقد بدا لها في قبلته وما
شاب عينيه من بريق نذير خطير، واستندت بمرفقيها على المنضدة
التي كان دانيلو يضمدها فوقها ذراعه الجريح، وراح زوجها يتمتم بأنه
أساء التصرف، ولم يفعل ما يفعله القوزاقي الحر، إذ طلب الصفح ولما
يقتترف ذنباً أو يأت نكراً.



وطلع الصبح، ولكن الشمس لم تشرق، وتلبدت السماء بالغيوم،
وأخذ الرذاذ يتساقط على السهول والغابة ونهر الدنيير الفسيح،
واستيقظت كاترينا وقلبها مثقل بالهموم وقد خضبت الدموع عينيها
وتملكها القلق والضجر.

«أي زوجي العزيز، يا زوجي الغالي! لقد رأيت رؤيا غريبة!».

«أي رؤيا، يا حبيبتى كاترينا؟».

«رأيت رؤيا غريبة، تجلت لي كأنها الحقيقة الواقعة، فقد تمثل لي
أن أبي هو ذلك الوحش الذي شاهدناه نفسه في منزل الصاغ، ولكني
أتوسل إليك لا تؤمن بهذا الحلم، فإن الإنسان يرى في أحلامه أوهامًا
وحماقات على اختلاف الألوان والأشكال، أجل، رأيت في المنام أنني
أقف أمامه مرتجفة الأوصال مأخوذة اللب، تئن عروقي لكل كلمة تخرج
من فيه، آه لو سمعت ما قال!».

«وماذا قال يا حبة قلبي كاترينا؟».

قال: «انظري إليَّ يا كاترينا، وتألمي مقدار حسني ووسامتي! إن
الناس ليخطئون بقولهم إنني دميم، ولشد ما أصلح زوجًا لك! ألا

ترين ما تجود به عيناى من نظرات»، ثم صوب إليّ عينين تتقدان نارًا،
فصرخت واستيقظت».

«أجل، فما أكثر ما تصدق الأحلام، ولكن أتعلمين أن الهدوء ليس
مستتبًا فيما وراء التلال؟ وإني لأحسب أن البولنديين بدأوا يظهرن مرة
أخرى، وقد بعث إليّ جوروييتس برسالة يوصيني فيها بالتزام اليقظة
والحذر، ولا عليه فإنني لست نائمًا، وقد أقام رجالي اثني عشر متراسًا
من الشجر الذي اجتثوه بليل، ولتتحفن الجنود من العامة ببرقوق من
الرصاص، أما الخاصة فسوف نحملهم على الرقص بالسياط».

«أو يعلم أبى بهذا؟».

«إن أباك ليثقل عليّ، وأنا لا أستطيع أن أخرج من صمته، ولا بد
أنه اقترف آثامًا كثيرة في البلاد الأجنبية، تُرى، أئمة سبب آخر يدعوه إلى
هذا الموقف؟ لقد أقام بيننا هنا أكثر من شهر لا يمرح قط كما يمرح
القوزاقي الحق، ويأبى أن يحتسي شراب العسل الأسود، الذي انتزعته
من اليهود في بريست»، ثم صاح دانيلو: «إيه يا غلام، اذهب إلى الكيلار
يا غلام وعجل، واثنتي بشراب اليهود! إنه يأبى أن يشرب حتى الفودكا!
فما قولك في هذا؟ إني لأعتقد اعتقادًا جازمًا يا سيدتي كاترينا أنه لا
يؤمن بالمسيح، فما رأيك أنت؟».

«لا يعلم إلا الله حقيقة ما تزعم أي زوجي دانيلو!».

ومضى دانيلو يقول وهو يتناول الكوز الفخار من القوزاقي: «ما
أعجب الأمر يا زوجتي، فإن الكاثوليك الأقدار أنفسهم يضعفون أمام
الفودكا، ولا يمتنع عن الشراب إلا الترك دون سواهم. إيه يا ستيتسكو،

أَوْ أَصَبْتَ جُرْعَةً طَيِّبَةً مِنْ شَرَابِ الْعَسَلِ فِي الْكَيْلَارِ؟».

«إِنَّمَا ذُقْتَهُ يَا سَيِّدِي».

«إِنَّكَ تَكْذِبُ يَا ابْنَ الْكَلْبِ! انْظُرْ كَيْفَ حَطَّ الذَّبَابُ عَلَى شَارِبِكَ!
وَإِنِّي لَأَرَى فِي عَيْنِكَ أَنَّكَ أَتَيْتَ عَلَى نَصْفِ سَطْلٍ مِنْهُ، إِيَّاهُ يَا لَكُمْ مِنْ
فَتْيَةٍ أَيُّهَا الْقَوْزَاقُ! وَمَا أَعْظَمَ تَهْوَرَكُمُ! يَجُودُ الْوَاحِدُ مِنْكُمْ لِمُصَاحِبِهِ بِكُلِّ
مَا يَمْلِكُ إِلَّا الْخَمْرُ يَحْتَفِظُ بِهَا لِنَفْسِهِ. لَقَدْ انْقَضَى عَلَى آخِرِ سَكْرَةٍ لِي
وَقْتُ طَوِيلٍ، أَيُّ زَوْجَتِي كَاتَرِينَا، أَلَيْسَ كَذَلِكَ؟».

«وَقْتُ طَوِيلٍ حَقًّا! وَي، لَقَدْ...».

«لَا دَاعِي، لَا تَرَاعِي، فَلْنِ أَشْرَبْ إِلَّا كَوْزًا وَاحِدًا»، ثُمَّ غَمِغَمَ وَقَدْ
أَبْصَرَ حِمَاهُ يَنْحَنِي لِيَدْخُلَ الْغُرْفَةَ: «هَـا هُوَ ذَا شَيْخِ الدَّرَاوِيْشِ التُّرْكِيِّ قَدْ
أَلَمَّ بِالْبَابِ!».

وَقَالَ الْأَبُ وَهُوَ يَخْلَعُ قُبْعَتَهُ وَيَسُوي حِزَامَهُ الَّذِي كَانَ يَتَدَلَّى مِنْهُ
سَيْفٌ مَرْصُوعٌ بِالْأَحْجَارِ الْكَرِيمَةِ: «مَا هَذَا يَا ابْنَتِي؟ لَقَدْ اعْتَلَّتِ الشَّمْسُ
كَبَدَ السَّمَاءِ وَلَمْ يُعَدَّ الْغَدَاءُ بَعْدَ!».

«إِنَّ الْغَدَاءَ جَاهِزٌ يَا سَيِّدِي وَسَنَقْدُمُهُ فِي الْحَالِ»، ثُمَّ مَضَتْ رَبَّةُ
الْبَيْتِ الشَّابَّةُ تَقُولُ لِلْخَادِمِ الْعَجُوزِ الَّتِي كَانَتْ تَمْسَحُ الطَّاسَاتِ الْخَشَبِيَّةَ:
«إِلَيَّ بِقَدْرٍ مِنْ لَقِيْمَاتِ الْقَاضِي! صَبْرًا، وَلَا تَيْنِ بِهَا بِنَفْسِي، وَادْهَبِي أَنْتِ
لِتُنَادِيَ الْغُلَمَانَ».

وَاسْتَوَوْا جَمِيعًا عَلَى الْأَرْضِ فِي حَلَقَةٍ، فَجَلَسَ الْأَبُ تَجَاهَ الْأَيْقُونَاتِ
وَعَنْ يَسَارِهِ دَانِيلُو وَعَنْ يَمِينِهِ كَاتَرِينَا وَعَشْرَةٌ مِنَ الْفَتَيَانِ الْأَخْيَارِ يَرْتَدُّونَ
سُرَاتٍ زَرْقًا وَصَفْرًا.

وقال الأب ملقيًا ملعقته بعد أن أصاب من الطعام قليلًا: «لا أحب لقيمات القاضي، فليس فيها نكهة ولا طعم».

وقال دانيلو بينه وبين نفسه: «إنني لأعلم أنك تؤثر عليها حساء اليهود»، ثم مضى يقول في صوت مرتفع: «ما لك تقول: إن لقيمات القاضي قد خلت من الطعم يا حماي؟ أتراها سيئة الصنع أم ماذا؟ إن زوجتي كاترينا تصنع من لقيمات القاضي ما لم يذق مثله شيخ القرية نفسه إلا قليلًا، وما من داع يقتضيك الزراية بهذه اللقيمات، فإنها طعام مسيحي، يصيب منه القوم الصالحون والقديسون الأبرار جميعًا».

ولم ينبس الأب ببنت شفة، وأمسك دانيلو فلم يزد حرفًا.

وقدّ لحم الخنزير المشوي بالكربن والبرقوق.

وقال أبو كاترينا وهو يتناول ملء ملعقة من الكرب: «لا أحب لحم الخنزير!».

فقال دانيلو: «لم لا تحب الخنزير، إنما الترك واليهود هم الذين لا يأكلون لحم الخنزير».

وقطب الأب حاجبيه، وزاد غضبًا على غضب.

ولم يصب من الطعام إلا قليلًا من ثريد الحنطة السوداء الممزوج باللبن، واستعاض عن الفودكا بسائل أسود في زجاجة أخرجها من صدره.

ونام دانيلو بعد الغداء نومًا عميقًا ولم يستيقظ إلا قرب المساء، وجلس يكتب إلى معسكر القوزاق، واستوت زوجته الشابة على أريكة

الموقد تهز المهده بقدمها. أجل جلس دانيلو في مكانه وعينه اليسرى على ما يكتب، وعينه اليمنى تطل من النافذة، وقد أبصر من خلال النافذة على مسافة بعيدة، التلال المتلاثلة ونهر الدنيير، تمتد خلفه الغابة الزرقاء الداكنة. وكانت السماء في تلك الليلة الصافية الأديم تتألق فوقه، ولكن دانيلو لم يكن يحدق النظر في السماء البعيدة أو في الغابة الزرقاء، بل كان يرقب لسان الأرض الذي يقوم عليه الحصن القديم، فخيّل إليه أن ضوءاً يتلألأ في نافذة صغيرة ضيقة من نوافذ الحصن، على أن السكون كان شاملاً، فلا جرم إذن أن يكون ما تراءى له وهمًا من الأوهام؛ ذلك أنه لم يسمع إلا همهمة نهر الدنيير العميقة تنساب مياهه من تحته وصوت تكسر الأمواج يتجاوب في الفضاء وبعضها يلاحق بعضًا، ولم يكن النهر يفعل ذلك عن اضطراب، بل يغمغم ويدمدم كالرجل العجوز، لا يجد شيئاً يروق له، فقد تغير كل شيء من حوله، واشتبك في عراق دائم والتلال والغابات والمروج التي تحف بصفتيه، وحمل شكاته منها إلى البحر الأسود.

ورأى دانيلو على صفحة الدنيير العريضة قاربًا بدا كالنقطة السوداء، ثم عاد الضوء يتلألأ في الحصن، وأطلق دانيلو صفيراً خافتاً فهرع إليه الخادم المخلص.

«أسرع يا ستيتسكو واثبت بسيف مرهف وبندقية واتبعني!».

وسأله كاترينا: «أو عزمت على الخروج؟».

«أجل يا زوجتي، فإن الواجب يقتضي أن ألقى نظرة على كل ناحية، وأستوثق من أن كل شيء يسير على ما يرام».

«ولكنني أخشى البقاء هنا وحدي، وقد أثقل النوم جفني، وماذا

يكون من أمري إذا رأيت الرؤيا نفسها مرة أخرى؟ ثم إنني لا أؤمن أبدًا بأنها رؤيا، فقد بدت لي حقيقة واقعة».

«لتبقين معكِ المرأة العجوز، وهناك ينام القوزاقي في الغرفة الخارجية وفي الفناء».

«لقد استغرقت المرأة العجوز في النوم فعلاً، وأنا لا أثق في القوزاق لأمر ما، أفلا تستمع لي يا زوجي دانيلو، وتغلق باب الغرفة من دوني وتأخذ المفتاح معك فلا يستبد بي الخوف، وتدع القوزاق يرقدون أمام الباب؟».

وقال دانيلو وهو ينفض التراب عن بندقيته ويحشوها بالبارود: «ليكن ما تشائين!».

وكان ستيتسكو الأمين قد وقف مجهزاً بكل ما يتزود به الرجل القوزاقي من عتاد، ووضع دانيلو قبعته المصنوعة من فراء أستراخان على رأسه، وأوصد النافذة، ثم أغلق الباب بالمزلاج وأقفله، ومضى في رفق يلتمس طريقه بين أتباعه القوزاق المستغرقين في النوم، واجتاز الفناء ميمماً شطر التلال.

وكانت السماء قد صفا أديمها أو كاد. وهب من نهر الدنيبر نسيم عليل، وخيم السكون فلا تسمع نائمة ولا صوتاً إلا نواح نورس يتردد في الفضاء البعيد، ثم انبعث في الجو فجأة حفيف خافت، فاخْتَبَأَ بورو لباش وخادمه الأمين وراء الحسك الذي كان يخفي متراساً من الأشجار المجتثة؛ ذلك أن شخصاً كان يهبط سفح التل مرتدياً سترة حمراء وقد حمل غدارتين وتدلّى على جانبه سيف.

وقال دانييلو وقد شخص ببصره فيه من خلف الشجيرات: «إنه حمائي! ترى أين يذهب هذه الساعة وماذا يدبر؟ إيه يا ستيتسكو، لا تدعه يغيب عن بصرك، وانظر أي طريق يسلك».

وهبط الرجل ذو السترة الحمراء ضفة النهر، ثم انعطف متجهًا إلى لسان الأرض.

فقال دانييلو: «آه، إذن فهذا هو مقصده! وي يا ستيتسكو! لقد مضى إلى وكر الساحر!».

«تالله إنه لا يقصد سواه يا مولاي دانييلو! وإلا رأيناه على الجانب الآخر، ولكنه اختفى قرب القصر».

«لنبرزن من مخبئنا ونقتف أثره، فإن وراء الأكمة ما وراءها، وي يا كاترينا، ألم أقل لك: إن أباك رجل شرير لا يسلك في شيء مسلك المسيحي الصالح؟».

ومرق دانييلو وخادمه الأمين مجتازين لسان الأرض، وسرعان ما غابا عن الأنظار في طوايا الغابة الكثيفة التي تكتنف الحصن. وتألق ضوء في النافذة العليا، ووقف القوزاقيان تحتها يلتمسان سبيلاً إلى تسلقها؛ ذلك أنهما لم يريا بوابة أو باباً، وما من ريب في أنه كان في الفناء باب، ولكنهما حارا كيف يتسلقان السور إليه؟ لقد كان يبلغ آذانهما على البعد صليل السلاسل وتفزز الكلاب.

وقال دانييلو وقد رأى شجرة سنديان كبيرة تقوم تجاه النافذة: «ما بالي أضيع الوقت؟ إبق هنا يا غلام! لأتسلقن شجرة السنديان؛ حتى

أستطيع أن أرى مباشرة ما بداخل الغرفة».

وخلع حزامه ووضع سيفه على الأرض حتى لا يصلصل، ثم أمسك بالغصون ورفع نفسه، وكان الضوء لا يزال يتألق ثم استوى على غصن قريب من النافذة، وأمسك بالشجرة، ونظر في الغرفة، فوجد فيها ضوءاً وإن خلت من الشموع وكان على الجدران رموز خفية وأسلحة معلقة، ولكنها كانت جميعاً عجيبة تخالف ما يحمله الترك أو أهل القريم أو البولنديون أو المسيحيون أو السويديون النبلاء. وكانت الخفافيش تمرق تحت السقف روحة وجيئة، فتنعكس ظلالها على الأرض والأبواب والجدران مقبلة مدبرة كلمح البصر، ثم انفتح الباب في سكون، ودخل رجل يرتدي سترة حمراء، ويمم شطر المائدة مباشرة، وكانت مغطاة بمفرش أبيض: «إنه هو! إنه حماي!»، وانزلق هابطاً قليلاً، وازداد بالشجرة التصاقاً.

ولكن حماه لم يكن لديه متسع من الوقت ليرى هل كان أحد يختلس النظر إليه من خلال النافذة؟ فقد أقبل على الغرفة مكتئباً كاسف البال، ونزع المفرش عن المائدة، فامتلأت الغرفة في الحال بضوء أزرق شفاف، ولكن أمواج الضوء الذهبي الشاحب التي غمرت الغرفة كانت تطغي، ثم تنحسر كمياه البحر الأزرق، فلا تمتزج به، بل تتخلله سباحة في خطوط كالعروق تجري في صميم المرمر، ثم وضع الرجل قدراً على المائدة، وراح يلقي ببعض الأعشاب فيها.

وأنعم دانيلو النظر، فوجده قد نضا عنه السترة الحمراء، وارتدى سروالاً فضفاضاً كالذي يرتديه الترك، وحمل غدارتين، ووضع على

رأسه قبعة غريبة طرزت جميعاً بحروف لا هي بالروسية ولا بالبولندية، وتطلع دانيلو إلى وجهه، فوجده قد بدأ يتغير، واستطال أنفه وتدلى على شفتيه، ولم يلبث فمه أن بلغ أذنيه، وبرزت سن ملتوية من بين شفتيه، وتمثل أمامه الساحر الذي ظهر في حفلة زفاف ابن الصاغ، وراح بورو لباس يحدث نفسه قائلاً: «لقد صدقت رؤياك يا كاترينا!».

وشرع الساحر يدور حول المائدة، وأخذت الرموز التي على الجدران تمضي في التغير، وازدادت سرعة الخفافيش في مروجها محلقة هابطة ورائحة غادية، وبدأ الضوء الأزرق يخفت ثم يخفت حتى بدا للأنظار أنه قد تلاشى أو كاد، ثم انبعث في الغرفة ضوء وردي جميل، وتراءى للعين أن هذا الضوء العجيب راح يغمر كل ركن من أركان الغرفة في صوت يتجاوب رنينه خافتاً رقيقاً. ثم غاب الضوء، وساد الغرفة ظلام دامس، وخيم السكون إلا من همهمة كصوت الريح تنطلق في هدأة الليل مرفرفة فوق صفحة الماء الساجي، فتميل شجرة الصفصاف الفضي حتى تدفع به إلى أحضان الماء. وخيّل إلى دانيلو أن القمر يتألق في الغرفة والنجوم تسبح خلالها، وتطوف بها لمحات خفية من زرقاء السماء الداكنة، بل هو قد أحس بلفحة من برد الليل تهب عليه منها، ومر بخياله طائف جعله يشد شاربته ليستوثق من أنه ليس في منام، فقد تراءى له أن السماء التي كان يراها من خلال النافذة وقد ولت وحل محلها بيته هو، وقد تدلت على جدرانها سيوفه التترية والتركية، والتفت بالجدران رفوف حوتٍ قدور الطهي وأوانيها، وعلا المائدة خبز وملح، وتدلى المهد من السقف، ولكن وجوهاً مخيفة كانت تطل بدلاً

من الأيقونات، ورقد على أريكة الموقد ثم هبط ضباب كثيف فحجب هذا كله، وعاد الظلام فأسدل ستاره، وانبعث الضوء الوردي في صوت عجيب فغمر الغرفة من جديد، ثم تجلى الساحر مرة أخرى، ووقف بلا حراك مرتدياً عمامته الغريبة، وزادت الأصوات ارتفاعاً وعمقاً، وتألّق الضوء الوردي الرقيق وتألّق. ورفرف في وسط الغرفة شيء أبيض كالغمامة، وخيّل إلى دانيلو أن الغمامة لم تكن غمامة، وإنما هي امرأة قد تمثلت للعين هناك، ولكن ممّ صنّعت؟ أمن الهواء حقاً؟ وما بالها وقفت دون أن تمس الأرض أو تستند على شيء؟ ولم شفت حتى بدا من خلالها الضوء الوردي والرموز السحرية التي على الجدار؟ وما هي ذي تحرك الآن رأسها الشفاف، ويتألّق في عينيها الزرقاوين الباهتتين ضوء رقيق، وقد تجعد شعرها ثم استرسل على كتفيها كأنه ضباب رمادي شاحب، واصطبغت شفتها بحمرة خفيفة كشقشقة الفجر، يخيل الأنظار بنوره القرمزي يومض من خلال السماء الصافية يصبح، وكان حاجباها الأسودان لا يظهران إلا لماماً، آه! لقد كانت هي كاترينا! وأحس دانيلو بأطرافه تتجمد حتى غدت كالحجر، وحاول أن يتكلم، ولكن شفّتيه تحركتا في صمت ولم ينطلق منهما أي صوت.

ووقف الساحر ساكناً لا يريم.

ثم ألّقى عليها بالسؤال وقد وقف طيفها أمامه يرتعد: «أين كنت؟». فأنت في صوت رقيق: «واهاً لي! لماذا دعوتني؟ لقد كنت في غاية السعادة، أجل كنت في المكان الذي ولدت فيه وأقمت بين ربوعه خمسة عشر عاماً، آه، ألا ما أطيّبه من مكان! ويا للمرج الأخضر الفياح

الذي ألقت أن ألعب فيه إبان طفولتي! لقد وجدت الأزهار البرية الحبيبة كعهدي بها دائماً. ولا تسلم عن كوخنا وحديقتنا! وآه من الحنان الذي غمرتني به أمي وهي تطوقني بذراعيها! ويا للعجب الذي تجلى في عينيها! لقد دلتني وطبعت قبلة على شفتي وعلى وجنتي، ومشطت شعري الأشقر بمشط جميل!»، ثم حدثت الساحر بعينيها الباهتتين قالت: «لم ذبحت أمي؟».

وهز الساحر إصبعه في وجهها مهدداً، وقال: «أو قد سألتك أن تتحدثي في هذا الأمر؟»، وارتعدت الروح الجميلة الشفافة: «أين سيدتك الآن؟».

«لقد استسلمت سيدتي كاترينا للنعاس، فسررت لذلك ووليت هاربة، ذلك أنني كنت مشوقة منذ سنوات طويلة إلى رؤية أمي، وقد عدت فتاة في الخامسة عشرة من عمري، وهأنذا أحس بأني أصبحت في خفة العصفور، لم أرسلت في طلبتي؟».

وقال الساحر في صوت رقيق هامس يصعب على الأذن أن تبين كلماته: «أتذكرين كل ما قلته لك بالأمس؟».

«أذكره! أذكره! ولكنني لا أبخل بشيء في سبيل نسيانه، مسكينة كاترينا! إنها لا تعلم كثيراً مما تعلمه روحها؟».

وقال دانيلو بينه وبين نفسه: «إذن فهذه روح كاترينا!» ولكنه لم يأنس في نفسه الجراءة على الإتيان بأي حركة.

«تب يا أبت واستغفر! أليس من المفزع أن يقوم الموتى من قبورهم بعد كل جريمة قتل تقتربها؟».

فقال الساحر مهدداً: «لقد عدتِ إلى سيرتكِ الأولى! لأسلكن السبيل التي أشاء، ولأحملنكِ على فعل ما أريد، ولسوف تجبني كاترينا!». .

فتأوهت هاتفة: «تبّاً لك! إنك لوحش ولست بأبي، كلا! لن يكون لك ما تريد! صحيح أن سحرك الدنس يهب لك من القوة ما تستطيع به أن تستحضر روحها وتعذبها، ولكن الله وحده هو الذي يستطيع أن يسيرها كما يشاء، حاشى! كاترينا لن تنزل إلى اقتراف هذا الإثم ما دمت أحل في جسدها. أبتأه! لقد دنت ساعة القصاص الرهيب! وهيهات أن تحملني على خيانة زوجي المخلص المحبوب، وإن كنت شخصاً آخر غير أبي. ولو قد عقني زوجي، وتنكر لعهدي ما خنته، فإن الله لا يحب من يخلف وعده وينكر العهود والمواثيق»، ثم تعلقت عيناها الشاحبتان بالنافذة التي ربض دانيلو من تحتها، ووقفت ساكنة لا حراك بها.

وصاح الساحر: «فيمَ تحديق النظر؟ ومن ذا الذي ترينه هناك؟».

واضطرب طيف كاترينا، إلا أن دانيلو كان قد هبط إلى الأرض، وانطلق هو وخادمه الأمين ستيتسكو، يشق الطريق إلى داره في الوادي، وغمغم يقول بينه وبين نفسه وقد أحس برعدة تسري في قلبه القوزاقي: «يا للفضاعة! يا للفضاعة!»، واجتاز في عجلة فناء داره، فوجد القوزاق قد استسلموا للنوم فيه كشأنهم، إلا واحداً جلس يسهر عليهم وهو يدخن غليونيه.

وكانت السماء مرصعة بالنجوم.



وهتفت كاترينا وراحت تمسح عينيها بردن قميصها المطرز،
وتحديق في زوجها بنظراتها وهو واقف قبالتها: «لشد ما أبهج قلبي
أنك أيقظتني! ألا ما أبشع الحلم الذي رأيته! لقد أوشك أن يزهد مني
الأنفاس! أواه! لقد ظننت أنني أحتضر».

«وكيف كان حلمك؟ كان هكذا؟»، وراح بورو لباس يحدث
زوجته بكل ما رأى.

وسأله كاترينا في دهشة: «إيه يا زوجي، كيف عرفت حلمي؟
ولكن كلا، فإني لا أعرف الكثير مما حدثتني به، أجل، لم أر في حلمي
أن أبي قتل أُمي، ولم أشهد الموتى في رؤياي، كلا يا دانييلو، إنك لم
تسرد الحلم على حقيقته، أواه! ويا لأبي من رجل مخيف!».

«ما من عجب أنك لم تحلمي بما رأيته، وإن ما تعرفينه لا يبلغ عشر
معشار ما تعرفه روحك، أتعرفين أن أباك عدو المسيح، فقد حدث في
العام الماضي وأنا أتأهب للانضمام إلى صفوف البولنديين في الحرب
التي شنوها على أهل القريم وكنت آتئذ لا أزال حليفًا لأولئك القوم

الكافرين - أن علمت من رئيس رباط الأخوة (وهو يا زوجتي رجل تقي ورع) أن عدو المسيح له سلطان على الأرواح، فهو قادر على استحضار أرواح الناس جميعاً، ذلك أن الروح تهيم كما تشاء حين يخلد الجسم إلى النوم، وتطوف مع رؤساء الملائكة حول عرش الله، وقد كرهت وجه أبيك مذ وقع عليه بصري لأول وهلة، وما كنت لأتزوجك لو عرفت أن لك أباً على هذه الشاكلة، فقد كان أولى بي أن أهجرك، ولا أحمل ضميري وزر الاقتران بريبة عدو للمسيح».

فصاحت كاترينا وقد أخفت وجهها بيديها وانفجرت باكية: «أي دانيلو! ما الذي تأخذه عليّ؟ أو قد خنت عهدك يا زوجي المحبوب؟ وأي ضير ارتكبت حتى أثرت غضبك؟ ألم أصدق في خدمتك؟ وهل كانت تبدر مني كلمة واحدة حين تعود مرحاً من سكرة؟ ألم ألد لك ابناً مشرق الوجه ضاحك الجبين؟».

«لا تبكي يا كاترينا، لقد عرفتِك الآن، وما من شيء يحملني على هجرانك، وإنما الوزر وزر أبيك وحده».

«لا تقل إنه أبي! فما هو بأبي! والله على ما أقول شهيد، إنني أنكره! أجل أنكر أبي! فهو عدو للمسيح، وقد عصى الله! ولو قد رأيته يهلك أو يغرق ما مددت يداً لإنقاذه، ولئن ألهب عشب سحري حلقه ما ناولته قطرة من ماء، وليس لي من أب سواك!».



وكان الساحر مقيّدًا بالسلاسل الحديدية يرقد في جب عميق تحت الأرض بدار دانيلو وقد أوصد من دونه باب أحكم إغلاقه بثلاثة أقفال، وأخذت النار تشتعل في قصره الجهنمي الذي يعلو نهر الدنيبر، وراحت أمواج النهر تصطخب وتفور حول الجدران متوهجة كالدم القاني، ولم يكن ما نزل بالساحر من حبس في هذا الجب القائم تحت الأرض جزاء له على السحر الذي يمارسه أو الأعمال الشريرة التي يقترفها، فإن الله وحده هو مجازيه على هذه الأفعال، وإنما كان السبب في حبسه هو خيانتة للعهد سرًّا؛ ذلك أنه كان قد تأمر هو وأعداء روسيا الأرثوذكسية على بيع الشعب الأوكراني إلى الكاثوليك وإحراق الكنائس المسيحية. لقد كان الساحر مكتئبًا كاسف البال تطوف بذهنه أفكار سود كالليل البهيم، ولم يبق له في هذه الدنيا إلا يوم واحد، فقد كان ينتظر مصيره غداً، ويا له من مصير رهيب أرحم ما فيه أن يُلقى به حيًّا في مرجل يغلي حتى يموت أو يسلم عنه جلده الآثم، لقد كان الساحر مغتمًا مهمومًا منكس الرأس، ولعله كان يتوب ويستغفر وقد أصبح على حافة القبر، ولكن ذنوبه لم تكن بالذنوب التي يغفرها الله. وكانت من فوقه نافذة

صغيرة يغشاها شباك من حديد، وتطلع الساحر من النافذة راسفًا في أغلاله المصلصلة آملًا أن تكون ابنته، تلك الحمامة الوديدة البريئة، مارة بمحبسه، فتدركها الرحمة بأبيها، ولكنه لم يجد أحدًا. وكان الطريق يمر تحت النافذة مقفّرًا لا يجتازه مخلوق، وإنما يجري من تحته نهر الدنيبر يضطرب غير حافل بأحد، ويهمهم ويهدر ويبلغ صوت رشاشه الرتيب مسامع السجين كثيرًا موحشًا.

ثم ظهر شخص يسير في الطريق، وكان هذا الشخص رجلًا من القوزاق، وتنهّد السجين من أعماق قلبه، وعاد الطريق فخلا من المارة، ثم بدا شخص يهبط التل، ورفرف معطف أخضر بفعل الريح، وتألّق على رأس صاحبه غطاء ذهبي، لقد كانت هي! واقترب المعطف من النافذة شيئًا فشيئًا، وتبين أنها أخذت تدنو من السجين الآن.

«أي ابنتي كاترينا! ارثي لحالي وارحميني!».

ولزمت كاترينا الصمت المطبق، وأبت أن تنصت، ولم تلتفت إلى السجين تلقى عليه نظرة، ثم مرت به واختفت، وأقفرت في عينيه الدنيا بأسرها، وأخذ نهر الدنيبر يهدر في وحشة وكآبة، ويثقل القلب بحمل من الحزن والأسى، ولكن تُرى هل كان الساحر يعرف شيئًا من هذا الحزن؟

كان النهار يلفظ أنفاسه الأخيرة والشمس تولي، ولم تلبث أن اختفت، وحل المساء، وأصبح الجو رطبًا منعشًا، وانبعث ثور يخور في مكان ما، وانطلقت أصوات تسبح من بعيد، ولا شك أنها كانت لقوم يعودون من العمل إلى ديارهم وهم يمرحون، وتراءى للأبصار

قارب يشق عباب نهر الدنيير، ولم يفكر أحد في أمر ذلك السجين المقيد بالأصفاد، وأخذ هلال فضي يتألق في السماء، وأقبل إنسان من الجهة المقابلة يسير في الطريق، ويتعذر على العين أن تستبين شكله في الظلام، وكان هذا الإنسان هو كاترينا تعود أدراجها.

«أي ابنتي، هلا تستمعين إليَّ بحق المسيح! إن صغار الذئاب المتوحشة نفسها لا تمزق أمها إربًا إربًا، أي ابنتي! هلا تجودين بنظرة واحدة على أبيك الآثم!».

ولكنها لم تحفل به، ومضت في طريقها!
«أي ابنتي، إني أستحلفك بأملك الشقية!».
فتوقفت.

«ادني مني واستمعي لكلماتي الأخيرة!».

«لماذا تناديني يا عدو الله؟ لا تقل يا ابنتي! فليس بيننا قرابة ولا نسب! ماذا تريد مني حتى تستحلفني بأمي الشقية؟».

«كاترينا، لقد اقتربت نهايتي، وإني لأعلم أن زوجك يريد أن يربطني بذيل فرس برية ويطلقها تركض في الخلاء، ومن يدري؟ لعله يدبر لي مصيرًا أشد هولًا من هذا المصير!».

«ولكن أفي هذه الدنيا قصاص يجزيك الجزاء العادل على ما ارتكبت من آثام؟ ألا فلتنتظر ما يحل بك من قصاص، ولن يطلب أحد لك الرحمة».

«كاترينا، أنا لا أخشى القصاص في هذه الدنيا، وإنما الذي أخشاه هو عذاب الآخرة. كاترينا، إنكِ لطاهرة نقية، ولسوف ترفرف روحكِ حول عرش الله في الفردوس، وأما روح أبيكِ الشريرة فسوف تحترق في نار لا تنطفئ لها جذوة ولا يخمد لها أوار، بل تزداد ضراماً على ضرام، فلا تجودها قطرة من ندى، أو تمر بها نسمة من ريح!».»

فقالت كاترينا مشيخة عنه: «لا حيلة لي في التخفيف من عذابكِ».

«كاترينا! صبراً، فقد بقيت لي كلمة واحدة! في وسعكِ أن تنقذي روحي، فإنكِ لا تعرفين بعد مبلغ ما تصل إليه رحمة الله وكرمه، ألم تسمعي قصة بولس الرسول؟ لشد ما لج هذا الرجل في الإثم، ولكنه تاب بعد ذلك وأناوب، فدخل في زمرة القديسين الأبرار!».»

فقالت كاترينا: «وماذا أستطيع أن أفعل لأنقذ روحكِ؟ وكيف يجوز لي أنا المرأة الضعيفة أن أفكر في هذا؟».

«لو استطعت الخروج من سجنني لنبت كل شيء، وتبت إلى الله، ولذت بكهف واكتفيت بقميص من الشعر ألقيه على جسدي، وأقمت الصلاة لا أنقطع عنها ليلي ولا نهاري. أجل لو حدث هذا لأمسكت عن أكل اللحم بل السمك أيضاً! وافترشت الغبراء في منامي، ومضيت أصلي وأصلي بلا انقطاع! ولو اقتضت مشيئة الله ألا يغفر برحمته من ذنوبي إلا أيسر اليسير لدفنت نفسي في الأرض حتى عنقي، أو حبستها في سجن عليه أسوار من الحجارة، وامتنعت عن الطعام والشراب حتى ألقى حتفي، ووهبت للرهبان متاعي جميعاً لعلهم يرتلون الصلوات على روحي أربعين يوماً وأربعين ليلة».

وفكرت كاترينا قليلاً ثم قالت: «إذا كنت أستطيع أن أخرجك من محبسك فكيف أستطيع أن أفك قيودك؟».

فقال: «إنني لا أخشى الأغلال، أتقولين: إنهم قيدوا يدي وقدمي؟ كلا، فقد ألقيت على عيونهم غشاوة ولم ألق لهم بيدي، وإنما مددت لهم خشبتين جافتين». ثم مضى يقول وهو يسير إلى وسط القبو: «هاك، انظري! فما من قيد يغل الآن يدي أو قدمي! وما كنت لأخشى هذه الجدران أيضاً فإني أستطيع أن أنفذ منها، ولكن زوجك لا يعرف سر هذه الجدران، قد بناها ناسك ورع، وما من قوة من قوى الشر بقادرة على أن تخلص منها سجيناً إلا إذا توسلت بالمفتاح الذي جرى الناسك على أن يغلق به هو نفسه صومعته، تلك الصومعة التي سألني مثلها سواء بسواء، أنا الآثم الممعن في الإثم، حين أملك حريتي مرة أخرى».

فقالت كاترينا وهي تقف ساكنة بالباب: «استمع إلي، فإني مطلقة سراحك، ولكن ماذا يكون لو خدعتني ولم تتب وعدت كما كنت ربيباً للشيطان؟».

«حاشا يا كاترينا، فلم يبق في أجلي إلا القليل، لقد دنت نهايتي وإن لم يقتصوا مني بالقتل، أتصدقين أنني عولت على أن أسلم القصاص الأبدي نفسي؟».

وصرف المفتاح في القفل.

وقال الساحر وهو يقبلها: «وداعاً! وليكلاك الله بعنايته ورحمته يا ابنتي!».

وقالت كاترينا: «لا تلمسني أيها الآثم الزنيم، واذهب وعجل!».

وولى الساحر.

وقالت كاترينا تحدث نفسها وقد استبد بها الرعب، وأخذت تنظر إلى الجدران نظرة زائغة: «ماذا دهاني حتى أطلقت سراحه؟ وماذا أقول لزوجي الآن؟ لقد أصبحت من الهالكين، ولم يبق لي إلا أن أدفن نفسي حية!»، وانبعثت تبكي وتتنحب وأوشكت أن تسقط على كتلة الخشب التي كان السجين يجلس عليها، ثم مضت تقول في صوت رقيق: «ولكنني أنقذت روحًا، فأتيت بذلك عملاً صالحًا، إلا أنني خدعت زوجي للمرة الأولى، أواه! ما أفظع ما أتيت! وما أشد على نفسي أن أكذب عليه! وي! إن شخصًا يقترب! إنه هو زوجي!»، وصرخت صرخة تفيض باليأس والقنوط، وسقطت على الأرض فاقدة الوعي.



وما إن ثابت كاترينا إلى رشدها، حتى رأت الخادم العجوز، وسمعت صوتًا يهتف بها: «إنني أنا هي، يا ابنتي! إنني أنا هي يا حبيبتي!»، وانحنت المرأة عليها، وبدا أنها تهمس بشيء في أذنها، ومدت يدها الراهنة الذابلة ونضحتها بالماء.

وقالت كاترينا وهي تجلس ملتفتة حولها: «أين أنا؟ إن نهر الدنيبر يهدر أمامي، والتلال تقوم من خلفي، فإلي أين أخذتني؟».

«لقد نقلتك إلى خارج البيت، وحملتكِ بين ذراعي من القبو الخانق، ثم عدت فأغلقت القبور حتى لا يسيء إليك سيدي دانيلو».

وقالت كاترينا وهي تنظر إلى حزامها: «وأين المفتاح، فإني لا أراه؟».

«لقد أخذه زوجك ليلقي نظرة على الساحر يا ابنتي».

فصاحت كاترينا تقول: «ليلقي نظرة على الساحر! إذن فقد هلكت!».

«فلينقذنا الله برحمته من هذا البلاء يا ابنتي! وحسبك أن تتذرعني بالصمت يا سيدتي الصغيرة، فلا يعرف أحد من هذا الأمر شيئاً».

وقال دانيلو وهو يمضي إلى زوجته: «لقد هرب الملعون عدو المسيح! أسمعيني يا كاترينا؟ لقد هرب!»، وانبعث الشرر من عينيه، وأخذ سيفه يقعقع إلى جانبه، أما زوجته فكانت أقرب إلى الأموات منها إلى الأحياء.

وغمغمت وهي ترتعد: «أو أطلق سراحه أحد يا زوجي العزيز؟». «أجل، لقد صدق ظنك، فإن الشيطان هو الذي أطلقه من محبسه، انظري، لقد ترك مكانه كتلة من الخشب مصفدة بالأغلال، ويخيل إليّ أن مشيئة الله قد قضت ألا يخشى الشيطان يد رجل من القوزاق! ولو قد دار بخلد أحد أن يأتي مثل هذا الفعل وعلمت بأمره، ما وجدت عقاباً أستطيع أن أجزيه به!».

ولم تستطع كاترينا أن تقاوم رغبتها في السؤال: «وإذا كنت أنا التي فعلت هذا...؟». ثم كفت عن الكلام وقد تملكها الفزع.

«لو كنت فعلت هذا ما أصبحت زوجتي، ولوضعتك في كيس، ثم خطته من دونك، وقذفت بك في عرض الدنير».

ولهشت كاترينا مبهورة الأنفاس، وأحست بشعرها يقف على رأسها.



وكان البولنديون قد تجمعوا في حانة على طريق الحدود، وظلوا يحتفلون فيها يومين لا يخالطهم من الغوغاء إلا القليل، وما من شك في أن اجتماعهم كان لغارة يشنونها، فقد حمل بعضهم البنادق، وانبعثت المهاميز تجلجل والسيوف تصلصل، وأخذ الأعيان يمرحون ويتفاخرون، ويتشدقون بما أتوه من عجيب الفعال، ويسخرون بالمسيحيين الأرثوذكس، ويسمون الأوكرانيين عبيدهم، ويفتلون شواربهم في قحّة، ويتمرغون على الآرائك. وكان من بينهم قسيس، ولكنه كان على شاكلتهم لا تبدو عليه سمة واحدة من سمات القسيس المسيحي، فقد كان يشرب معهم وينادهم، ويجري لسانه الآثم بكلمات يندى لها الجبين خجلاً.

ولم يكن الخدم أحسن حالاً من أسيادهم، فقد شمروا عن أردان سترتهم المهلهلة، وراحوا يسيرون متبخرين كأنهم من ذوي الجاه والخطر، ويلعبون الورق ويضرب كل منهم الآخر بالورق على أنفه، وكانوا قد جاءوا معهم بزوجات غيرهم، يعمي العيون، واختلط الحابل

بالنابل، إلا أن القوزاق كانوا في قمة مرحهم، يأتون من الألاعيب أشكالا
وألوانا فيجذبون صاحب الحانة اليهودي من لحيته، ويرسمون بالطلاء
صليبا على جبينه الفاجر، ويرمون النساء بطلقات فارغة من البارود،
ويرقصون الرقصة الكراكوفية مع قسيسهم الزنديق. ولم تشهد الأرض
الروسية من قبل مثل هذا الإثم حتى بين التتر، ولعل الله قد اقتضت
مشيئته أن ينزل بروسيا هذا الخزي العظيم على ما اقترفت من آثام. وكان
يُسمع في غمرة هذه العربدة الشبيهة بعردة المجانين لغط صادر عن دار
دانيلو التي تعلو نهر الدنيبر وعن زوجته الحسناء.

وكان من الجلي أن هذه العصابة تدبر أمورا شنعاء.



وجلس دانيلو على المائدة في داره وقد استند إلى مرفقه، واستغرق في تأملاته، وجلست كاترينا على أريكة الموقد تغني.

وقال دانيلو: «أي زوجتي، إنني لحزين، مصدع الرأس كسير القلب، وقد انهضت مني الجسم حتى يبدو لي أن منيتي أصبحت قريبة». وكانت كاترينا تريد أن تقول: «أواه! يا زوجي الحبيب! أسند رأسك عليّ! ما بالك تستسلم لمثل هذه الأفكار السود؟»، ولكنها لم تجرؤ على النطق بهذه الكلمات فقد حز في نفسها أن تأتي هذا الإثم وتلقى من زوجها التدليل والإعزاز.

وقال دانيلو: «استمعي إليّ أي زوجتي! لا تتخلي عن ابننا، حين ينتهي أجلي، وليحرمك الله طعم السعادة في الدنيا والآخرة إن فعلت، فما أشقى أن تتحلل عظامي في الأرض الرطبة، وأشقى من ذلك وقعه على روحي!».

«زوجاه، ماذا تقول؟ أأنت الذي كنت تسخر منا نحن النساء الضعيفات، إن أمامك عمراً مديداً لا بد أن تعيشه».

«كلا يا كاترينا، إن قلبي يحس بدنو الأجل، والدنيا تضيق في عيني، وأماننا أيام شداد، آه! إنني لأذكر، أجل أذكر السنوات... وهيهات أن تعود! لقد كان يعيش آنئذ، كونا شيفتش العجوز الذي تمثل فيه شرف جيشنا ومجده وفخاره! إن الفرقة القوزاقية تمر الآن أمام عيني كأنما يحدث ذلك اليوم».

«لقد كانت أيامنا مجيدة يا كاترينا! يستوي فيها شيخ القوزاق العجوز على ظهر جواد أسود أصيل، ويتألق الصولجان في يده ويقف الحرس من حوله ويسير على جانبيه بحر ضخمة أحمر من الزابوروجاين، وما إن يشرع الزعيم في الكلام حتى يقف الجميع كأنهم سُمروا في الأرض تسميرًا. لقد كان العجوز يبكي حين يحدثنا عن الغزوات والمواقع الماضية، آه يا كاترينا، لو تعلمين كيف كنا نقاتل الترك في تلك الأيام! إن أثر الجرح الذي في رأسي لا يزال ظاهرًا حتى الآن، وقد نفذت في جسمي أربع رصاصات في أربعة مواضع، ولم يشف منها جرح واحد تمام الشفاء، ويا للذهب الذي غنمناه في تلك الأيام!».

«لقد ملأ القوزاق قبعاتهم بالأحجار الكريمة، ويا للجياد! وي! إن عدد ما سقناه أماننا منها لفوق ما تتصورين! هيهات أن أقاتل مثل هذا القتال مرة أخرى! إن الوهم ليصور لي أنني لا زلت قوي الجسم لم تمض بي السن بعد، ولكن السيف يسقط من يدي، وهأنذا أعيش مقيدًا لا أفعل شيئًا، ولست أدري لِمَ أعيش؟ لقد تلاشى النظام في أوكرانيا، وأصبح أفراد الجيش وضباطه يتشاجرون كما تتشاجر الكلاب، وليس من فوقهم رئيس يمسك بزمامهم، وبدل خاصتنا كل شيء ووسموه

بطابع البولنديين. وأخذوا عنهم أساليبهم الماكرة الخبيثة. ولقد باعوا أرواحهم واعتنقوا مذهب الأونيات، وراح اليهود يضطهدون الفقراء، آه! أين تلك الأيام! أجل أين تلك الأيام الماضية! وأين أنت يا أيام شبابي؟ اذهب إلى القبو يا غلام وائتني بإبريق من نبيذ العسل! ولأشربن نخب الماضي، نخب السنوات التي ذهبت ولن تعود!».

وقال ستيتسكو وهو يلج الغرفة: «كيف نستقبل ضيوفنا يا مولاي؟ إن البولنديين مقبلون من جانب المرج».

وقال دانيلو وقد همَّ بالوقوف: «لا أعرف سبب مجيئهم، أسرجوا جيادكم أي رجالي المخلصين! وارشدوا دروعكم وأشهروا سيوفكم! ولا تنسوا أن تتزودوا بمؤونتك من الرصاص؛ فإن الواجب يقتضينا أن نكرم ضيوفنا!».

وما إن هم القوزاق بأن يسرجوا جيادهم ويحشوا بنادقهم، حتى كان البولنديون قد غطوا سفح التل كما تغطي أوراق الأشجار أديم الأرض وقت الخريف.

وقال دانيلو وهو ينظر إلى البولنديين الأشداء وهم يتقدمون الصفوف، يتميلون في رزانه ووقار على ظهور جيادهم الأصلية ذات السروج الذهبية: «آه! هاكم أعداء نختر قوتنا معهم! ولعل من نصيبنا أن نخوض غمار جولة مجيدة أخرى! فطبيي أيتها النفس القوزاقية للمرة الأخيرة! وهلموا أيها الفتیان، فقد أقبل العيد!».

وأقيم العيد على التلال، وكان القصف والمرح عظيمين، فقد أخذت السيوف تتلاعب، والرصاص يتطاير، والجياد تصهل وتضرب

الأرض بقوائمها، وكان الصباح يذهل العقل، والدخان حتى عن نفسها، وراحت تصب على رأسها اللوم في صوت يعرف عدوه من صديقه، وكلما دوت رصاصة سقط فارس كريم عن سرجه، وكلما برق سيف هوى رأس على الأرض يدمدم ويغمغم بكلمات متقطعة لا تفصح ولا تبين.

على أن قبعة دانيلو القوزاقية كانت تبدو للعيان دائماً في غمرة هذه الزحمة، وكان حزامه الذهبي يطوق سترته الزرقاء الداكنة يتألق ويتلألأ، وعُرف جواده الأسود الأصيل يخفق مع الريح. وكان دانيلو يمرق هنا وهناك في خفة الطائر يصرخ ويلوح بسيفه الكريم يطيح بالرؤوس يمناً ويسرة. إيه أيها القوزاقي، أطح بالرؤوس وامرح! واشف قلبك النبيل! ولكن لا تنظر إلى السترات والحلي الذهبية، وطأ الذهب والجواهر بقدميك! ولكن التفت ورائك، فقد أخذ البولنديون الأشرار يشعلون النار في الأكواخ ويسوقون الماشية المرتاعة أمامهم. وعاد دانيلو أدراجه كالزوبعة، وأخذت القبعة ذات الريشة الحمراء تتألق بجوار الأكواخ، ويتفرق شمل الزحمة الضاربة حوله.

وتقاتل البولنديون والقوزاق ساعة بعد ساعة، فما بقي من الجانبين إلا القليل، ولم يخفف دانيلو من حرارته، بل راح يطعن برمح الطويل فرسان البولنديين فيسقطهم عن سروجهم ويطأ جواده الأصيل الجريء مشاتهم، حتى أوشك فناء داره أن يخلو من الغزاة. وتعلق البولنديون بأذيال الفرار، وأخذ القوزاق ينتزعون السترات الذهبية، والزينات الفاخرة عن أولئك الذين قضوا عليهم، وانطلق دانيلو يطارد من ولى

الأدبار، منهم، وتلفت ليجمع شتات رجاله، ولكن الغضب غلب عليه،
فقد رأى أبا كاترينا.

وكان الرجل يقف على سفح التل يصوب بندقيته نحوه، وحث
دانيلو جواده مندفعاً إليه لا يلوي على شيء: قف أيها القوزاقي! إنك
تسعى إلى حتفك بظلفك! ثم انطلقت رصاصة وتوارى الساحر خلف
التل، وغاب عن الأنظار، وإنما لمح ستيتسكو الأمين سترة الساحر
الحمراء وقبعته الغريبة، وترنح القوزاقي وسقط على الأرض، وهب
ستيتسكو لنجدة سيده، فوجده ملقياً فوق الثرى وقد غمض عينيه
المتألمتين وراح الدم القاني ينبثق من صدره. على أنه كان يحس وجود
خادمه الأمين بلا شك. ورفع دانيلو حاجبيه في تناقل وتألفت عيناه
وهمس: «وداعاً يا ستيتسكو! قل لكاترينا ألا تتخلى عن ابننا! وأنتم يا
خدمني المخلصين لا تتنكروا له!»، ثم أمسك، وفارقت روحه الكريمة
جسده النبيل، وازرقت شفثاه، وأخذ القوزاقي إلى نوم طويل لا قيام
بعده.

وانتحب خادمه الأمين وأوماً إلى كاترينا: «تعالى يا سيدتي، تعالى!
لقد كان زوجك يلهو ويشرب، وها هو ذا ينام الآن على الأرض الرطبة
نشوان ثملاً، ولن يفيق إلا بعد زمن طويل!».

وعصرت كاترينا يديها وارتمت على الجسد المسجي: «أي
زوجي، أنت الذي ترقد هنا مغمض العينين؟ انهض أيها الحبيب ومد
يدك! انهض! وألق نظرة واحدة على زوجتك كاترينا. حرك شفثيك،
وقل كلمة واحدة، كلمة واحدة فحسب. ما بال لسانك قد انعقد ولج

في الصمت يا زوجي الكريم؟ لقد اسود لونك حتى حاكى البحر
الأسود، وكف قلبك عن النبض. لم شاعت كل هذه البرودة في جسمك
يا سيدي وتاج رأسي؟ يخيل إليّ أن دموعي لم تبلغ من الحرارة ما يبعث
الدفء إليك! إن بكائي لم يرتفع إلى حد العويل حتى يوقظه! أين من
يقود كتائبك الآن؟ ومن ذا الذي ينطلق بجوادك الأسود الأصيل ويهتف
بالصوت المجلجل ويقود القوزاق ملوحًا بسيفه؟ أيها القوزاق، أيها
القوزاق! أين من كان رمز شرفكم ومجدكم؟ إنه مُلقى الآن مغمض
العينين على أديم الثرى الرطب! ادفنوني، ادفنوني معه! وأهيلوا على
عيني التراب!، ودعوا ألواح شجر الإسفندان تجثم على صدري
الأبيض! فأني نفع أرجوه الآن من ملاحتي وحسني؟».

وحزنت كاترينا وبكت، وثار النقع فغطى الأفق البعيد؛ ذلك أن
الصاغ جوروبتس العجوز كان قد خف لنجدة مواطنيه.



ما أجمل الدنيير تنساب مياهه في الجو الهادئ منطلقة ناعمة خلال الغابات والتلال، لا ينبعث منها صوت ولا تحس لها خيراً ولا هديراً! فإذا نظرت إليه لم تدر: أيتحرك هذا الخضم في جلاله أم لا يتحرك؟ وقد تكون مياهه من البلّور المنصهر تشق طريقها خلال البقاع الخضر كأنها لوح من الزجاج الأزرق لا يعرف له مدى ولا تدرك له نهاية، ويطيب للشمس اللافحة في مثل هذا الجو أن تطل من برجها العالي وتختلس النظر إلى نفسها وتنفذ أشعتها المتألقة في مياه النهر الرطبية الساجية، ويحلو للضفتين الشجراوين أن ترقبا ظلالهما المتألقة وهي تنعكس في الماء، وتدنو الغابات في حلتها الخضراء هي والأزهار البرية من حافة النهر حانية عليه تتأمله فلا تمل من الإعجاب بصورتها الرائعة المائلة فيه، ثم تبتسم له وتحياه بإيماءة من أغصانها. على أنها لم تكن لتجرؤ على النظر في عرض الدنيير، وإنما يستطيع ذلك الشمس والسماء الزرقاء. ألا ما أروعك يا نهر الدنيير! وهيئات أن يكون لك مثل في هذا العالم! وما أجمل نهر الدنيير في ليلة من ليالي الصيف الدفيئة حين تستسلم للكرى عيون الناس جميعاً! فيهجع الإنسان والحيوان والطير،

ولا يبقى إلا الله وحده ساهرًا يرعى بجلاله وعظمته الأرض والسماء،
ويهب ثوب ملكوته في عظمة وجلال، فتتناثر النجوم فيه، وتتألق ويسطع
نورها على العالم وتنعكس جميعاً على صفحة نهر الدنيير، وتنطوي
كلها في أحضانه المظلمة، لا يفلت منها أحد إلا إذا انطفأ نوره في
السماء. وتتدلى الغابات السود وتناثرت فيها الغربان النائمة، والتلال
انشقت شعباً من تعاقب الدهور وكر الأيام، وتحاول جاهدة أن تطويه
في غمرة من ظلالها الوارفة، ولكن هيهات!

فما من شيء في العالم يستطيع أن يخفي عن الأنظار نهر الدنيير،
فهو ينساب عميقاً في زرقة داكنة، وينتشر ماؤه في جميع الأرجاء، فتراه
العين في منتصف الليل كما تراه في الظهيرة بعيداً جداً، على قدر ما
يمتد البصر، وهو ينكمش من برد الليل، فيدنو من الشاطئ أكثر ويخلف
وراءه أثراً من لجين يلمع لمعان النصل في السيف الكريم، وتعود مياهه
الزرق الداكنة فتهجع مستسلمة للنوم. ألا ما أجمل نهر الدنيير وهو على
هذه الحال! وهيهات أن تجد له بين أنهار العالم مثيلاً!

فإذا تجمعت سحب العاصفة الزرق الداكنة في السماء اهتزت
الغابة السوداء حتى الجذور، وتراقصت أشجار السنديان وأضاء البرق
العالم كله فجأة، وراح يتلوى بين السحب، وعندئذ يكون نهر الدنيير
مخيفاً مهرولاً تهدر أمواجه صاخبة تحاكي الجبال وتنقض على التلال،
وترتد مندفعة تومض وتتن وتولول وتنوح في الفضاء البعيد، وتنهج نهج
الأم العجوز إذ تودع ابنها وهو ماضٍ إلى الحرب، وينطلق الفتى ممتطياً
صهوة جواده الأسود الأصيل في جرأة واستهتار، وقد وضع ذراعيه في

خاصرته، ومال بقبعته اللطيفة على جانب رأسه، وراحت الأم تركض وراءه منتحبة تتعلق بركابه وتمسك باللجام، ثم تعصر يديها عصراً من أجله وتذرف الدمع حاراً سخيناً.

وكانت جذامير الأشجار المحروقة والأحجار التي على الضفة النائية تصطخب من حولها الأمواج تبدو غريبة المظهر سود اللون. وضربت الأمواج القارب الذي أدلى إلى الماء وقذفت به إلى الشاطئ ورفعته ثم هوت به. تُرى أي قوزاقي هذا الذي اجتراً على التجديف في قارب، ونهر الدنيير العريق في ثورته وهياجه؟ لا شك أنه يجهل أن النهر يتلع الرجال كأنهم الذباب.

وبلغ القارب الشاطئ، ونزل منه الساحر، ولم يكن الرجل منشراح الصدر صافي المزاج، فقد حز في نفسه أن يرى الجنازة التي أقامها القوزاق احتفالاً بسيدهم القاتل. ودفع البولنديون الثمن غالباً، فقد لقي الموت منهم أربعة وأربعين رجلاً في كامل عدتهم وزيتهم، ومزق ثلاثة وثلاثين خادماً إرباً إرباً، وأسر الآخرون بجيادهم لتباع إلى التتر.

وهبط الساحر درجاً من الحجارة بين الجذامير المحترقة إلى موضع حفر فيه جباً عميقاً في الأرض، ونزل إلى الجب رفيق الخطي، محاذراً أن يصدر عن الباب صرير، ووضع قدراً على المائدة غطاها بقطعة من النسيج، وأخذ يلقي فيها بيديه الطويلتين بعض الأعشاب الغريبة، وتناول إبريقاً مصنوعاً من خشب نادر ونزح به بعض الماء ثم سكبه وهو يحرك شفثيه ويردد تعويذة من تعاويذه، وغمر الجب ضوء وردي، وغدا وجه الرجل بشعاً تتقحمه العين، ولاح أن الدم قد غطاها إلا من تجاعيد

عميقة يغشاها السواد، واتقدت عيناه بالشرر، لبس هذا الأثم الزنيم،
كيف يمضي ممعناً في شروره وقد كلل الشيب لحيته ورسمت التجاعيد
خطوطاً على وجهه وأضنت الأيام جسمه!

وانبعثت سحابة بيضاء ترفرف في الجب وبرقت ملامح الساحر
بشيء يشبه البشر، ولكن ما باله قد وقف ساكناً فاغر الفم لا يريم ولا
يجرؤ على الإتيان بأي حركة، ولماذا وقف شعر رأسه؟ وتلألاً أمامه
من خلال السحابة محيا شبح غريب، أقبل يزروه بلا استئذان ولا دعوة،
وازداد الوجه وضوحاً وأخذ يتفرس في الساحر لا يحول عنه نظره،
وكانت ملامحه كلها -الحاجبان والعينان والشفتان- غير مألوفة لديه،
فلم يسبق له أن رآها في حياته قط، والظاهر أن الوجه كان بريئاً كل البراءة
مما يخيف، ولكن الفزع استبد بالساحر، وظل الوجه الغريب يتفرس فيه
من خلال السحابة، ثم انقشعت السحابة، ولكن الوجه الغريب ازداد
وضوحاً على وضوح وظلت العينان الثاقبتان تحدجانه بنظراتهما،
وامتقع لون الساحر حتى غدا كصفحة النسيج الناصع، وصرخ صرخة
مدوية وقلب القدر، فاختنفى كل شيء عن الأنظار.



وهتف الصاغ جوروبيتس العجوز: «ليطمئن بالك أيتها الأخت العزيزة، فقلما تصدق الأحلام!». .

وقالت زوج ابنه العروس: «ارقدي أيتها الأخت، ولأسعين في طلب سيدة عجوز، بل امرأة حكيمة لا تقف أمامها أي روح شريرة، فتعينك على ما أنت فيه». .

وقال ابنه وهو يتحسس سيفه: «لا تخشي شيئاً، فلن يسيء إليك أحد!». .

وأخذت كاترينا تنظر إليهم جميعاً وقد أظلت عينيها غشاوة من الحزن والكآبة، ولم تجد ما تقوله، إلا أنها أخذت تحدث نفسها قائلاً: «أنا التي تسببت في هلاك نفسي، فقد أفلت سراحه!». .

ثم قالت آخر الأمر:

«إنه لا يدع لي فرصة للطمأنينة وهدوء البال! وهأنذا قد قضيت معكم هنا في كييف عشرة أيام معاً، فما خف لي حزن، وكنت أظن أنني أستطيع على أيسر تقدير أن أنشئ ابني في سلام حتى يثار لأبيه، إنه يظهر

لي في الحلم فظيماً كل الفظاعة، بشعاً كل البشاعة! وقاكم الله شر رؤيته على هذه الحال! إن قلبي لا يزال يضرب، لقد كان يصيح بي: لأقطعن ابنك إرباً إرباً كاترينا إن لم تتزوجيني!»، ثم أَلقت بنفسها على المهد وهي تتحب، وتملك الرعب الطفل، فمد يديه الصغيرتين وعلا صوته بالبكاء.

وكان ابن جوروبيتس يغلي من الغيظ وهو يسمع تلك الكلمات.

أما جوروبيتس نفسه فقد ثارت ثأرتة.

«فليخاطرن بالقدوم إلى هنا ذلك الملعون عدو المسيح، ولسوف يعلم إن كان قد بقي في ساعة القوزاقي العجوز فضلة من قوة». ومضى يقول وهو يتطلع بعينيه الثابتتين إلى السماء: «علم الله أنني هرعت لنجدة أخي دانيلو، ولكنه قضاء الله ولا راد لقضائه! فقد وجدته يرقد على أديم الثرى الرطب كما رقد كثير من القوزاق من قبل، ولكن ما أروع الحفلة التي أقمناها لجنازته، فقد أتينا على القوم ولم نترك بولندياً واحداً على قيد الحياة! ليطمئن بالك يا بنيتي! فلن يجرؤ أحد على أن يصيبك بأذى ما دام فيّ أنا أو ابني عرق ينبض!«.

وما إن انتهى الصاغ القوزاقي العجوز من حديثه هذا، حتى اقترب من المهد، ورأى الطفل غليونه الأحمر المرصع بالفضة والكيس الذي حمل فيه الحجر الصوان والصلب القادح للنار يتدليان من سير من الجلد، فمد ذراعيه نحوه وهو يضحك، فهتف الصاغ العجوز وهو يفك الغليون ويعطي الطفل إياه: «إنه ينهج نهج أبيه، يحلم بغليون وهو بعد في المهد!».

وتنهدت كاترينا وأخذت تهز المهد، واتفق الجميع على أن يقضوا الليلة معاً، وسرعان ما استغرقوا في النوم، وثقلت جفون كاترينا أيضاً واستسلمت للنعاس.

وشمل السكون الفناء والدار جميعاً، ونام مَنْ بالدار إلا القوزاق الذين كانوا يقومون بالحراسة، واستيقظت كاترينا فجأة وأطلقت صرخة، فاستيقظ الباكون أيضاً وصاحت تقول: «لقد ذبح! لقد قتل!»، واندفعت إلى المهد والتف الجميع حوله وانعقد لسانهم من الرعب والفرع إذ وجدوا الطفل راقداً فيه وقد فارق الحياة، ولم ينس أحدهم بنت شفة، وراحوا يعجبون من أمر هذه الجريمة التي لم يسمع بمثلها أحد.



تمتد سلاسل من الجبال الشامخة على مبعده من أوكرانيا، فيما وراء بولندا ومدينة لمبرج العامرة، وانتشرت هذه الجبال، جبلاً في أثر جبل كحلقات من الحجارة انتشرت على الأرض ذات اليمين وذات اليسار، تحيط بها طبقات من الصخر ترد عنها عادية البحر الصاخب المضطرب، وتتوغل السلاسل الحجرية في الأفلاق وترانسيلفانيا، وتشمخ بأنفها كحدوة الحصان الضخمة بين شعبي غاليسيا وهنغاريا، ولا وجود لمثل هذا الجبال في بلادنا، فإن البصر يرتد عنها وهو كليل، ولم يسبق لإنسان أن وطئ بقدمه بعض قننها، إن منظرها لعجيب، ومن يدري؟ لعل بحرًا صاخبًا قد أفلت من شاطئيه الفسيحين إذا أَلَمَت به عاصفة وقذفت بأمواجه الهائلة عاليًا، فاستحالت حَجَرًا وظلت معلقة في الفضاء بلا حراك، أو لعل سحبًا كثيفة من سحب العاصفة قد سقطت من السماء وهوت إلى الأرض، وإلا فمن أين جاءت هذه الجبال بذلك اللون الأشهب الذي نعهده في تلك السحب تومض قننها البيض وتتألق في ضوء الشمس.

وقد يسمع المرء اللغة الروسية تدور على الألسنة حتى جبال الكربات، أما فيما وراء هذه الجبال مباشرة، فلا يزال يتردد هنا وهناك صدى للهجتنا القومية، فإذا أوغلت إلى أبعد من ذلك أصبح المذهب واللغة غير اللغة، ويقيم الشعب الهنغاري الغفير العدد هنالك، وهم يركبون الخيل ويقاتلون ويشربون كالقوزاق سواء بسواء ولا يبخلون بالقطع الذهبية يخرجونها من جيوبهم لشراء حلي خيولهم وستراتهم النفيسة، وتقوم بين الجبال في تلك البلاد بحيرات واسعة عظيمة ساكنة الأديم كالزجاج وتعكس المرايا قمم الجبال العارية وسفوح التلال الخضراء.

ولكن أي فارس هذا الذي يمتطي صهوة جواد ضخم أصيل بليل سواء تألقت النجوم أو خبا ضياؤها؟ وأي بطل من العمالقة ذلك الذي مضى بجواده يخب خبياً تحت الجبال وفوق البحيرات وقد انعكست صورته وصورة جواده الجبار على صفحة المياه الساجية، وألقى على الجبال ظله الرهيب الممدود، لقد كانت درعه المصفحة تتألق وقد أسند رمحاً على كتفيه وأخذ سيفه يقعقع إلى جانب السرج، وانكفأت خوذته إلى الأمام، وكان شاربه أسود وعيناه مغمضتين وقد ثقلت جفونه بفعل الكرى، أجل لقد كان هذا الفارس نائماً يمسك أعنة الجواد مستسلماً للنعاس، وكان يمتطي صهوة الجواد نفسه غلام صغير، خادم استسلم للنعاس أيضاً وقد تعلق بالبطل، ترى، أي رجل كان؟ وأين كانت وجهته؟ وفيما كانت رحلته؟ من يدري؟

لقد ظل بعد السير فوق الجبال يومًا أو أكثر من يوم، ثم لاحت
تباشير الصباح وأشرقت الشمس فغاب عن الأنظار، وإنما كان رواد
الجبال يشاهدون من حين إلى حين ظلًا طويلًا يمرق فوق الجبل على
الرغم من أن السماء كانت صافية الأديم لا تغشاها سحابة، وما إن عاد
الليل فأسدل ستار الظلام حتى ظهر مرة أخرى وانعكست صورته على
صفحة البحيرات يتبعه ظله المرتعش، واجتاز البطل في رحلته جبالًا
كثيرة، وبلغ آخر الأمر جبل كريفان الذي لا يدانيه في الارتفاع جبل من
جبال الكربات، فهو يشمخ بأنفه على الجبال الأخرى كالملك المتوج،
وعندئذ توقف الجواد وراكبه، واستغرقا في نوم زاد عمقًا على عمق،
وحجبتهما السحب المسفة عن الأنظار.



«صه، ولا تدقي هذا أيتها الموضع، فإن طفلي نعسان، وقد ظل يبكي وقتاً طويلاً ثم استسلم للنوم، إني ذاهبة إلى الغابة أيتها الموضع، ولكن ما بالكِ تنظرين إليَّ على هذا النحو؟ إنكِ لمخيفة، تطل من عينيكِ كلابتان من الحديد، ألا تبأ لكِ، ما أطولهما! وهما يتوهجان توهج النار! لا شك أنكِ ساحرة! آه! فإن كنتِ ساحرة فاغربي عن وجهي! فلسوف تسرقين ابني! يا للصاغ من غبي أحرق! فهو يظن أنني أنعم بالعيش في كفيف، كلا إن زوجي وابني هنا، فمن يدبر أمر البيت؟ لقد خرجت في خفة حتى إن الكلب والهرة لم يسمعا دبيب قدمي، أتريدان أن تعودني إلى شبابك أيتها الموضع؟ ليس هذا بعسير على الإطلاق، وما عليكِ إلا أن ترقصي، انظري كيف أرقص؟».

وما إن أتمت كاترينا هذا الحديث المضطرب، حتى شرعت ترقص وهي تدير عينيها الناطقتين بجنونها وتضع ذراعيها في خاصرتيها، وثم صرخت وأخذت تضرب الأرض بقدميها، وانطلق كعباها الفضيان يقععان في نشاز لا إيقاع فيه ولا نغم، وطفقت تدور في سرعة كالطائر لا تستقر ولا تستريح، وهي تلوح بيديها وتومئ برأسها، حتى بدا للأنظار ألا مناص من أن تسقط على الأرض فاقدة الوعي أو تحلق في الجو حتى تبلغ العالم الآخر.

ووقفت الموضع العجوز حزينة كاسفة البال وقد خضب الدمع وجهها المتغضن، وأثقل الهم والأسى قلوب القوزاق الأمناء وهم ينظرون إلى سيدتهم، وخارت قواها آخر الأمر وتشبث بالموضع الذي هي فيه تضرب الأرض بقدميها في ضعف ووهن، زاعمة أنها ترقص دورًا، ثم توقفت وقالت: «عندي أيها الغلمان قلادة ليس عندكم مثلها!»، وصاحت فجأة وهي تشهر خنجرًا تركيًا أخذته من حزامها: «أين زوجي؟ آه! ليس هو السكين الذي أنا في حاجة إليه»، وعندئذ انهمرت الدموع من عينيها حزنًا وكمدًا وقالت: «إن قلب أبي ليكمن في أعماق نفسه، ولن يصل إليه هذا النصل، فقد قد قلبه من حديد، وطرقته ساحرة في نار الجحيم، لم لا يأتي أبي؟ ألا يعلم أن الوقت قد حان لطعنه؟ يخيل إليّ أنه يريد مني أن أذهب إليه بنفسي، يبدو...»، ثم سكنت وضحكت ضحكة غريبة، ومضت تقول: «لقد تذكرت قصة مضحكة، أجل تذكرت كيف دُفن زوجي، فقد دُفن حيًّا كما تعلمون، وحملني ذلك على الضحك! أنصتوا، أنصتوا!»، ولكنها لم تتكلم بل راحت تغني:

انطلقت عربة خضبها الدم تسابق الريح

ورقد فوقها قوزاقي

أصيب برصاصة في صدره وطعنة في قلبه

وفي يده اليمنى رمح

يقطر منه الدم

وينهال كالنهر المتدفق

وقد حنت على النهر شجرة دلب
وقف فوقها غراب ينعق

* * *

وها هي ذي الأم تبكي القوزاقي
لا تبكي أيتها الأم ولا تحزني!
فقد تزوج ابنك
واختار فتاة كريمة عروسًا له
وقامت في الحقول العارية أكمة من الثرى
بلا باب ولا نافذة
وهكذا تنتهي قصتي

* * *

لقد كانت سمكة ترقص مع سرطان البحر
ولتقض البرداء على أم
من لا يحبني

* * *

وهكذا خلطت بعض سطور من أغان مختلفة ببعض، وكانت
كاترينا تقيم منذ يومين في بيتها هي، وأبت أن تسمع شيئًا عن كيف،
ورفضت أن تتلو صلاتها أو تلقى أي إنسان، وكانت تتجول من الصباح
إلى المساء في أدغال السنديان المظلمة، فتخدش العساليج الحادة
وجهها وكتفيتها البيضاءوين، وتثير الريح شعرها المرسل، وتخشخش

أوراق الخريف تحت قدميها، ولكنها لم تكن تحفل بشيء. وقد كان من الأمور المخيفة أن يسير أحد في الغابة من وقت أن يخبو وهج الشمس الغاربة إلى حين تظهر النجوم أو يضيء القمر، ذلك أن الأطفال الذين لم يعمدوا يتسلقون في هذه الأثناء فوق الأشجار ويتعلقون بغصونها، ويتدحرجون في الطرقات وقفار القريض ينشجون ويضحكون، وتبرز العذارى اللواتي فقدن أرواحهن واحدة في إثر الأخرى من أعماق الدنيير وتسترسل جدائلهن الخضراء على أكثافهن، ويقطر الماء من شعرهن الطويل على الأرض في صوت منغم، وتتألق عذراء من خلال الماء كأنه نقاب شفاف من البللور، وتبتسم شفاتها في خفاء وغموض وتشرق وجنتاها وتخلب عيناها اللب حتى ليضطرم الفؤاد بنار الحب، ويخيل للمرء أنها سوف تمطره بالقبلات حتى تزهق منه الأنفاس، إلا فتنبج بنفسك أيها المسيحي! فإن شفتيها باردتان كالثلج، وفراشها هو الماء البارد، ولسوف تداعبك وتعاثك حتى تقضي عليك، ثم تجرك إلى النهر. ولم تك كاترينا تنظر إلى واحدة من هاتيك العذارى، ولا تخش في خبلها عرائس البحر، فقد كانت تهيم ليلاً وفي يدها سكينها تبحث عن أبيها، وتفتش عنه.

وفي باكورة اليوم التالي جاء إلى المنزل زائر حسن الطلعة يرتدي سترة حمراء وسأل عن دانيلو، واستمع إلى قصته، ثم مسح بردنه عينيه المخضبتيين بالدموع وهز كتفيه، وقال: «إنه حارب مع بورو لباس جنباً إلى جنب، وخاضا المعارك مع الترك وأهل القريم أيضاً جنباً إلى جنب، وما كان ليدور بخلده قط أن تكون نهاية دانيلو على هذه الصورة،

وأنبأهم الزائر بأمر أخرى كثيرة، ثم طلب أن يرى كاترينا».

ولم تحفل كاترينا أول الأمر بشيء مما قاله الضيف، إلا أنها بدأت من بعد تنصت إليه، كأنما تعي ما يقول، وأخبرها كيف كان يعيش مع دانيلو كالأخوين، وكيف أنهما اختفيا ذات مرة من أهل القرية تحت سد من السدود، وكانت كاترينا تنصت إليه وهي تحدج بنظراتها.

وقال القوزاق بينهم وبين أنفسهم وهم ينظرون إليها: «لتشفين، إن هذا الضيف كليل بشفائها! فهي تنصت إليه كأنما تعي ما يقول».

وأخذ الزائر يصف في هذه الأثناء كيف أسر إليه دانيلو يومًا قائلاً: «لا تنسَ يا أخي كوبريان، حين تقضي مشيئة الله بأن أغادر هذه الدنيا.. أن تتخذ كاترينا -أجل تتخذها زوجة لك».

ونظرت إليه كاترينا نظرة نفاذة ثم صرخت: «آه، إنه هو. إنه أبي!»، وانقضت عليه بسكينها.

وقاومها الزائر زمناً طويلاً أن يخطف السكين منها، ثم نجح آخر الأمر في انتزاعها منها ورفعها ليضرب، ثم حدث حادث جلل. فقد قتل الأب ابنته المجنونة.

واندفع القوزاق إليه وقد استبد بهم الذهول، إلا أن الساحر كان قد قفز على ظهر جواده وغاب عن الأنظار!



وحدثت عجيبة من العجائب فيما وراء كيف لم يسمع الناس
بمثلها من قبل، واجتمع النبلاء وزعماء القوزاق كافة ليشاهدوا هذه
العجيبة، فقد تكشف الفضاء البعيد لأعين الناس من جميع النواحي،
وبدا للأبصار على البعد البعيد مصب نهر الدنيير في زرقته الداكنة ومن
ورائه البحر الأسود، وأبصر الذين خرجوا من القوم مرتحلين -بلاد
القريم ترتفع بشعابها من أعماق البحر، كما أبصروا نهر سيفاش العامر
بالبطائح وبرزت إلى اليمين بلاد غاليسيا.

وسأل الناس الشيوخ وهم يشيرون إلى قنن الجبال البيض والشهب
التي تجلت بعيداً في أفق السماء، كالسحب أو هي أشبه: «وما هذه؟».
وقال الشيوخ: «تلك هي جبال الكربات! وبعضها يغطيه الجليد
دائماً وتتعلق به السحب وتقضي عليه ليلتها».

ثم حدثت عجيبة جديدة، فقد انقشعت السحب من أعلى القنن،
وظهر فوق ذروتها فارس كامل العدة مغمض العينين، تجلّى للقوم
بوضوح كأنه واقف بالقرب منهم.

وعندئذٍ قفز من بين صفوف القوم المأخوذين الخائفين رجل امتطى صهوة جواده، وأخذ يتلفت حوله في نظرات زائغة، كأنما يريد أن يطمئن إلى أن أحداً لا يطارده، ولم يلبث أن أطلق جواده يسابق الريح، وكان هذا الرجل هو الساحر. تُرى ما الذي روعه؟ لقد نظر الرجل في فزع إلى الفارس العجيب، فتبين فيه ذلك الوجه الذي ظهر له عندما كان يردد تعويذته، ولو قد سأله أحد عن سبب اضطرابه حين رأى هذا المنظر لم يحرجواً. ثم تلفت الرجل في خوف ووجل حوله، راجعاً إلى داره، ولعله أراد أن يسأل الروح الشريرة عن سر هذه العجيبة، وهمَّ بأن يقفز بجواده فوق جدول من ماء يعترض طريقه، وإذا بجواده يتوقف فجأة وهو ماضٍ بأقصى سرعته، ثم التفت إليه فرأى، وما أعجب ما رأى! لقد قهقهه الجواد ضاحكاً! وتألّق صفان من الأسنان البيض تألقاً مخيفاً في الظلام، فوقف شعر الساحر على رأسه، وأطلق صرخة مدوية وبكى بكاء من أصابه مس، ولوى عنان جواده ميمماً شطر كيف لا يلوي على شيء، وخُيِّلَ إليه أنه مطارد من كل جانب، تسعى الأشجار التي تحيط به في الغابة السوداء وتجاهد لخنقه، وتومئ بلحاها السود وتمد إليه أغصانها الطويلة، وراحت النجوم تستبق هذا الآثم وتشير إليه، بل أخذ الطريق نفسه يطير وراءه.

وهرب الساحر اليائس لائثاً بالأماكن المقدسة في كيف.



وكان باسك من أهل الورع يجلس وحيداً في غاره، وأمامه مصباح صغير لا يرفع عينيه عن الكتاب المقدس، ومضت سنوات وسنوات وانقطع عن الدنيا وأخلد إلى غاره، وصنع الناسك لنفسه نعشاً من ألواح الخشب ينام فيه بدلاً من الفراش، وأغلق العابد الصالح كتابه وراح يصلي، وإذا برجل غريب الهيئة بشع المنظر يلج عليه الغار فجأة، وأبصر الناسك الورع الرجل، ففزع ونكص على عقبيه؛ إذ وجدته يرتجف من أعلى رأسه إلى أخمص قدمه كورقة في مهب الريح، وزاغت نظراته، وومضت عيناه ببريق من الرعب، وكان وجهه المخيف تقشعر منه الأبدان.

وصاح الرجل في يأس: «صلّ يا أبتاه! صلّ! صلّ لنفس ضالة»، وخرّ على الأرض جاثياً.

ورسم الناسك الورع إشارة الصليب، وتناول كتابه وفتحه، ثم تراجع مذعوراً، وسقط الكتاب من يده.

«كلا، أيها الآثم الزنيم! فقد أغلقت من دونك أبواب الرحمة! اغرب عني! فلست بقادر على أن أصلي من أجلك!».

فصاح الساحر مغيضاً محنقاً: «لست بقادر؟».

«انظر، إن حروف الكتاب المقدس تقطر دمًا! وما رأيت الدنيا أشد
إثمًا منك».

«أبتاه، إنك تسخر مني!».

«إليك عني أيها الآثم الملعون! فإني لا أسخر منك، وإنما غلبني
الخوف على أمري، وما من خير يجنيه المرء من صحبتك».

«كلا، كلا، وإنما أنت تسخر مني - لا تنكر! فإني أرى الابتسامة
تتلاّأ على شفتيك، وصفي أسنانك العتيقة يتألقان في نصوص!».

وانقض الساحر على الناسك الورع كالممسوس وقتله.

وانبعثت في الجو آنة فظيعة تردد صداها في الغابة وفي الحقول،
وارتفعت من وراء الغابة أذرع يابسة ذاوية لها مخالب طويلة، ثم
ارتجفت وغابت عن الأنظار.

وعندئذ خلا قلب الرجل من الخوف وأصبح لا يخشى شيئاً، على
أنه أحس بالاضطراب يغمر نفسه جميعاً، فقد أحس بطنين يدوي في
أذنيه وأصاب رأسه دوار كأنه شرب حتى ثمل، وأظل كل شيء عشاوة
كأنها من نسيج العنكبوت، وقفز الرجل ممتطياً صهوة جواده ومضى
إلى كانيف لا يلوي على شيء، معترماً أن يقصد منها رأساً إلى تتر القريم
عن طريق تشركاس، ولو أنه لم يكن يدري لذهابه علة ولا سبباً. وقطع
الرجل في رحلته يوماً، ثم آخر، ولم تبد كانيف للأنظار، وكان الطريق
الذي مضى فيه هو الطريق الصحيح، وكان خليقاً بأن يبلغ هذه المدينة

قبل ذلك بوقت طويل، ولكن لم يَبْدُ لكانيف ظل ولا أثر، وتألفت قباب الكنائس من بعيد.

على أن هذه المعالم لم تكن لكانيف بل لشومسك، وذهل الساحر إذ وجد أنه التمس في رحلته طريقاً آخر أبعد ما يكون عن الطريق الصحيح، فلوى عنان جواده متجهاً صوب كييف، ولاحت له بعد يوم مدينة أخرى، لم تكن هي كييف بل جاليتش، وهي قريبة من هنغاريا، ولكنها تبعد عن كييف أكثر مما تبعد عن شومسك، وسقط في يده فلفل راجعاً، على أنه أحس مرة أخرى بأنه يسير طريقه القهقهري، وما كان لأحد أن يعرف ما يدور في أعماق الساحر، ولو رأى أحد ما يدور في أعماقه أو عرف ما يختلج في طوايا نفسه، ما ذاق في ليلة طعم النوم أو أشرقت أساريره بالضحك قط طول حياته. ولم يكن ذلك الذي تضطرب به جوانح الساحر حقداً أو رعباً أو غضباً مريئاً، وإنما كان شيئاً لا تستطيع كلمة من الكلمات في أي لغة من لغات الأرض التعبير عنه. لقد كان قلبه يتقد ويضطرم، ويود لو استطاع أن يطأ العالم كله تحت قدميه ويحمل الأرض جميعاً من كييف إلى جاليتش بما فيها من ناس وحيوان وغير ذلك ويقذف بها في أعماق البحر الأسود، ولم يكن الغل أو الحقد يدافعه إلى ذلك، وإنما الذي كان يحفزه إليه سبب لا يدري من أمره شيئاً. وارتعدت أوصال الساحر؛ إذ رأى جبال الكربات وجبل كريفان الشاهق وقد غشيت قمته سحابة شهباء، وراح الجواد يركض بين الجبال كالريح، وانقشعت الغيوم فجأة وظهر الفارس قبالة بقدمه الهائلة الرهيبة.

وحاول الساحر أن يقف وشد إليه العنان، ولكن الجواد سهل
صهيلاً مخيفاً وأخذ يطوح معرفته، واندفع نحو الفارس، وأحس
الساحر بأن كل ما فيه قد تجمد. وأخذ الفارس الساكن يتحرك وفتح
عينيه فجأة وأبصر الساحر يندفع نحوه، فضحك، وتردد صدى الضحكة
الهائلة في جنبات الجبال كزئير الرعد، ودوت في قلب الساحر فأحس
لها رجفة تشيع في جميع أوصاله، وخُيِّل إليه أن كائنًا عظيم القدرة قد
ملك عليه قياده، وراح يتحرك بين جوانحه ويدق قلبه وعروقه دقًا! يا لها
من ضحكة مخيفة تردد صداها في طوايا نفسه!

ومد الفارس يده الباطشة، وأمسك بالساحر، ورفع في الهواء،
فمات في الحال، ثم فتح عينيه، ولكنه كان قد قضى، وأطلت من عينيه
الجامدتين نظرة مخيفة لا تجد لها مثيلاً في عين ميت ولا في عين صاح
قام من بين القبور، وراح الساحر يقلب عينيه الجامدتين ذات اليمين
وذات الشمال فرأى الموتى يقومون مثله سواء بسواء، من كيف ومن
غاليسيا ومن جبال الكربات!

وقام هؤلاء الأموات من بين القبور يعلو وجوههم الشحوب،
تغشاها صفرة شديدة، وكل واحد منهم أطول من أخيه، وأبرز عظاماً،
وتكأكأوا على الفارس الذي كان ممسكاً بفريسته البشعة. وضحك
الفارس مرة أخرى، وقذف بالساحر في هوة، وقفزت الجثث جميعاً إلى
الهوة وأنشبت أسنانها في لحم الميت، وحاول ميت آخر، أطول من
جميع الأموات، وأبسعهم خلقة، أن ينهض، ولكنه لم يستطع، فقد نما
حجمه نموًا عظيمًا ضرب في باطن الأرض طولاً وعرضاً حتى عجز

عن القيام، ولو كان قد فعل لقلب جبال الكربات وترانسيلفانيا وتركيا
رأسًا على عقب، وغاية ما استطاع أنه تحرك قليلًا، فزلزل الأرض جميعًا
وأطاح ببيوت عدة وسحق قومًا كثيرين!

وينبعث من جبال الكربات في كثير من الأحيان صوت مجلجل
ما إن يبلغ سمعك حتى يخيل إليك أن ألف طاحونة من طواحين الماء
أخذت تمخض بدواليبها الماء مخضًا، وما هذا الصوت إلا صوت
الموتى وهم ينهشون بأسنانهم جثة أُلقي بها في الهوة المشؤومة التي
لم يرها إنسان ولا جرؤ مخلوق على اجتيازها. وكثيرًا ما تزلزل الأرض
زلزالها وتقلب من طرف إلى طرف، ويقول العلماء إن ذلك يرجع
إلى وجود جبل قريب من البحر يتصاعد منه اللهب وتتدفق الأبخرة
الساخنة، ولكن الشيوخ الذين يقيمون في هنغاريا وغاليسيا يعلمون ما
لا يعلم هؤلاء، فهم يقولون: إن العلة تكمن في هذا الميت الذي نما
واستطال في جوف الأرض، فإذا حاول أن يقوم زلزلت الأرض زلزالها.



اجتمعت زحمة من الناس حول عازف البندورة العجوز في مدينة جلوكوف، وراحت تنصت ساعة إلى عزف هذا الرجل الأعمى، الذي لا نظير له في العزف على البندورة وإنشاد الأغاني العجيبة، وتغنى الرجل أولاً بحكم زعماء القوزاق في الأيام الخالية، كما تغنى بحكم السغايداشني والخملنتسكي. لقد كانت الأيام غير الأيام، وكان القوزاق وقتئذ في عز مجدهم يطأون أعداءهم تحت أقدامهم ولا يجروا أحد على السخرية منهم، وغنى الشيخ أيضاً أغاني مرحة، وأخذ يتلفت إلى الجماعة كأنما عيناه تبصران، وانطلقت أصابعه التي ثبت فيها رقائق صغيرة من العظم تتراقص على الأوتار كالذباب، لقد بدا أنها هي نفسها تشدو بالنغم، وكان الشيوخ يغضون أبصارهم والشباب يحملقون في المغنى لا يجروون على الحديث ولو بهمس.

وقال الشيخ: «اصبروا، ولأنشدن لكم قصة من قصص الغابرين»، وازداد القوم منه دنواً، وأنشد الأعمى يغني:

«في أيام ستيفان أمير ترانسيلفانيا وملك البولنديين، كان يعيش قوزاقيان: إيفان وبترو، وأقام الفتیان معاً كالأخوين، وقال بترو لصاحبه: اسمع يا إيفان، فلنقتسم كل ما نجنه من ربح، فإذا حل بأحدنا فرح

شاركه صاحبه في فرحه، وإذا ألمَّ به حُزْنٌ حَزَنَ من أجله، وإذا غنم غنيمَةً شاطرهُ إياها، وإذا وقع في الأسر باع كل ما يملك يفتديه به أو ألقى بنفسه في الأسر معه. والحق أن القوزاقيين كانا يقتسمان كل ما يكسبانه، فإذا وقع في أيديهما قطع من الماشية أو الجياد أخذ كل نصيبه لا ينقص عن الآخر أو يزيد.

* * *

وشهر الملك ستيفان الحرب على الترك، وظل يقاتل ثلاثة أسابيع لا يستطيع لهم طردًا، وكان للترك باشا يستطيع في نفر من الإنكشارية أن ينكل بكتيبة من الجند بأكملها تنكيلاً، فلما رأى الملك ستيفان ذلك نادى في الجند أن المقاتل الباسل الذي يأتيه بهذا الباشا ينفحه جائزة تساوي راتب الجيش كله.

وقال إيفان لبترو: «لنذهب ولنأته بالباشا يا أخي» ومضى الفتيان القوزاقيان في رحلتهم، وذهب كل منهما في طريق.

ولم يكن لأحد أن يتكهّن: أظافراً يعود بترو أم خائباً؟ ولكن إيفان ساق الباشا إلى الملك وقد طوق عنقه بحبل، وقال الملك: «أحسن يا فتى»، وأمر بأن يُعطى من المال ما يساوي راتب الجيش كله ومن الأرض ما يشاء ويختار، ومن الماشية ما ترضى به نفسه. وما إن تلقى إيفان من الملك هذه العطية حتى اقتسم المال وبترو، فأخذ بترو نصفه، وعز عليه أن يظفر إيفان بكل هذا التكريم من الملك وطوى صدره على رغبة في الانتقام.

* * *

ومضى القوزاقيان يسيران ميممين شطر الأرض التي أفاءها الملك على إيفان فيما وراء جبال الكربات، وأركب إيفان ابنه على ظهر الجواد خلفه، وشده إليه برباط، ودهمهم الليل وهم ماضون في الطريق، وأخذت الطفل سِنَّة من النوم، وبدا النعاس يداعب جفون إيفان: لا تنم أيها القوزاقي، فإن مسالك الجبل مخوفة! ولكن جواد القوزاقي كان يعرف الطريق لا تزل قدمه ولا تتعثر، وكان بين الجبال هاوية لا يعلم مستقرها، الذي يبلغ عمقه ما بين السماء والأرض، إلا الله، وكان الطريق يمر فوقها مباشرة، لا يسير فيه الرجلان إلا جنباً إلى جنب، فإن كانوا ثلاثة ضاق بهم كل الضيق. وأخذ الجواد يخطو في حذر وعلى ظهره القوزاقي الوسنان، وسار بترو بجواره إلى جانبه، وشاعت الرعدة في أوصال بترو جميعاً وتقطعت أنفاسه من فرط السرور، وتلفت حوله ثم دفع صاحبه الذي آخاه، فسقط الجواد في الهاوية وعلى ظهره القوزاقي والطفل جميعاً.

ولكن إيفان تعلق بغصن فلم يهو إلى القاع إلا الجواد، وأخذ يتسلق الهاوية حاملاً ابنه فوق ظهره، وما إن أشرف على حافة الهاوية حتى رفع بصره، فرأى بترو ممسكاً برمح وقد تهيأ لدفعه إلى الهاوية، فهتف: «رحماك يا رب، تمنيت أن تغض مني البصر ما حييت ولا أرى أخي يتربص لي برمح يدفعني به إلى الهاوية! أخي العزيز! إن كان هذا نصيبي فأنفذ فيّ رمحك، ولكن ما ذنب هذا الطفل البريء حتى ينزل به هذا البلاء العظيم؟»، فضحك بترو ودفعه بالرمح فسقط

القوزافي هو وطفله إلى قاع الهاوية، واستولى بترو على ثروته كلها، وأخذ يعيش عيشة الباشوات لا يملك أحد ما يملكه من خيل حاشدة، ولا يدانيه أحد فيما يقتني من قطعان الماشية، ثم عدا الموت على بترو.

* * *

وما إن قضى بترو حتى دعا الله -روحي الأخوين إيفان وبترو- فمثلنا بين يديه، تقدمان الحساب، وقال الله: «إن هذا الرجل لمجرم أثيم، يا إيفان لسوف يمضي وقت طويل قبل أن أجد له ما يستحق من جزاء، فاختر له أنت الجزاء!»، وفكر إيفان طويلًا: أي جزاء يختار، ثم قال:

«لقد أصابني هذا الرجل ببلاء عظيم، وسلك مسلك يهوذا فحرم أخاه ذريته الشريفة، وما مثل الرجل يحرم ذريته الشريفة إلا كمثل حبة القمح يلقي بها في الأرض، فتذهب هباء، فإن هي لم تنبت عز على الناس أن يعرفوا أنه قد ألقى بها في الأرض. فاللهم اكتب على ذريته ألا يذوق منهم أحد طعم السعادة في هذه الدنيا، وأن يكون آخرهم شر ما رأت العين من الخاطئين لا يقترب ذنبًا إلا تململ أجداده في قبورهم حتى إذا ذاقوا من العذاب ما لم يذقه أحد من الأحياء قاموا من قبورهم يسعون! أما بترو هذا الذي خان العهد والميثاق، فاللهم اكتب عليه أن يعجز عن القيام من قبره وأن يلقي فيه أشد النكال، فيعض الأرض كالمجنون، ويتلوى من الألم تحت الثرى!».

فإن حان الحين، وبلغت شرور هذا الرجل غايتها فأخرجني يا كريم على ظهر جوادي من قمة الهاوية إلى أعلى قنة في الجبال، وابعث به إليّ فألقي به من تلك القنة إلى أعماق الوهاد طراً، وأرسل أجداده جميعاً من كل فج من فجاج الأرض عاشوا فيه، وأطلقهم ينشبوا أسنانهم فيه جزاء ما لقوا على يديه من عذاب، ودعهم ينهشوه إلى أبد الآبدين حتى ينشرح خاطري وأنا أراه يُسام العذاب أشكالاً وألواناً، واكتب على بترو، هذا الذي خان العهد ألا يقوم من قبره، وألق في قلبه شهوة النهش، ولينقلب على طول الزمن حتى يزداد عذابه، وسلط عليه من النكال ما لم يذقه أحد من قبله ولا من بعده، فما من عذاب أقسى على المرء من تعطشه إلى الانتقام وقصور يده عنه».

* * *

فقال الله: «إيه أيها الإنسان، ما أفضع الجزاء الذي هداك إليه عقلك! ولتستوين إلى الأبد على ظهر جوادك، فلا تبرح المكان الذي اخترت، ولكن ملكوت السماء قد أوصد دونك!»، وتم له ما أراد، ولا يزال هذا الفارس الغريب مستوياً على ظهر جواده الأصيل في جبال الكربات يشاهد الموتى يفترسون الجنة في الهاوية التي ليس لها قرار، ويحس بجثة الرجل الميت تتضخم وتتضخم تحت الثرى، ويراه وهو يقضم عظامه، ويتعذب أشد العذاب ويلزل الأرض زلزالاً تنخلع له القلوب.

* * *

وفرغ الأعمى من إنشاد قصته وراح يضرب الأوتار مرة أخرى،
ويتغنى بمدائح مضحكة تدور حول فوما وبيرىما وستكليار ستوكوزا،
واستبدت النشوة بمستمعيه شبابًا وشيوخًا فلم يفيقوا من أحلامهم،
وظلوا خُسَعًا يتدبرون في هذه القصة الفظيعة من قصص الأيام الخالية.



إيفان فيودوروفتش شبونكا وخالته

إن لهذه القصة قصة رواها لنا ستيبان إيفانوفتش كوروشكا الذي وفد علينا من جادياخ، ولا شك أنك تعلم أن ذاكراتي ضعيفة كل الضعف، ويستوي عندي أن تقص عليّ شيئاً أو لا تقص، فهي كالغربال تلقي فيه الماء. وقد حملني إحساسي بهذا الضعف إلى أن أطلب منه عامداً أن يسجل هذه القصة في مفكرة، وهب الله له الصحة والعافية، فقد كان دائماً كريماً معي، وشمر ستيبان عن ساعده وسجلها، ثم وضعها في المنضدة الصغيرة، وإني لأحسب أنكم تعرفونها، فهي تقوم في الركن الذي تقع عليه أعينكم حين تدخلون من الباب، ولكنني نسيت أنكم لم تطؤوا منزلي من قبل، ولا جدوى من إنكار أن زوجتي العجوز التي عشت معها ثلاثين عاماً لم تتعلم القراءة. وقد لاحظت أنها تخبز الفطائر على ضرب من الورق، وهي تجيد خبزها أيها القراء الأعزاء، وأنا زعيم بأنكم لن تجدوا خيراً منها في أي مكان. وقد اتفق لي أن نظرت إلى فطيرة من تحت، فماذا وجدت؟ وجدت الكلمات مكتوبة: فمضيت إلى المنضدة كأنما هتف بي هاتف أن أفعّل، فلم أجد فيها إلا نصف الكتاب! فماذا كنت أصنع؟ أليس من الحمق أن نتشاجر في مثل هذه السن؟

وحدث أن كنت مارةً بمدينة جادياخ في العام الماضي، وقبل أن أبلغ المدينة ربطت عن عمد عقدة في منديلي حتى لا أنسى سؤال ستيان إيفانو فتش عن القصة، ولم يك هذا كل ما في الأمر، فقد كنت عاهدت نفسي بالألا أعطس في المدينة إلا ذكرت ما صحت عليه نيتي، ولم يأت ذلك كله بشمره، فقد ركبت عربة اجتزت بها المدينة وعطست، بل مخطت، ثم نسيت، ولم أفكر في القصة إلا بعد أن تجاوزت باب المدينة بنحو ستة فيرستات أو نحوها، وكان ما ليس منه بد، أكرهت على طبع القصة دون الخاتمة، على أنه إذا شاء أحدكم أن يعرف على وجه الخصوص ما انقطع من حوادث القصة، فما عليه إلا أن يقصد إلى جادياخ، ويسأل عن ستيان إيفانوفتش، ولسوف يسره أن يروي له القصة، وأنا زعيم بأنه لن يسوؤه أن يبدأ من أولها، وهو يقيم غير بعيد من الكنيسة المشيدة بالآجر، فإلى جوار هذه الكنيسة زقاق صغير ما إن تنعطف فيه حتى تجد باب بيته هو الثاني أو الثالث.

وخير من هذا وذاك أن تمضي في طريقك حتى تجد فناء انتصب فيه قائم كبير يقوم فوقه طائر من طيور السلوى، وتخرج منه فلاحه بدينة في نقبة خضراء (وجدير بنا أن نذكر أيضًا أن الرجل عزب) تسعى للقائك، ومن يدري؟ لعلك تلقاه في السوق حيث يُشاهد كل صباح قبل التاسعة يتتقي السمك والخضر لمائدته ويتحدث مع الأب أنتيب أو المقاول اليهودي، فإن رأيته عرفته لتوك، ومن ذا الذي يلبس السروال المصنوع من الكتان الملون أو السترة القطنية الصفراء سواه؟ وقد تعرفه بشيء

آخر، فقد ألف أن يطوح ذراعيه في مسيره، وكان دينيس بتروفتش،
مساعد القاضي الراحل، إذا رآه قادمًا من بعيد، قال: «انظروا فيها هي ذي
طاحونتنا مقبلة علينا!».»



إيفان فيودوروفتش شبونكا

مضت أربع سنوات على اعتزال إيفان فيودوروفتش خدمة الجيش، وجاء الرجل ليقيم في مزرعته بفيتريبنكي، وقد التحق وهو بعد حدث يسمى فانيوشا، بمدرسة ناحية جادياخ، ولست أنسى أنه كان غلامًا جم الأدب مجددًا، وقد جرى مدرس النحو الروسي نيكيفور نيموفيتش دبير يتشاستي^(*)، على القول بأنه لو كان جميع الصبيان يبذلون في الدرس قصارى جهدهم كما يفعل شبونكا، ما حمل معه إلى الفصل المسطرة المصنوعة من خشب الإسفندان، وراح -على حد قوله- يضرب بها أيدي الكسالى والخبثاء من الصبية حتى كلَّ ساعده. وكانت كراسة شبونكا نظيفة دائمًا مسطرة الهوامش لا تجد في موضع منها أي بقعة وإن هانت، وجرى الغلام على أن يجلس هادئًا ساكنًا مشبك الذراعين لا يحول عينيه عن المدرس، ولم يلجأ قط إلى إلصاق قصاصات الورق على ظهر الغلام الذي يجلسه أمامه، ولا انقطع عن الصف مرة أو دفع الصبية الآخرين فأخرجهم منه قبل أن يدخل المدرس. وما أحسن تلميذ

(*) ظرف مشتق من الفعل في الروسية.

بحاجة إلى مبرة يصلح بها قلمه إلا بادر إلى إيفان فيودوروفتش وهو عليم بأن جعبته لا تخلو منها دائماً، فيخرج إيفان فيودوروفتش -أو فانيوشا فحسب، كما كان يلقب في ذلك الحين- مطواته من صندوق جلدي صغير مثبت في عروة من عرى سترته الرمادية، ولا يطلب من السائل إلا شيئاً واحداً هو ألا يستعمل الحد المرهف لحك القلم، منبهاً إياه أن ثمة حداً مثلوماً جُعل لهذا الغرض. وسرعان ما استرعى هذا المسلك الحميد نظر مدرس اللاتينية الذي كان سعاله في الدهليز خليقاً بأن يُلقي الرعب في قلوب تلاميذ الفصل كله، قبل أن تطل من الباب سترته المصنوعة من الصوف الخشن ووجهه المجذور. وقد بادر هذا المدرس المخيف، الذي ألف أن يحتفظ دائماً بحزمتين من المقارع على مكتبه ويسوق نصف تلاميذه إلى الجثو على ركبهم، فاتخذ من إيفان فيودوروفتش عريقاً للفصل، على الرغم من أن كثيراً من تلاميذ الفصل كانوا يفوقونه قدرة وكفاية.

أما وقد بلغت في رواية القصة هذا الحد، فليس يجدر بي أن أغفل حادثة أثرت في مستقبل أيامه كلها، فقد حاول أحد الصبية الذين وُكل إليه الإشراف عليهم أن يحمل العريف على إحسان الشهادة فيه، بالرغم من أنه لم يكن قد حفظ درسه، فأتى إلى الفصل بكعكة غارقة في الزبد ملفوفة بالورق، وكان إيفان فيودوروفتش حريصاً على أداء الواجب في معظم الأحيان، إلا أنه كان هذه المرة جائعاً، فعجز عن مقاومة الإغراء، وأخذ الكعكة وأمسك بكتاب رفعه أمام وجهه وراح يأكل، وشغل باله بهذا الأمر، وفاته أن الفصل قد خيم عليه سكون رهيب أشبه بسكون

القبور، ولم يفتق إلى نفسه مروع اللب فزعاً إلا حينما امتدت يد من معطف من الصوف الخشن وأمسكت به من أذنه وجرت به إلى وسط الغرفة، وقال المعلم المخيف: «إليَّ بهذه الكعكة! إليَّ بها، ألا تسمع؟ أعطنيها أيها الوغد!».

وأمسك بالكعكة الغارقة في الزبد بين أصابعه، وألقى بها من النافذة، ناهياً الصبية في حزم ألا يلحقوا بها سراعاً يلتمسونها في الفناء، ثم أخذ يضرب إيفان فيودوروفتش ضرباً أليماً موجعاً على يديه، وكان في ذلك محقاً كل الحق، فقد كانت اليدان دون سواهما من أعضاء جسمه المسؤولين عن أخذ الكعكة. ومهما يكن من شيء فإن الحياة الذي عُرف به دائماً أخذ يزداد ملحوظة منذ ذلك الحين، ولعل هذا السبب نفسه هو الذي جعله لا يشعر أبداً بالرغبة في الالتحاق بخدمة الحكومة، فقد علمته الأيام أن المرء لا يفلح دائماً في إخفاء مساويه.

وكان الفتى قد أشرف على الخامسة عشرة من عمره عندما انتقل إلى السنة الثانية، فترك قواعد الحساب الأربع ودرس الدين، ودخل في المسائل المطولة وكتاب واجبات الإنسان والكسور، ولكنه رأى، كما يقولون، أنه كلما أوغل على الغابة ازدادت كثافة. وتلقى نبأ بأن أباه قد فارق الحياة، فلم يبق في المدرسة إلا ستين آخرين، ثم التحق بفرقة المشاة برضاء أمه.

ولم تكن هذه الفرقة قط من الطبقة التي ينتمي إليها كثير من فرق المشاة، وكانت تعسكر في أماكن ريفية، إلا إنها لم تكن تقل قط عن كثير من فرق الفرسان. وكان معظم الضباط يشربون الكحول صرفاً،

ويجيدون جر اليهود من خصلات شعرهم إجادة الفرسان لذلك، وكان بعضهم يرقص المازوركا أيضاً، ولم يترك قائد الفرقة فرصة إلا انتهزها وذكر هذه الحقيقة إذا تحدث مع أي إنسان من علية القوم، وكان يقول وهو يربت على بطنه بعد كل كلمة: «إن بعض ضباطي يرقصون المازوركا، بل إن عدد من يرقصونها منهم لكبير، كبيراً جداً»، ولو شئنا أن نبين لقرائنا مبلغ ما وصلت إليه الفرقة من ثقافة، لتعين علينا أن نذكر فوق ما ذكرنا أن اثنين من الضباط كانا مغرمين بلعب الورق. وقد ألفا أن يقامرا بسترتهما الرسمية وقبعتهما وحمالتي سيفيهما، بل بملابسهما الداخلية، وهذا أكثر ما يمكن أن تجد في فرقة من فرق الخيالة نفسها.

على أن اتصال إيفان بمثل هؤلاء زملاء لم يخفف من حياته، أما وقد كان لا يشرب الكحول صرفاً، مؤثراً عليه احتساء قدح مملوء بالفودكا المألوفة قبل الغداء والعشاء، ولا يرقص المازوركا أو يلعب الورق، فقد ألف بطبيعة الحال أن ينفرد بنفسه دائماً، وهكذا كان يتفق أن يخرج بقية زملائه يمتطون ظهور جياد استأجروها ويمضون وقتهم في شؤون لا تطيب إلا لمثله من ذوي الخلق الرضي والنفوس لزيارة أصحاب الأراضي الصغار، على حين يخلد إيفان إلى داره وينفق الوداعة، ويروح يصقل أزراره أو يقرأ كتاباً من كتب الطوابع، أو ينصب الفخاخ للفيران في أركان غرفته، أو يخلع سترته الرسمية ويستلقي على فراشه.

زد على أنه لم يكن في الغرفة أحد أكثر مواظبة على أداء واجباته من إيفان فيودوروفتش، وكان يحسن تدريب فصيلته، حتى إن قائد سريته

كان يعده دائماً مثلاً يود لو احتذاه بقية زملائه، ولذلك لم يمض عليه وقت طويل، أجل لم يمض على ترقيته إلى رتبة الصول إلا أحد عشر عاماً فقط، حتى رُفِّي إلى رتبة الملازم الثاني.

وتلقى في هذه الأثناء أنباء تقول إن أمه قد ماتت وإن خالته -ولم يكن يعرفها إلا مما سمع به من أنها نشأته وهو بعد طفل، وإنها أرسلت له وهو في جادياخ الكمثرى الجافة وكعك الشهد اللذيذ الشهى الذي كانت تصنعه بنفسها (وكانت على علاقة سيئة بأمه، وهذا هو السبب في أن إيفان فيودوروفتش لم يرها في السنوات الأخيرة)- أجل خالته هذه قد تعهدت، بما جبلت عليه من طيبة النفس، بالسهر على ضيعته، وبعثت إليه في حينه خطاباً تنبئه بذلك.

ومضى إيفان فيودوروفتش في أداء واجبات وظيفته كشأنه واثقاً كل الثقة بحسن إدراك خالته. ولو كان إيفان كبعض الرجال الآخرين الذين هم في مثل مركزه لأدارت عقله هذه الترقية. على أنه كان لا يعرف للاختيال والزهو معنى ولا طعمًا، فقد ظل في رتبة الملازم الثاني كما كان في رتبة الصول هو هو إيفان لم يتغير ولم يتبدل، وقضى أربع سنوات أخرى في الفرقة بعد ذلك الحادث الذي كان له شأن عظيم في حياته، وما هم بالنزوح هو وفرقة من ولاية موجيليوف إلى روسيا العظمى حتى تلقى الخطاب التالي:

«ابن أختي العزيز إيفان فيودوروفتش:

إنني لأبعث إليك بشيء من نسيج الكتان، خمسة جوارب مشغولة بالإبرة وأربعة قمصان من الكتان الهفهاف، ثم إنني أريد أن أتحدث إليك

في أمر ذي بال، أما وقد نلت رتبة لها شأنها -وإني لأحسب أنك تعي هذا وتدركه- وبلغت سنًا تؤهلك لتولي شؤون مزرعتك بنفسك، فما من سبب يدعوك إلى البقاء في الخدمة العسكرية، وإني لأشعر بأن السن قد تقدمت بي حتى أصبحت عاجزة عن القيام بأمر من أمور مزرعتك، ولدي والحق يقال، أمور كثيرة أود أن أتحدث بشأنها معك شخصيًا.

تعال يا فانيوشا! وإني إذ أتطلع ببالغ السرور إلى رؤيتك لأبعث إليك بخالص تحياتي،

خالتك الودود المحبة

(فاسيليا تشوبشفسكا)

حاشية: في حديقة خضرنا لفت عجب، يبدو للأنظار على ما فيه من غرابة غريبة أقرب إلى البطاطس منه إلى اللفت.

وكتب إيفان فيودوروفتش إلى خالته، بعد تلقيه خطابها هذا بأسبوع، الرد التالي:

«سيدتي المحترمة الخالة العزيزة فاسيليا كاشبوروفنا: أشكرُ كل الشكر على ما بعثت إليَّ من منسوج الكتان، فقد كان الدهر قد أكل وشرب على جواربي خاصة، وراح الجندي المعين لخدمتي يرفوها مرة في إثر مرة، فما إن أتم المرة الرابعة حتى ضاقت عليَّ كل الضيق، أما آراؤك التي أبديتها بشأن خدمتي في الجيش فإني أوافقك عليها كل الموافقة، وقد أرسلت أول أمس أوراق إعفائي. وما إن أتلقى أمرًا بإعفائي حتى أبادر باستئجار عربة. وأما ما كلفتني إياه من الحصول

على قمح من السلالة السييرية فقد عجزت عن إجابتك إلى طلبك،
وليس في ولاية موجيلوف كلها شيء من هذه البذور، وأما الخنازير
التي هنا فكلها يتغذى على كُسب مصانع الجعة وقليل من الجعة التي
يفسد طعمها.

وأرجو أن تقبلي يا سيدتي الجلييلة والخالة العزيزة عظيم احترامي.

ابن اختك

(إيفان شبنوكا)

وتلقى إيفان فيودوروفتش أخيرًا الأمر بإعفائه من خدمة الجيش
برتبة الملازم، فاستأجر يهوديًا ينقله بعربته من موجيلوف إلى جادياخ،
ونقده أربعين روبلاً، ومضى في رحلته حتى اكتست الأشجار بأوراق
قليلة غضة، وتألّق أديم الأرض بالخضرة البانعة وعبقت الحقول بعبير
الربيع.



الرحلة

ولم يقع خلال الرحلة شيء ذو بال، ومضى الرجلان في رحلتهما أيامًا تزيد قليلًا على أسبوعين، وقد كان إيفان فيودوروفتش خليقًا بأن يبلغ مقصوده في زمن أقصر من ذلك قليلًا، لولا أن اليهودي كان يقيم السبت من كل أسبوع، فيطرح على رأسه غطاء جواده ويخلد إلى التعب طوال اليوم. على أن إيفان فيودوروفتش كان -على ما واثني الفرصة وذكرت من قبل- رجلًا لا يستسلم للملالة أو السأم، فإذا حل به وقت كمثل هذا الوقت، فتح صندوق ثيابه وأخرج ملابسه الداخلية وراح يفتش فيها جيدًا حتى يطمئن باله إلى أنها غسلت وطويت على الوجه الأكمل، وينزع الزغب في عناية من حلته العسكرية الجديدة التي خلت في صنعها من الشريط المقصب يعلو كتفيها، ثم يعود فيطوي هذا كله في الصندوق على أحسن وجه ممكن. ولم يكن صاحبنا مغرمًا بالقراءة، فإذا اتفق ونظر في كتاب من كتب الطوابع، فإنما يفعل ذلك لأنه يريد أن يعود إلى قراءة ما قرأه من قبل عدة مرات، وهذا هو شأن الرجل الذي يقيم في المدينة يذهب إلى النادي كل يوم لا ليسمع جديدًا،

بل ليلقى أصدقاء ألف أن يجاذبهم أطراف الحديث منذ زمن لا تعيه
الذاكرة، وشأن الكاتب في دواوين الحكومة يقرأ دليل العناوين عدة
مرات في اليوم مغتبطاً أشد الاغتراب لا لشيء إلا ما تعود عليه من قوائم
الأسماء المطبوعة من تسليية، ويغمغم بينه وبين نفسه، قائلاً: «آه! إيفان
جافريلوفتش... إلخ!، وها هو ذا اسمي مثبتاً هنا! وي! وي!»، ثم يعود
فيقرأ القائمة مرة أخرى مبدئياً ما سبق أن أبداه من علامات التعجب بلا
خلاف.

وبلغ إيفان فيودوروفتش يوم جمعة قرية صغيرة على مسيرة مائة
فيرست من جادياخ، بعد أن أنفق في رحلته أسبوعين، وكانت الشمس
قد غربت منذ وقت طويل حين وصل هو واليهودي والعربة إلى أحد
الخانات.

ولم يكن الخان يختلف في شيء عن غيره من الخانات القروية
المألوفة في القرية، وقد جرى أرباب هذه الخانات على إكرام المسافرين
إكراماً لا مزيد عليه، فيقدمون له الدريس والشوفان كأنه جواد من جياد
المراحل، فإذا أراد أن يصيب من الغذاء ما يصيب القوم من أهل الوقار
والاحترام فما عليه إلا أن يرد شهيته حتى يتهيأ له ذلك في فرصة مقبلة.
وكان إيفان فيودوروفتش يعلم كل هذا، فتزود مقدماً بحزمتين من
حلقات الخبز وحلقة من المقانق وطلب قدحاً من الفودكا التي لا يخلو
منها أي خان، وراح يتناول عشاءه فجلس على أريكة، وضعت أمامها
منضدة من السنديان ثبتت في أديم الأرض الصلصالية تثبيتاً مكيناً.
وطرقت أذنيه في هذه الأثناء قرقرة عربة، وسمع صرير الأبواب،

ومضى وقت طويل قبل أن تدخل العربية الفناء، وانطلق في الجو صوت مجلجل طفق ينهر صاحبة الخان العجوز. وسمع إيفان فيودوروفتش شخصًا يهتف بها قائلاً: «لأدخلن خانك، فإذا عضتني فيه قطة واحدة فقسماً بالله لأضربنك، أجل لأضربنك أيتها الساحرة الشمطاء! ولن أعطيك مقابل الدريس!».

وانفتح الباب بعد لحظة وولجه، أو قل حشر نفسه فيه حشرًا، رجل بدين يرتدي سترة رسمية خضراء، وقد ثبت رأسه لا يريم فوق عنقه القصير الذي بدا للأنتظار أغلظ وأفحل بفضل ما علاه من ذقن مزدوج، وكان مظهر الرجل يدل على أنه من ذلك الطراز من الناس الذين يحفلون بتوافه الأمور والذين سارت حياتهم كلها سيرًا رقيقًا رضيًا.

ورأى الرجل إيفان فيودوروفتش فقال: «أسعد الله يومك يا سيدي!».

وانحنى إيفان فيودوروفتش في صمت.

ومضى الوافد الجديد يقول: «هل لي أن أسأل من ذا الذي أتيح لي شرف التحدث إليه؟».

وما إن سمع إيفان فيودوروفتش قوله حتى نهض على كره منه ووقف وقفة انتباه كشأنه إذا وجه إليه قائد الفرقة سؤالًا، وأجابه قائلاً:

«الملازم المتقاعد فيودوروفتش شبونكا».

«أفلا تسمح لي بأن أسأل أي مكان تقصد؟».

«مزرعتي في فيتربنكي».

وهتف السائل اللفظ «فيتربنكي!»، ثم أردف وهو يتجه إليه ملوحًا بذراعيه كأنما يقف في سبيله أحد أو يشق طريقه شقًا في زحمة الناس: «اسمح لي يا سيدي، اسمح لي!»، وأقبل على إيفان فيودوروفتش وطوقه بذراعيه، ثم طبع قبلة على خده الأيمن وقبله على خده الأيسر، ثم عاد وطبع قبلة على خده الأيمن. وسر إيفان فيودوروفتش كثيرًا بهذه التحية لأن خدي الغريب الممتلئين كانا لشفتيه كالوسادتين الناعمتين. واسترسل الرجل البدين يقول: «اسمح لي أن أقدم نفسي يا سيدي! فأنا جارك وأحد أصحاب الأراضي في ناحية جادياخ نفسها، أقيم في قرية خورتشه، والمسافة بينها وبين فيتربنكي لا تتجاوز خمسة فيرستات، واسمي جريجوري جريجوريفتش ستورتشينكو، وقد حقت عليك زيارتي في خورتشه، ولن أعود إلى التحدث إليك إن لم تفعل، وإني لفي عجلة من أمري الآن أدبر شأنًا من شؤون عملي»، ثم مضى يقول في صوت رقيق مخاطبًا سائس خيوله: «وي! ما هذا؟»، وكان هذا السائس غلامًا يرتدي سترة قوزاقية رُتقت عند المرفقين وتبدت الحيرة على ملامحه، ثم ولج الرجل الغرفة ووضع الحقائب والصناديق على المائدة، وأردف: «ما هذا؟ ما معنى هذا؟»، وأخذ صوت جريجوري جريجوريفتش يزداد تهديدًا ووعيدًا وهو يقول: «أو قد قلت لك أن تضعها هنا أيها الغلام الطيب؟ أو قد قلت لك أن تضعها هنا أيها الوغد؟ أو لم أقل لك أن تسخن الدجاج أولًا أيها اللئيم؟»، ثم صاح وهو يدق الأرض بقدمه: «اغرب عني! بل صبرًا يا وجه القرد! أين السلة التي وضعت فيها القناني؟»، وقال وهو يسكب قدحًا من الشراب الحلو:

«إيفان فيودوروفتش! هلا تصيب شيئاً من هذا الشراب المنعش!».
وأنشأ إيفان فيودوروفتش يقول في تردد: «آه، لا أستطيع ذلك حقاً
-فقد سبق لي أن....».

ورفع صاحب الأرض صوته قائلاً: «لن أقبل عذراً! لن أقبل!
ولست بمغادر مكاني حتى تصيب من الشراب شيئاً!».

ورأى إيفان فيودوروفتش أن الاعتذار عن ذلك مستحيل، فجرع
القدح في شيء من الرضى.

وقال جريجوريفتش وهو يقطع دجاجة ويضعها في صندوق خشبي:
«هذه دجاجة يا سيدي، ولا أخفيك أن طاهيتي يافدوخا مغرمة بأن تصيب
الخمير من حين إلى حين قطرة فقطرة، فإذا وقعت على شيء فما أكثر
ما يعجف بين يديها»، ثم انقلب إلى الغلام الذي يرتدي السترة القوزاقية
وكان يحمل فراشاً ووسائد من الريش، وهتف قائلاً: «إيه يا غلام! ابسط
فراشي على الأرض في وسط الغرفة! ولا تنس أن تضع قدرًا مليحًا من
القش تحت الوسادة! وانزع قطعة من القنب من مغزل المرأة أسد بها
أذني أثناء الليل، ولا أخفيك يا سيدي أنني ألفت أن أسد أذني بالليل منذ
أن وقعت لي تلك الحادثة الملعونة التي تسلل فيها صرصور إلى أذني
اليسرى في خان روسي. إن أصحاب اللحى المسترسلة لقوم تهوشت
عقولهم على ما تبينت بعد، فحتى المرق يحتسونه والصراصير تجري
فيه! وهيئات أن أصف لك ما حل بي من هذا الصرصور، فقد أحسست
في أذني بدغدغة، بدغدغة شديدة، كدت أفقد معها عقلي، وقد شفتني
عجوز ساذجة من ناحيتنا، أفلا تعلم كيف فعلت هذا؟ لقد سحرته سحرًا

فبرز لها، ولم يقتض منها ذلك إلا الهمس، والهمس فحسب، فما قولك يا سيدي في الأطباء؟ إني لأحسب أنهم يخدعوننا ويسخرون منا، وقد تعرف عجوز من النساء في بعض الأحيان ما لا يعرف كل هؤلاء الأطباء عشر معشاره!».

«لعمري إن ما تقول يا سيدي لهو عين الحق، وما من ريب في أن ثمة حالات...» ثم أمسك إيفان كأنما عجز عن التماس الكلام المناسب.

وقد يكون لنا بعض العذر إذا ذكرنا في هذا المقام أن إيفان لم يكن قط يميل إلى كثرة الكلام، ولعل ذلك يعود إلى حياته أو رغبته في التعبير عما يريد بأسلوب طلي شائق.

وهتف جريجوريفتش لخدمته: «هز القش جيداً، هزه جيداً! إن القش في هذا الخان غاية في الرداءة، وليس ببعيد أن تجد فيه علوجاً في أي لحظة. اسمح لي يا سيدي بأن أرجو لك ليلة طيبة! فإننا لن نلتقي غداً، فقد عزمت على الرحيل قبل بزوغ الفجر، إن غداً السبت ولسوف يخلد فيه صاحبك اليهودي إلى العبادة، وما من حاجة تدعوك إلى الاستيقاظ مبكراً. لا تنسَ دعوتي، ولن يخاطب لساني لسانك إلا إذا أتيت لزيارتي في خورتشه».

وما إن فرغ جريجوري جريجوريفتش من قوله حتى بادر غلامه، فخلع سترة سيده وحذاء المرتفع وألبسه منامته، وتمدد جريجوري جريجوريفتش على فراشه فبدا كفراش ضخم من الريش ألقى به على فراش آخر.

«إيه يا غلام! أين أنت أيها الوغد؟ تعال هنا ورتب لحافي! إيه

يا غلام! ضع شيئاً من القش تحت رأسي حتى يرتفع! أو سقيت الجياد
أو لم تسقها بعد؟ زدني قشاً! هنا، تحت هذا الجانب! ورتب اللحاف
جيداً أيها الوغد! أحسنت وأكثر من هذا، أف!«.

وتنهذ جريجوري جريجوريفتش مرتين ثم أطلق من أنفه صفيراً
مزعجاً ملاً أرجاء الغرفة، وكان في بعض الأحيان يغط غطيّاً عاليّاً
تستيقظ له العجوز فجأة من غفوتها على أريكة الموقد، ثم تحمق
حولها في دهشة، فلا ترى شيئاً، فيهدأ بالها ثم تستسلم للنوم مرة أخرى.
واستيقظ إيفان فيودوروفتش في صبيحة اليوم التالي، فوجد صاحب
الأرض البدين قد رحل، وكان هذا الحادث هو الحادث الوحيد الجدير
بالذكر فيما وقع لبطل قصتنا أثناء رحلته. واقترب إيفان بعد يومين من
مزرعته الصغيرة.

وأحس بقلبه يجيش عندما أطلت عليه الطاحونة ملوحة بأذرعها،
وراح اليهودي يسوق جياده الهرمة مصعداً في التل، ولاح لعين إيفان
ذلك الصف من شجر الدلب يربض تحت الطاحونة، وتألفت البركة
تألقاً من خلال الأشجار، وهبَّ منها نسيم عليل، وهنالك ألف إيفان
أن يستحم في سابق أيامه ويخوض فيها مع أولاد الفلاحين حتى يبلغ
الماء عنقه سعيّاً وراء الأربان (الجمبري)، وارتقت العربة الجسر فرأى
إيفان فيودوروفتش البيت العتيق الصغير المسقف بالقصب، وأشجار
التفاح والكرز التي كان يتسلقها خفية، وما إن دخل بالعربة الفناء حتى
هرعت الكلاب من كل حدب وصوب على اختلاف ألوانها من عسلي
إلى أسود ورمادي ومنقط، وجرى بعضها تحت حوافر الجواد ينبح،

وجرى بعضها الآخر خلف العربة بعد أن اكتشفت أن الدنجل قد لُطخ بدهن الخنزير. وكان واحد من الكلاب يقف بالقرب من المطبخ واضعاً قدمه على قطعة من العظم فأطلق نباحاً متصللاً مدوياً، وأخرج كلب آخر لسانه عن بعد، وراح يركض هنا وهناك، ويهز ذيله كأنه يقول: «انظروا أيها المسيحيون الصالحون! أي فتى ظريف أنا!»، وأسرع صبية يرتدون القمصان القذرة يتفرسون في وجوه القادمين، وكان بالفناء خنزيرة تتجول هي وصغارها الستة عشر، رفعت خطمها في فضول، وأخذت تقبع قباعاً أعلى مما ألفت، وفُرش على أديم الفناء عدد من الملاءات المصنوعة من القنب تغطت بالقمح والذرة والشعير تجفف في الشمس، وبسطة فوق السقف أنواع مختلفة كثيرة من الأعشاب، كالشكوريا البرية وحشيشة الخنزير، حتى تجف.

وشغل بال إيفان فيودوروفتش بالتأمل في هذا كله، ولم يفق من سباته إلا عندما عض كلب أرقط اليهودي في بطن ساقه وهو يترجل عن مقعده في العربة، وهرعت الخادومات، ونعني بهن الطاهية وامرأة أخرى وفتاتين كانتا ترتديان نقبتين مصنوعتين من الصوف، وهتفن: «وي! إنه سيدنا الصغير!»، ثم رحن يحدثنه قائلات: «إن خالته تبذر بذور الحنطة الحلوة هي والفتاة بالاشكا وأوميلكو الحوذي الذي كان يعمل في كثير من الأحيان عمل البستاني والحارس جميعاً»، على أن خالته أقبلت إذ رأت العربة عن بُعد، وانتاب الذهول إيفان فيودوروفتش حين رفعته خالته عن الأرض بين ذراعيها أو كادت، وعز عليه أن يصدق أنها هي الخالة التي كتبت له متحدثة عن شيخوختها وأسقامها.

الخالة العزيزة

كانت الخالة فاسيليا كاشبوروفنا قد بلغت في ذلك الوقت الخمسين من عمرها أو كادت، ولم يسبق لها زواج قط، فقد جرت على القول بأن العذرية عندها فوق كل شيء آخر. على أنني أذكر حقاً أنه لم يغازلها أحد؛ ذلك أنه ما من رجل إلا أحس في حضرتها بشيء من الحياء، ولم يجد واحد منهم من الشجاعة ما يحمله على أن يطلب يدها، وقد أجمع الشبان كافة على القول: «بأن فاسيليا كاشبوروفنا فتاة على خلق عظيم!» وكانوا في ذلك صادقين أعظم الصدق، فما من أحد إلا وقع في قبضة يدها، ولا أدل على ذلك من أنها ظلت تجذب كل يوم بيديها اللتين تشبهان أيدي الرجال قنزعة صاحب الطاحونة السكير، حتى استطاعت أن تجعل من هذا الشخص التافه رجلاً جم الفضائل كامل الصفات. وقد رزقت هذه الخالة بسطة في الجسم فبدت كالعمالقة أو هي أقرب، وكانت بدانتها وقوتها تناسبان كل المناسبة قوامها الفارع، ويظهر أن القدر أخطأ خطأ جسيماً إذ كتب عليها أن ترتدي رداءً بنيّاً داكناً قصير

الأهداب في أيام الراحة، وشالاً من الكشمير الأحمر في أحد الفصح وفي عيد شفيعتها.

وقد كان أولى بها وأنسب أن تصطنع شاربًا كشارب التنين وحذاء مرتفعًا كأحذية الرجال، ثم إن مشاغلها كانت تتفق مع مظهرها تمام الاتفاق، فقد كانت تتولى التجديف في القارب بنفسها، وتجيده إجادة تزري بأي صياد، وتصيد الطيور والوحوش، وتشرف على عمال الحصاد في أثناء أدائهم عملهم، وتعرف عدد البطيخ الذي في حديقة خضرها، وتأخذ إتاوة قدرها خمسة كويكات عن كل عربة تجتاز جسرها، وتتسلق الأشجار وتهزها لتسقط ثمار الكمثرى، وتضرب العمال الكسالى بيدها المخيفة، وتمد هذه اليد المرعبة نفسها بقدر من الفودكا لمن يستحقونه.

وكانت في هذه اللحظة نفسها تقريبًا تنهر العمال وتصبغ قطع النسيج، وتهرع إلى المطبخ لصنع البجعة الخفيفة والمربى بالشهد. أجل لقد كانت مشغولة اليوم بطوله، وأفلحت في أن يتم إنجاز كل أمر في موعده، وكان من أثر عملها هذا أن مزرعة إيفان فيودوروفتش الصغيرة التي كانت تضم ثماني عشر نفسًا بحسب التعداد الأخير، قد ازدهرت ازدهارًا لا مزيد عليه، ثم إنها كانت تحب ابن أختها حبًا جمًّا، وراحت تجمع له المال في حرص وعناية.

وتغيرت حياة إيفان فيودوروفتش كل التغيير منذ وصوله إلى دياره، واتخذت وجهة جديدة تختلف تمامًا عما كانت عليه، والظاهر إنه كان قد فطر بالذات على تولي أمور مزرعة تضم ثماني عشرة نفسًا، ولاحظت

الخالة العزيزة نفسها أنه سوف يغدو زارعًا ممتازًا، وإن كانت لم تسمح له بعد بالتدخل في كل شأن من شؤون الإدارة في المزرعة، فقد ألفت أن تقول «إنه لا يزال طفلًا، فأني له أن يعرف كل أمر من أمورها؟»، وكان ذلك بالرغم من أن إيفان فيودوروفتش كان وايم الحق قد أشرف على الأربعين.

على أنه كان يشاهد دائمًا في الحقول بين الحصادين، ولشد ما كان قلبه يفيض بالسرور إذ يرى اثني عشر منجلًا متألفًا أو أكثر وهي تحصد الأرض حصدًا في تناسق وانسجام، ويسمع صوت العشب يتساقط في حشات متساويات، وأناشيد الحصادين تنطلق بين الفينة والفينة، فتارة تكون مستبشرة متهللة تهلل المرء يلقي ضيفًا، وتارة تكون محزنة حزن الأحباب عند الفراق، وينعم بهداة الليل المشرق الصافي! وباله من ليل! وباله من جو طلق عذب! وما أروع الحياة تدب في كل شيء فيتوهج الشهب، ثم يستحيل أزرق داكنًا ثم يتألق مزدهيًا بحلته المتعددة الألوان، وتنطلق السلوى والحبارى والنورس والجندب وآلاف من الحشرات تصفر وتطن وتغرد وتتنادى، ثم لا تلبث أن تمتزج هذه الأصوات جميعًا في نغم واحد متسق.

أجل لقد كان كل شيء يستجيب لداعي الحياة لا يخلد إلى السكون أبدًا. ثم غربت الشمس في هذه الأثناء، آه، ما كان أعذب الجو وأبهجه! فقد كان القوم يقيمون نارا هنا وهناك في الحقول، ويضعون فوقها القدور الكبيرة، ويحيط بها الحصادون ذوو الشوارب، وينبعث البخار من لقيمات القاضي صاعدًا في الهواء، وينطفئ وهج الغسق شيئًا

فشيئاً.. وما أشق أن يتبين المرء ما يجيش في نفس إيفان فيودوروفتش في مثل هذه الأوقات، فقد لحق الرجل بالحصادين ونسي أن يتذوق لقيمات القاضي مع فرط حبه لها، ووقف بلا حراك، يرقب نورساً يهبط من السماء بعيداً عن الأنظار أو يعد حزم القمح التي انتشرت في الحقول. ولم يمض على ذلك وقت طويل حتى أخذت الألسنة تلهج بأن إيفان فيودوروفتش زارع عظيم، ولم تكن الخالة العزيزة لتمل من إظهار فرحتها بابن أختها، لا تترك فرصة إلا زهت به وتفاخرت، وأخذت فاسيليا كاشبوروفنا بذراع إيفان فيودوروفتش ذات يوم - وكان ذلك قبيل نهاية الحصاد، أي في أواخر يوليو - ولم تفصح عما يدور في نفسها، وقالت إنها تريد التحدث إليه في أمر طال بها التفكير فيه.

ثم أنشأت تقول: «إنك لمدرِك يا عزيزي إيفان فيودوروفتش أن ثمانية عشر شخصاً يعيشون في مزرعتك، وهم في واقع الأمر يزدون على ذلك، وإن كان هذا هو العدد الذي رصد حقاً في سجلات التعداد الأخير، ومن يدري؟ لعل عددهم أربعة وعشرون شخصاً، ولكن ليس هذا بيت القصيد. إنك لتعرف الحرجة التي فيما وراء مزرعتنا، ولا شك أنك تعرف المرج الفسيح الذي خلفها، فهو يشتمل على خمسة وخمسين فداناً أو نحوها، وعشبه من الجودة بحيث يدر مائة روبل في السنة، وخاصة إذا صح ما يقولون من أن فرقة للفرسان ستعسكر في جادياخ.

«أعرف هذا بلا ريب أيتها الخالة العزيزة! إن عشبه غاية في الجودة».

«ما من حاجة تدعوك إلى القول بأن عشبه غاية في الجودة فإني

أعلم هذا، ولكن أتعلم أن هذه الأرض كلها ملكك شرعاً؟ وي! ما بالك تحملق فيّ هكذا؟ استمع إليّ يا إيفان فيودوروفتش! أتذكر ستيفان كوزميتش؟ ولكن كيف بي أوجه إليك مثل هذا السؤال وقد كنت وقتئذ أصغر من أن تستطيع النطق باسمه؟ أجل لقد كنت صغيراً حقاً! ذلك أنني جئت إليكم ليلة صيام عيد الميلاد بالذات وحملتك بين ذراعي، فكدت تتلف ثوبي، ومن حسن التوفيق أنني بادرت فأسلمتك في اللحظة المناسبة إلى مربيتك ماتريونا، وي! لقد كنت آنئذ طفلاً لا تطاق! ولكن ليس هذا بيت القصيد ذلك أن الأرض التي وراء مزرعتنا وقرية خورتشه نفسها كانت مملوكة لستيفان كوزميتش، ولا أخفيك أنه كان قد ألف أن يزور أمك قبل أن تكتحل عيناك بروية هذه الدنيا، على أنه كان، وإيم الحق لا يفعل ذلك إلا حين يكون أبوك خارج الدار، ولست أقول هذا قدحاً فيها -رحمة الله عليها!-، ولو أن المسكينة كانت تسيء إليّ دائماً، ولكن ليست هذا بيت القصيد، ذلك أن ستيفان كوزميتش قد وهب لك الأرض التي أحدثك عنها بمقتضى وثيقة رسمية، بيد أن أمك رحمة الله عليها -وليق ما أقول سرّاً بيني وبينك- كانت امرأة غريبة الأطوار إلى حد عجيب، لا يستطيع الشيطان نفسه -وليغفر الله لي هذه الكلمة القبيحة- أن ينتزع من صدرها ما تخفيه، أما ما فعلت بالوثيقة فعلم ذلك عند ربي، ولا ريب أنها في حوزة ذلك العزب العجوز جريجوري جريجوريفتش ستورتشكو، فقد استولى عليها هذا الوغد البطين الذي يحاكي كرشه القدر في انتفاخه، وإنني لأراهنك بما تريد على أنه قد أخفى تلك الوثيقة».

«أفلا تسمحين لي بسؤال أيتها الخالة العزيزة؟ أليس هو ستورتشكو بعينه الذي تعرفت به في الخان؟».

وأخذ إيفان فيودوروفتش يصف لها لقاءه بستورتشكو، وفكرت خالته لحظة ثم قالت: «من يدري؟ لعله بعيد عن الشر، صحيح إنه لم يبق بين ظهرانينا إلا منذ ستة أشهر، إلا أنك لا تستطيع أن تخبر إنساناً في وقت وجيز كهذا، إن تلك السيدة العجوز امرأة راجحة العقل فيما بلغني، فهي تجيد ت خليل الخيار، وعندها إماء يصنعن طنافس بديعة. أما وقد رحب بك الرجل أجمل ترحيب، فإن الواجب يقتضيك أن تذهب لزيارته، ولعل هذا الآثم العجوز يستجيب لنداء ضميره، فينزل عما ليس يملك، ولتستقل العربة إن شئت، ولو أن الأطفال الملاعين قد نزعوا المسامير التي في ظهرها، ولآمرن الحوذي أو ميلكو بأن يحسن تثبيت الجلد بالمسامير في كل مكان منها».

«لا داعي لهذا أيتها الخالة العزيزة، فلسوف أستقل العربة الصغيرة التي تخرجين بها أحياناً طلباً للصيد».

وانتهى الحديث عند هذا الحد.



الغداء

وبلغ إيفان فيودوروفتش قرية خورتشه في موعد الغداء تقريباً، وأحس بشيء من الاستحياء وهو يقترب من منزل صاحب الضيعة، وكان منزلاً مستطيلاً لم يسقف بالقصب كغيره من منازل أصحاب الأراضي المجاورة، بل سُقف بالخشب، وقد قام في فناءه مخزنان للحبوب لكل منهما أيضاً سقف من الخشب، وصنع باب المنزل من السنديان. وأحس إيفان فيودوروفتش بإحساس الرجل الأنيق، ما إن يبلغ المرقص حتى يجد كل من فيه أكثر تأثقاً منه، وأوقف عربته بجوار أحد المخزينين إظهاراً لاحترامه، ثم مضى إلى الباب الأمامي.

وصاح الرجل البدين جريجوري جريجوريفتش: «آه، إيفان فيودوروفتش!»، وكان في هذه الأثناء يجتاز الفناء مرتدياً سترته من غير رباط رقبة ولا صديري ولا حمالة، على أن هذا اللباس على بساطته كان فيما يظهر يثقل على جسمه أثقالاً شديداً، فقد أخذ العرق يتصبب منه، ثم أردف: «وي! لقد وعدت بالزيارة بمجرد أن تنتهي من رؤية خالتك، وهأنت ذا قد غبت عنا فأطلت!».

ولم يلبث إيفان فيودوروفتش أن وجد شفتيه نفسيهما تلمسان مرة أخرى تلك الوجنتين اللتين تشبهان الوسادة.

«لقد كنت مشغولاً بالإشراف على المزرعة خاصة، والحق إنني جئتُك في عمل ولن أبقى إلا لحظة».

«لحظة؟ وي! إنها لا تكفي!»، ثم صاح السيد البدين: «إيه يا غلام!»، ولبى الغلام المعهود الذي يرتدي السترة القوزاقية وأقبل على سيده من المطبخ: «قل لكاريان أن يحكم إغلاق الباب، أسمعني؟ هيا وعجل! وحل السؤاس «العريش» عن جواد هذا السيد في التو واللحظة. هل تفضل بالدخول إلى الدار، فإن الجو شديد القىظ هنا حتى لقد ابتل قميصي».

واستقر رأي إيفان فيودوروفتش وهو يدخل الدار على ألا يضع وقتاً وأن يتصرف في حزم على الرغم من حياته.

«لقد تفضلت خالتي فقصت عليّ نبأ وثيقة بهبة كتبها المغفور له ستيبان كوزميتش...».

وما إن سمع جريجوري جريجوريفتش هذه الكلمات حتى شاب ملامحه تجهم شديد، يجل عن الوصف.

وأجاب قائلاً: «آه يا عزيزي، إنني لا أستطيع أن أسمع شيئاً، ولا أخفيك أن صرصوراً تسلل إلى أذني اليسرى، ألا تبّاً لأولئك الروس الملتحين، فهم يربون الصراصير في أكواخهم، وإن القلم ليعجز عن وصف ما انتابني من ألم، فقد ظل يخزني، ثم يخزني حتى جاءت امرأة

عجوز، فشفتني على أيسر سبيل...».

واستجمع إيفان فيودوروفتش شجاعته وقاطعه، إذ رأى أنه يحاول أن ينأى عن الموضوع، وقال: «إنما قصدت أن أقول إنه ورد في وصية الطبيب الذكر ستيفان كوزميتش ذكر وثيقة بهبة، وإني لأستحق بمقتضى هذا العقد...».

«إني لأدرك ما تقول، وهأنذا أرى أن خالتك قد أنبأتك نبأ هذه الرواية، قسمًا إنها لفرية! فإن خالي لم يكتب وثيقة بهبة، صحيح أن الوصية أشارت إلى وجود وثيقة من هذا القبيل ولكن أين هي؟ ما من أحد أبرزها، وإني لأقول لك هذا لأنني أرجو لك الخير من كل قلبي، قسمًا إنها لفرية!».

ولم يحر إيفان فيودوروفتش جوابًا، فقد دار بخله أن خالته قد تكون مخطئة حقًا.

وقال جريجوري جريجوريفتش: «آه، ها هي ذي أُمِّي وأختاي! إذن فقد أعدَّ الغداء! فهيا بنا!».

وعندئذ أمسك إيفان فيودوروفتش من يده وقاده إلى غرفة وضعت على مائدة فيها الفودكا وأطايب المأكولات.

وولجت الغرفة في هذه الأثناء سيدة عجوز قصيرة القامة كإبريق القهوة سواء بسواء، ترتدي قبعة وفي صحبتها شابتان: إحداهما شقراء، والأخرى سمراء. وتقدم إيفان فيودوروفتش إلى السيدة العجوز وطبع قبلة على يدها كما يفعل السادة الفضلاء، ثم قَبَّل أيضًا يدي الشابتين.

وقال جريجوري جريجوريفتش: «أماه، هذا هو جارنا إيفان فيودوروفتش شبونكا».

ونظرت السيدة العجوز مليًا إلى إيفان فيودوروفتش، أو ربما كان ذلك هو ما تراءى للأُنظار، على أنها كانت مثلاً للطيبة والبساطة مجتمعتين، حتى بدا على العجوز كأنها تود أن تسأل إيفان فيودوروفتش: «ما مقدار ما خللتكم من خيار هذا الشتاء؟».

وسألته العجوز: «هل أصبت شيئاً من الفودكا؟».

وقال جريجوري جريجوريفتش: «لا شك أنك لم تنالي كفايتك من النوم يا أماه، كيف يُسأل ضيف: هل أصاب شيئاً من الفودكا أو لم يصب؟ حسبك أن تقدميها لنا، ولا عليك إن كنا أصبنا منها أو لم نصب، فإن هذا من شأننا. أي إيفان فيودوروفتش، هل تصيب شيئاً من فودكا القنطريون أو فودكا تروفيمون؟ أيهما تفضل؟»، ثم التفت وأردف: «وأنت يا إيفان إيفانوفتش، ما بالك تقف هناك؟»، ورأى إيفان فيودوروفتش السيد الذي وجه إليه جريجوري جريجوريفتش الحديث يقترب من الفودكا وهو يرتدي سترة رسمية لها ذيلان كبيران وبنيقة ضخمة منتصبة غطت قفاه كله حتى بدا للأُنظار أن رأسه قد استوى عليها كما يستوي المرء في عربة.

وأقبل إيفان إيفانوفتش على الفودكا وفرك يديه وتفرس جيداً في القدح، ثم ملاه ورفعته إلى النور وأفرغه دفعة واحدة في حلقه، على أنه لم يجرع الشراب في الحال، بل راح يمصمصه في فمه جيداً، ثم تركه آخر الأمر يهبط إلى جوفه، ثم أصاب شيئاً من الخبز ومن الفطير

المصنوع بالكامخ، والتفت إلى إيفان فيودوروفتش وسأله قائلاً: «هل إيفان فيودوروفتش شبونكا هو الذي أتشرف بالتحدث إليه؟».

وأجاب إيفان فيودوروفتش: «أجل يا سيدي».

«لقد تغيرت كثيرًا منذ رأيتك آخر مرة»، ومضى يقول: «وي! إني لأذكرك ولما تشب في الطول عن هذا!»، ورفع يده عن الأرض ياردة، «إن أباك رحمة الله عليه كان من الرجال النادرين، لا تقصده إلا رأيت عنده بطيخًا لا تجد له الآن نظيرًا في أي مكان»، واسترسل يقول وهو يتتحي به جانبًا: «وهاك شاهدًا على ما أقول، فإنهم سيضعون أمامك على المائدة بطيخًا، أجل بطيخًا حقًا! ولن تحفل بالنظر إليه»، ثم هتف في شيء من الغموض والخفاء باسطًا ذراعيه كما لو كان على وشك أن يعانق جذع شجرة ضخمة: «أو تصدق يا سيدي أنه كان عنده من البطيخ ما يبلغ هذا الحجم والله على ما أقول شهيد؟».

وقال جريجوري جريجوريفتش وهو يأخذ بذراع إيفان فيودوروفتش: «تعال تناول الغداء».

ومضت الجماعة إلى غرفة المائدة.

وجلس جريجوري جريجوريفتش في مكانه المألوف من طرف المائدة وقد لف نفسه بمفرش ضخم من مفارش المائدة جعله يبدو للأنظار شبيهًا بالأبطال الذين ينقشهم الحلاقون على واجهات محالهم، وجلس إيفان فيودوروفتش في المكان الذي أجلسوه فيه قبالة الشابتين وقد علت وجهه حمرة الخجل، ولم يدع إيفان إيفانوفتش فرصة الجلوس إلى جواره تفلت من يده، فقد سر في قرارة نفسه إذ وجد إنسانًا

يستطيع أن يفضي إليه بما في جعبته من جوامع الأخبار وأشتاتها.

وقالت السيدة العجوز موجهة الخطاب إلى إيفان فيودوروفتش إذ رأت الخادم الريفي الذي يرتدي سترة للسهرة رمادية اللون تغشاها رقع سود يقدم له صحيفة من الطعام: «دع الزمك يا إيفان فيودوروفتش؛ فإنه ديك رومي! وعليك بالأوراق!».

وعلق جريجوري جريجوريفتش على قولها هاتفاً: «أماه، دعيه وشأنه، واعلمي أن ضيفنا يعرف كيف يأخذ ما يحلو له، عليك بجناح يا إيفان فيودوروفتش، وليكن الجناح الذي عليه الحوصلة! وي! إنك لم تصب منه إلا القليل! فخذ ساقاً! يا غلام، ما بالك؟ اعزم عليه! واجث على ركبتيك أيها الوغد! وبادره بقولك: خذ ساقاً يا إيفان فيودوروفتش!».

وصاح الخادم الذي يحمل الطبق وهو يجثو: «خذ ساقاً يا إيفان فيودوروفتش!».

وغمغم إيفان إيفانوفتش في صوت خفيض وهو يلتفت إلى جاره مستهزئاً: «إيه! أو تسمي هذا ديكاً رومياً؟ أهيةً ديك رومي تلك؟ آه لو رأيت ديكتي الرومية! إنها لتحمل من الشحم ما لا يحمله اثنا عشر ديكاً من هذا القبيل، لعمرى يا سيدي! إن منظرها وهي تتميح في الفناء من فرط ما تحمل من شحم ولحم لشيء تنفر منه النفس!».

فهتف جريجوري جريجوريفتش إذ وصل إلى سمعه هذا التعليق: «إنك تكذب يا إيفان إيفانوفتش!».

ومضى إيفان إيفانوفتش يقول لجاره، وقد تظاهر بأنه لم يسمع ما قاله جريجوري جريجوريفتش: «ولا أخفيك أنني بعثت بها إلى جادياخ في العام الماضي لعرضها في السوق، فبلغ ثمن الواحد منها خمسين كوبكا، ولكنني رفضت هذا الثمن المرتفع».

وقال جريجوري جريجوريفتش، وقد علا صوته علواً، وراح يشد على كل مقطع من كلمات زيادة في البيان: «إيفان إيفانوفتش! أقول لك إنك تكذب».

ومضى إيفان إيفانوفتش على سنته كأنما كان هذا الكلام لا يعنيه من قريب أو بعيد، وراح يتحدث في لهجته المعهودة وقد خفض من صوته كثيراً: «أجل يا سيدي، لم أقبل ذلك الثمن، فما من سيد في جادياخ...». وصاح جريجوري جريجوريفتش: «لعمري إنك لأحمق يا إيفان إيفانوفتش! إن إيفان فيودوروفتش ليعلم من الأمر كله ما لا تعلم، وأنا واثق أنه لن يصدقك!».

وبوغت إيفان إيفانوفتش هذه المرة حقاً، فلم ينبس ببنت شفة، بل أقبل على الديك يزدرده على الرغم من أنه لم يكن يحمل من الشحم ما تحمله تلك الديكة السمينة التي تنفر النفس من منظرها.

وتعطلت لغة الكلام لحظة، وحلت محلها قعقة السكاكين والملاعق والصحاف، وغلب على ذلك كله ما أحدثه جريجوري جريجوريفتش من صوت وهو يمصمص النخاع من عظم الضأن.

وران السكون برهة ثم انبعث إيفان إيفانوفتش يسأل جاره على

المائدة مبرزاً رأسه من بنيقته الشبيهة بالعربة: «هل قرأت رحلات كوروبيينيكوف إلى الأرض المقدسة؟ إنه لمتعة للقلب والنفس حقاً! وهيهات أن ينشر مثل هذا الكتاب في أيامنا هذه، ولشد ما يؤسفني أنني لم ألحظ السنة التي كُتب فيها!».

وما إن سمع إيفان فيودوروفتش اسم كتاب يذكر، حتى أقبل على المرق المتبل بهمة ونشاط.

«إنك لتعجب حقاً يا سيدي إذا علمت أن مواطناً رقيق الحال كهذا استطاع زيارة كل هذه الأماكن. لقد قطع في رحلته تلك يا سيدي أكثر من ثلاثة آلاف فيرست! ولا شك أن فضل الله هو الذي أتاح له أن يبلغ فلسطين وبيت المقدس».

وقال إيفان فيودوروفتش، وكان قد سمع الكثير عن بيت المقدس من الجندي الذي كان يقوم على خدمته: «إذن فأنت تقول إنه زار بيت المقدس».

وسأل جريجوري جريجوريفتش من طرف المائدة: «ماذا تقول يا إيفان فيودوروفتش؟».

وقال إيفان فيودوروفتش: «لقد تهيأت لي الفرصة لمعرفة ما في العالم من بلاد قاصية!» وأغم قلبه بالسرور إذ أفلح في النطق بمثل هذه العبارات المطنبة العسيرة.

وقال جريجوري جريجوريفتش، ولم يكن قد ميز كل ما قيل: «لا تصدقه يا إيفان فيودوروفتش! إنه يكذب دائماً!».

وفرغ القوم من تناول غدائهم في هذه الأثناء، وأوى جريجوري جريجوريفتش إلى غرفته كشأنه ليغفو قليلاً، وتبع الضيفان مضيفتهما العجوز والشابيتين إلى غرفة الاستقبال فوجدوا المائدة المعهودة التي تركوا عليها الفودكا عندما مضوا لتناول الغداء وكأنما مستها يد ساحر، فحفلت بأطباق صغيرة من المربي على اختلاف أنواعها وصحاف الكرز وأنواع شتى من البطيخ.

وكان غياب جريجوري جريجوريفتش ملحوظاً في كل شيء، فقد جنحت العجوز إلى الإسراف في الكلام، وانطلقت بمحض اختيارها ومن غير إثارة ولا سؤال تفشي كثيراً من الأسرار عن صنع فطيرة التفاح وتجفيف الكمثرى، ولم يقتصر الأمر على المرأة العجوز، بل لقد انحلت عقدة لسان الشابيتين، ولو أن الشقراء أثرت الصمت، وبدا من مظهرها أنها تصغر أختها بست سنوات، وقد كانت على ما يلوح في الخامسة والعشرين من عمرها.

على أن إيفان إيفانوفتش كان أكثر القوم كلاماً ونشاطاً؛ ذلك أنه اطمأن إلى أن أحداً لن يجره أو يقاطعه، فراح يتحدث عن الخيار وزراعة البطاطس ويقول: إن عدد العقلاء في الأيام الخالية يزيد على عددهم اليوم زيادة لا تجدي معها المقارنة! وإن كل شيء يتحسن بمرور الزمن، وتكتشف من الاختراعات أدقها وأشدها تعقيداً. وما من شك أن الرجل كان من أولئك الأشخاص الذين يجدون في مواصلة الحديث لذة عظيمة، فلا ينفكون عن الخوض في كل ما يمكن أن يخوض الناس فيه، حتى إذا مسَّ الحديث موضوعات خطيرة أو مسائل من مسائل

الدين ألفيت إيفان إيفانوفتش يتنهد بعد كل كلمة ويومئ برأسه قليلاً. أما إذا تطرق الحديث إلى أمور وثيقة الصلة بالشؤون المنزلية فلا تلبث أن تجده يبرز رأسه من بنيقته التي تشبه العربة، ويقلب وجهه تقليباً يكاد يفصح عن كيفية صنع شراب الكمثرى المسكر، ومبلغ ما يصل إليه حجم البطيخ الذي كان يتشدد به، ومقدار ما يحمل الإوز الذي يجول في فئاته من شحم ولحم.

وأخيراً أفلح إيفان فيودوروفتش في الاستئذان بعد جهد، على أن يغادر القوم عند حلول المساء، ومع أن الرجل كان قد ألف أن يستسلم للرجاء، فإنهم لم يستطيعوا استبقائه حتى المساء إلا بشق الأنفس، فقد صمم على رأيه ثم مضى.



خطة جديدة تدبرها الخالة العزيزة..

«هل انتزعت وثيقة الهبة من الأثم العجوز؟!»، وهكذا ابتدرت الخالة إيفان فيودوروفتش بالتحية ملقية عليه هذا السؤال، وكانت قد ظلت تنتظره بضع ساعات على الدرج، ولم تستطع آخر الأمر أن تقاوم ما تملكها من رغبة في الخروج إلى الباب.

وقال إيفان فيودوروفتش وهو يترجل عن العربة الخفيفة: «كلا يا خالتي العزيزة، فليس عند جريجوري جريجوريفتش وثيقة».

«أو صدقته؟ لقد كان ذلك المخبول يكذب عليك! لسوف يقع في قبضتي يوماً فأضربه بيدي هاتين ضرباً مبرحاً، آه، لو تم لي ذلك لخلصته من بعض شحمه! ولعل من حسن الرأي أن نشاور في الأمر أولاً مساعد القاضي في ناحيتنا، لنرى هل يحق لنا أن نستعدي القانون عليه؟ ولكن ليس هذا بيت القصيد الآن، هل كل الغداء شهياً؟».

«شهياً جداً - بل رائعاً أيتها الخالة العزيزة».

«فماذا أصبت إذن من ألوان الطعام؟ خبرني، فإني لأعلم أن السيدة العجوز تتقن الطهي».

«عجبن قد قُلي بالجبن عليه قشدة مخثرة أيتها الخالة العزيزة،
وحمام محشو في مرق متبل...».

وسألته خالته: «وديك رومي بالقراصية؟»؛ ذلك أنها كانت هي
نفسها بارعة في إعداد ذلك الطبق.

«أجل، كان من ألوان الطعام ديك رومي أيضًا، ألا ما أملح أُخْتِي
جريجوري جريجوريفتش وبخاصة الشقراء!».

وهتفت الخالة قائلة: «آه!»، وتفرست في وجه إيفان فيودوروفتش
فأرخی بصره، واحمر وجهه خجلًا، ثم طرأت على ذهنها فكرة جديدة،
فراحت تقول في غيرة وفضول: «تعال حدثني، ما شكل حاجبيها؟».

ولا يفوتنا أن نقول إن الخالة العزيزة كانت ترى أن جمال الحاجبين
هو أهم ما تتميز به ملامح المرأة.

«إن حاجبيها أيتها الخالة العزيزة يطابقان كل المطابقة ما وصفت
به حاجبيك عندما كنت شابة في مقتبل العمر، ويغشى وجهها كله نمش
صغير».

وهتفت الخالة قائلة: «آه!»، وقد سرتها الملاحظة التي أبدأها
إيفان فيودوروفتش غاية السرور، وإن كان لم يخطر بباله أن يطر بها،
ثم أردفت: «أي ثوب كانت ترتدي؟ ولو أن من المتعذر اليوم الحصول
على نسيج من نوع جديد كالذي صنعت منه ردائي هذا مثلاً، ولكن ليس
هذا بيت القصيد، أو تحدثت إليها في أمر من الأمور؟».

«أتحدث إليها؟ ماذا تعنين أيتها الخالة العزيزة؟ لعلك تظنين...».

«وأي ضير في هذا؟ لو فعلتما ما عجب لذلك أحد، فلا اعتراض على مشيئة الله! ومن يدري؟ لعله كتب عليكم منذ ولادتكما أن تكونا زوجًا وزوجة!».

«لست أدري كيف يرد مثل هذا القول على لسانك أيتها الخالة العزيزة! يبدو لي من قولك أنك لا تفهميني على الإطلاق».

فردت الخالة: «وي! وي! لقد تضايقت الفتى، ولا عليه فإنه لا يزال طفلًا»، ثم قالت بينها وبين نفسها: «إنه لا يدري شيئًا، فلأجمعن بينهما ولأسعين إلى تعريف كل منهما بالآخر».

وما إن فرغت الخالة من قولها هذا حتى خرجت لتلقي نظرة على المطبخ وتركت إيفان فيودوروفتش وحيدًا، ومن يومها وهي لا تفكر إلا في شيء واحد هو أن ترى ابن أختها وقد تزوج بأسرع ما يمكن، وأخذت هي تدلل أطفاله الصغار. وشغل الاستعداد للزفاف عقلها حتى لوحظ أنها زادت نشاطًا وانطلقت تروح وتغدو صاحبة مضموضية، ولو أن ذلك أساء إلى العمل أكثر مما أحسن إليه، وآية ذلك أنها كانت تقوم في كثير من الأحيان بصنع كعكة، وهو عمل لم تكن لتتركه قط للطاهية، فتنسى كل شيء وتتخيل أن ابن أختها قد رزق ولدًا صغيرًا وقف إلى جانبها يسألها قطعة من الكعكة، فتمد له يدها بأطيب ما فيها شاردة اللب، وينتهز كلب الفناء هذه الفرصة فيخطف هذه القطعة الطيبة، ولا يوقظها من سباتها إلا صوت أسنانه تقعقع، فينال جزاءه المعهود؛ لكمة من محراك النار! ولم يقف بها الأمر عند هذا الحد؛ ذلك أنها نبذت هوايتها المحبوبة، وانقطعت عن الصيد وخاصة بعد أن أخطأت،

فصادت غرابًا ظانة أنه حجل، وهو أمر لم يحدث لها من قبل قط.

وبعد أربعة أيام رأى الناس آخر الأمر عربتها تخرج من الحظيرة إلى الفناء، وكان أوميلكو الحوذي الذي جمع في برده صفتي البستاني والحارس أيضًا، يدق منذ الصباح الباكر مثبتًا الجلد بالمسامير ويواصل مطاردته للكلاب التي كانت تلحق العجلات، وإني لأحسب أن الواجب يقتضي أن أقول لقرائي: إن هذه العربة كانت هي العربة التي ألف أبونا آدم أن يركبها! فإذا اجتراً أحد وزعم أن آدم كان يركب عربة أخرى كان في زعمه هذا كالكذاب الأشر، وكانت عربته هذه مزيفة بلا ريب، على أننا لا ندري كيف بقيت العربة بعد الطوفان؟ ولا حيلة لنا إلا أن نفترض أنه كان لها حظيرة خاصة في فلك نوح، ولشد ما يؤسفني أنني لا أستطيع أن أرسم لقرائي صورة حية لها.

وحسبنا أن نقول إن فاسيليا كاشبوروفنا كانت راضية عن صنعة عربتها كل الرضى، لا تمل من إبداء أسفها على أن الطراز القديم من العربات أصبح في نظر الناس عتيقًا باليًا، وروعي في تركيب العربة أن تميل قليلًا على جانب منها بحيث يعلو الجانب الأيمن عن الأيسر كثيرًا، وقد سرها ذلك أبلغ السرور بصفة خاصة، زاعمة أن الشخص القصير يستطيع أن يركبها من جانب على حين يركبها الطويل من الجانب الآخر، على أن العربة لم تكن تتسع لأكثر من خمسة أشخاص قصار القامة أو ثلاثة في مثل قامة الخالة العزيزة نفسها.

وفرغ أوميلكو من عمله في العربة قرب الظهيرة، وأخرج من الحظيرة ثلاثة جياذ أقل عمرًا من العربة بقليل، وبدأ يشدها بحبل إلى

العربة الفخمة، وركب إيفان فيودوروفتش من الجانب الأيسر وخالته العزيزة من الجانب الأيمن، ومضت العربة في طريقها، ورأى الفلاحون الذين صادفوهما في الطريق هذا الموكب الضخم «وقلما كانت فاسيليا كاشبوروفنا تخرج في العربة»، فوقفوا في خشوع، وخلعوا قبعاتهم، وانحنوا انحناءً كبيراً.

ووقفت العربة بعد مسيرة ساعتين عند الباب الأمامي، ولا حاجة إلى القول بأنه باب منزل ستورتشكو، وكان جريجوري جريجوريفتش خارج الدار. وخفت أمه العجوز وأختاه الشابتان إلى غرفة المائدة لاستقبال الضيفين، ودخلت الخالة الغرفة في مهابة وجلال، وخطت خطوة في براعة كبيرة، ثم قالت بصوت مرتفع:

«يسعدني يا سيدتي أن أتشرف بتقديم احترامي شخصياً، وأن أشكرك في الوقت نفسه على الكرم الذي لقيه ابن أختي منكم، مما ألهم لسانه بالثناء عليكم. إن حنطتكم السوداء لغاية في الجودة يا سيدتي، وقد رأيتهما ونحن نجتاز القرية، فهل لي أن أسألك عن مقدار ما تغله في الدسياتين^(١) الواحد؟».

وأعقب ذلك تبادل القبلات، وما إن استقر الجميع في غرفة الاستقبال حتى بدأت السيدة العجوز الحديث قائلة: «أما عن الحنطة السوداء، فلست أعلم من أمرها شيئاً، فإن هذا من شأن جريجوري جريجوريفتش، وقد انقطعت صلتني بهذه الشؤون منذ زمن طويل، ولا أستطيع أن أتولاها الآن، فقد تقدمت بي السن، وإني لأذكر أن الحنطة

(١) الدسياتين: قطعة من الأرض مقدارها نحو فدانين ونصف الفدان.

السوداء كانت فيما مضى ترتفع حتى تبلغ قامة الإنسان، أما الآن فالله أعلم بأمورها، وإن كانوا يقولون: إن كل شيء قد تحسن في الوقت الحاضر»، وزفرت العجوز زفرة قد يرى بعض المراقبين فيها أنها تنم عن قرن مضى، هو القرن الثامن عشر.

وقالت فاسيليا كاشبوروفنا: «لقد علمت يا سيدتي أن جواريك بارعات في صنع الطنافس»، وبهذا القول ضربت الخالة على الوتر الحساس، فبدا الإشراف على وجه السيدة العجوز، وانطلقت تتحدث عن كيفية صباغة النسيج وإعداد الخيط.

وانتقل الحديث في يسر من الطنافس إلى تحليل الخيار وتحفيف الكمثرى.

وصفوة القول أنه ما إن مضت ساعة حتى استغرقت السيدتان في الحديث كأنما ربطت بينهما صداقة العمر، وكانت فاسيليا كاشبوروفنا قد حدثتهما فعلاً في صوت هامس تعذر على إيفان فيودوروفتش أن يسمع كلمة واحدة منه.

وقالت السيدة العجوز وهي تنتصب واقفة: «أجل، أتحبين أن تلقي نظرة عليها؟» ونهضت الآنستان هما وفاسيليا لتمضين جميعاً إلى غرفة الجوارى، على أن الخالة العزيزة أشارت إلى إيفان فيودوروفتش بأن يبقى، وأسرت شيئاً إلى السيدة العجوز.

وقالت السيدة العجوز وهي تنتصب واقفة: «أجل، أبقى يا ماشنكا مع ضيفنا وحدثيه حتى لا يشعر بالسأم!». .

وجلست الأنسة الشقراء على الأريكة، واستوى إيفان فيودوروفتش على كرسيه كأنما يستوي على الأشواك، واحمرت وجنتاه خجلاً وأرخی بصره، ولم يد على الفتاة أنها لاحظت ذلك، وجلست على الأريكة لا تحفل بشيء، وراحت تنفّس في النوافذ والجدران، أو ترقب القط وهو يدور واثباً تحت المقاعد في تهيب ووجل.

وتشجع إيفان فيودوروفتش قليلاً، وأحس بأن الأمر يقتضيه أن يبدأ الحديث، على أن كلماته جميعاً كانت فيما يظهر قد ندت منه وهي في الطريق إلى لسانه، ولم تطرأ بباله فكرة واحدة.

ودام الصمت بينهما قرابة ربع ساعة، وظلت الأنسة جالسة في مكانها لا تريم.

واستجمع إيفان فيودوروفتش شجاعته آخر الأمر، واستطاع أن يقول في صوت تخالطه رجفة:

«لشد ما يكثر الذباب في الصيف يا سيدتي!».

وأجابت الشابة: «ما أكثره حقاً! لقد صنع أخي مذبةً لأمي من خف قديم تقتل به الذباب، ومع ذلك فقد بقيت منه حشود وحشود».

وبهذا انقطع الحديث، ولم يستطع إيفان فيودوروفتش أن يجد شيئاً يقوله.

وعادت السيدة العجوز آخر الأمر هي وخالتها والأنسة السمراء، وواصلوا الحديث هوناً، ثم استأذنت فاسيليا كاشبوروفنا من السيدة العجوز وابتيتها بالرغم من توسلاتهن بأن يقضيا الليلة معهن، وخرجت

السيدات الثلاث إلى الدرج يودعن الضيفين، وظللن وقتاً يومئ
برؤوسهن إلى الخالة وابن أختها وهما يطلان من العربة.

وسألته الخالة في طريقهما إلى المنزل: «قل لي يا إيفان
فيودوروفتش، فيم كان حديثكما عندما انفردت بالفتاة؟».

فقال إيفان فيودوروفتش: «إن ماريا جريجوريفنا لفتاة مهذبة راجحة
العقل».

«أنصت إليّ يا إيفان فيودوروفتش، فإنني لأود أن أحدثك حديثاً
جدياً، هأنت ذا قد جاوزت السابعة والثلاثين، وحصلت في خدمة
الجيش على رتبة حسنة، وقد آن لك أن تفكر في الأطفال، ويجب أن
تتزوج».

وصاح إيفان فيودوروفتش في فزع: «ماذا تردددين أيتها الخالة
العزيزة؟ زوجة! كلا يا خالتي بالله عليك! إنك لتقتلينني خجلاً، فما
عرفت الزواج بعد، ولست أدري ماذا أفعل إذا أصبحت لي زوجة!».

وقالت الخالة وهي تبتسم: «لتعرفن هذا يا إيفان فيودوروفتش،
لتعرفنه!»، ثم قالت بينها وبين نفسها: «وي! يا له من طفل وأي طفل!
إنه لا يدري من أمره شيئاً!»، ومضت تقول بصوت مرتفع: «أجل يا إيفان
فيودوروفتش، لن نجد لك زوجة خيراً من ماريا جريجوريفنا، ثم إنك
تميل إليها كل الميل، وقد تحدثت إلى السيدة العجوز ملياً في الأمر،
ولسوف يسرها أن تصبح زوجاً لابنتها، صحيح أننا لا نعرف ما عسى أن
يقول ذلك الفاجر جريجوري جريجوريفتش، ولكننا لن نحفل به، فإذا
ركب رأسه ولم يمهرها استعنا عليه بالقانون!».

ودخلت العربية الفناء في هذه الأثناء، وازداد نشاط الجياد المتقدمة في السن؛ إذ أحست باقتراب حظيرتها.

«استمع إليّ يا أو ميلكو، ودع الجياد تصب أولاً كفايتها من الراحة، ولا تأخذها لتستقي لحظة أن تخلع عنها سروجها، فإنها لا تزال تتوقد». وأردفت الخالة وهي تترجل من العربية: «أما أنت يا إيفان فيودوروفتش، فإني أنصح لك بأن تفكر في الأمر ملياً، ولأعجل الآن بالذهاب إلى المطبخ، فقد نسيت أن أحدث سولوخا بما تعده لنا من عشاء، وأغلب الظن أن المرأة المسكينة لا يمكن أن تفكر في الأمر من تلقاء نفسها».

ووقف إيفان فيودوروفتش كمن نزلت به صاعقة. صحيح أن ماريا جريجوروفنا كانت فتاة بهية الطلعة فائقة الحسن، ولكن هذا شيء والزواج شيء آخر! ذلك أن الأمر بدا له عجباً كل العجب، غريباً ممعناً في الغرابة، لا يفكر فيه إلا انتابه الخوف والفرع. يعيش مع زوجة! يا له من أمر لا يجوز التفكير فيه! وكيف يصبر على حال تمنعه عن الانفراد بنفسه في غرفة تخصه وتقتضيه أن يعيش في صحبة شخص آخر دائماً؟ وتصيب العرق منه وهو يزداد إمعاناً في هذا الأمر.

وأوى إلى فراشه وبكر في ذلك أكثر مما ألف، فعز عليه النوم على الرغم مما بذله من جهد جهيد، ثم زاره النوم، ذلك الملاذ الذي يسكن إليه الناس جميعاً، وما كان أعجبه من نوم! ذلك أنه لم ير في حياته من الأحلام المهوشة المهلهلة مثلما رأى في منامه هذا، فقد تراءى له أول ما تراءى أن كل شيء يدور حوله صახباً مضوضياً، وأنه انطلق يجري

ويجري بقدر ما تحمله ساقاه، ثم أخذ يلهث مبهور الأنفاس، وإذا بشخص يمسك بأذنه فيصيح فجأة هاتفاً: «أف! من هذا؟».

ودوى في أذنه صوت يقول: «إنني أنا زوجتك!»، فاستيقظ من نومه، ثم خُيِّل إليه أنه قد تزوج، وأن كل شيء في منزلهما الصغير كان غريباً كل الغرابة، عجباً غاية العجب، وقد مد في غرفته فراش لشخصين بعد أن كان فيها فراش لا يسع إلا شخصاً واحداً، واستوت زوجته جالسة على كرسي وانتابه شعور عجيب، فقد أحس بأنه لا يعرف كيف يقترب منها؟ وبماذا يحدثها؟ ثم بدا له أن وجهها وجه إوزة، ثم التفت مصادفة إلى الناحية الأخرى فوجد زوجة أخرى وجهها وجه إوزة، والتفت مرة ثانية فوجد زوجة ثالثة، فرابعة من خلفه، فامتلاً قلبه رعباً وهرع إلى الحديقة، ولكنه شعر بحرارة الجو، فخلع قبعته، فإذا بزوجة غير هؤلاء تجلس فيها، فتصيب العرق من وجهه ودس يده في جيبه ليخرج منديلاً فوجد زوجة سادسة في جيبه أيضاً، ثم أخرج من أذنه شيئاً من القطن فوجد زوجة سابعة تجلس فيها! ثم انبعث يقفز فجأة على ساق واحدة، وقالت له خالته، وهي تنظر إليه، في لهجة وقور:

«أجل، يجب أن تقفز الآن على ساق واحدة، فقد أصبحت رجلاً متزوجاً»، ومضى إليها، ولكن الخالة تبدلت غير الخالة، وانقلبت برجاً لناقوس، وأحس إيفان شخصاً يشده بحبل إلى برج الناقوس، فسأل إيفان فيودوروفتش في لهجة حزينة: «من ذا الذي يشدني؟»، «إنني زوجتك، أشدك لأنك ناقوس»، فصاح: «كلا، لست ناقوساً، بل أنا إيفان فيودوروفتش»، وتصادف أن كان قائد المشاة يمر بالمكان فقال له: «بل

أنت ناقوس»، ثم تراءى له فجأة أن الزوجة لا تمت للبشر بسبب، وإنما هي ضرب من النسيج الصوفي، ورأى أنه دخل حانوتاً في موجيلوف، فسأله صاحب الحانوت: «أي نوع من النسيج تحب؟ خير لك أن تأخذ زوجة فإنها أحدث طراز من النسيج! فهو شديد الاحتمال، وما من أحد ألا يتخذ منه اليوم معطفاً»، وقاس صاحب المحل النسيج، وقص له زوجة، تأبطها إيفان فيودوروفتش، وذهب بها إلى خياط يهودي، وقال اليهودي: «كلا، إنه نسيج رديء، وما من أحد يصنع من هذا النسيج معاطف اليوم».

وأفاق إيفان فيودوروفتش من حلمه فزعاً، لا يدري أين هو، وأخذ العرق البارد يتصبب منه.

وما إن استيقظ في صبيحة اليوم التالي، حتى هرع إلى كتابه الذي يتحدث عن الطوالع، وكان بائع كتب فاضل قد دفعه صلاحه واستقامته إلى تذييله بحاشية مختصرة في الأحلام، ولكنه لم يجد في هذه الحاشية شيئاً ما يمت من بعيد إلى هذا الحلم المهوش.

وكان عقل الخالة العزيزة قد تفتق في هذه الأثناء عن خطة جديدة سوف تزادون بها علماً في الفصل التالي.



ملكات مسحور

قصة حقيقية رواها قندلفت

أقسم أن نفسي قد زهدت رواية القصص! عجباً! وما الذي كنتم تنتظرونه مني؟ إن رواية القصص أمر شاق حقاً، فهي تقتضي من المرء أن يظل يحكي ويحكي حتى يعز عليه أن يجد لنفسه مخرجاً مما هو فيه، وما دمتم تلحون فلا حيلة لي، ولأقصد عليكم قصة، وكل ما أرجوه أن تذكروا أنها القصة الأخيرة؛ لقد وقف بنا الحديث عند القول باستطاعة الإنسان أن يتغلب على الروح الشريرة أو قل الشيطان كما يسميه الناس. أما وقد بلغنا هذا، فاعلموا أن هذا العالم يجوز فيه كل شيء، وخير لنا ألا نفصح هذا الإفصاح، فإن الشيطان إذا شاء أن يمكر بك فعل، والله على ما أقول شهيد.

لتذكروا أن أبي قد رُزق أربعة أولاد أنا واحد منهم، وقد كنت وقتئذ طفلاً غريباً لا أتجاوز الحادية عشرة أو دونها بقليل، وإني لأذكر ما سأقص نبأه عليكم كأنه قد وقع بالأمس، أجل أذكر كيف انطلقت أجري على أربع وأنبح الكلاب، فصاح أبي ينهرني وهو يهز رأسه:

«استمع إليّ يا فوما، لقد بلغت من السن ما يسمح لك بالزواج، ولكنك تلح في الحمق كالمهر الصغير!» وكان جدي -يسر الله فواقه في العالم الآخر- لا يزال على قيد الحياة يدب على رجله ديبًا لا بأس به، وتتملكه من حين إلى حين نزوات وصبوات.

ولكن ما هكذا تقص القصص! فقد ظل أحدكم ساعة يحرك نار الموقد ملتصقًا جذوة يشعل بها غليونه، وهرع أحدكم إلى خلف مخزن الحبوب يبحث عن شيء، فما هذا؟ لو أنني حملتكم على الإنصات إليّ لكنتم في حل من أن تفعلوا ما يحلو لكم، ولكنكم أبيتم إلا أن تلحوا عليّ وتمعنوا في الإلحاح حتى أروي لكم قصة، فإن شئتم أن تنصتوا فأنصتوا، وأحسنوا الإنصات!

في باكورة الربيع وسق أبي بعض العربات تبعًا قصد به إلى بلاد القريم لبيعه، ولكنني لا أذكر عدد ما وسق من عربات، وهل كانت اثنتين أو ثلاثًا؟ ذلك أن ثمن التبغ كان مرتفعًا في تلك الأيام، وحمل أبي معه أخي الصغير البالغ من العمر ثلاث سنوات يعلمه التجارة، وتركني في العراء أنا وجدي وأمي وأخًا ثانيًا وثالثًا، وكان جدي قد زرع بعض البطيخ في قطعة من الأرض بجانب الطريق، ومضى يعيش في كوخ هناك، وحملنا معه لنطرد الغربان والعصافير من الحديقة. ولست أزعم أن ذلك كان على غير ما نحب ونشتهي، فقد كنا في بعض الأحيان نصيب من الخيار والبطيخ واللفت والبصل والبازلاء حتى يُخَيَّل إليك، والحق يقال، أن بعض الديكة أخذت تصيح في بطوننا، زد على ذلك أن ما فعله كان فيه كسب لنا، فقد كان المسافرون يجتازون الطريق وكل

منهم يريد الحصول على بطيخة، ثم إن القوم كانوا يحملون إلينا من المزارع المجاورة الدجاج والديكة الرومية والبيض لقاء ما نعطيهم من خضرارات، وكان نجاحنا عظيمًا.

ولكن أمرًا واحدًا كان يستهوى جدي أكثر من أي أمر، ذلك أن خمسين حوذيًا أو نحوهم كانوا يمرون بنا كل يوم وقد وسقوا عرباتهم بالأحمال، وأولئك هم الناس الذين شاهدوا العالم، فإذا بدأ أحدهم يروي لك قصة أرهفت أذنيك متطلعًا، وكان فرح جدي بهذه القصص كفرح الجائع بلقيمات القاضي، وكان يحدث في بعض الأحيان أن يلقي جدي أصدقاءه القدماء -وما من أحد يجهل جدي- وإنك لتعلم كيف تكون الحال إذا اجتمع شمل الشيوخ معًا، فهم يتحدثون في هذا وذاك من الأمور، ويقلبون من الحوادث كيت وكيت، وهكذا يمضي بهم الحديث، فيذكرون أمورًا لا يعلم إلا الله متى وقعت؟

وقد حدث ذات مساء -وإني لأذكر ذلك كأنه قد وقع اليوم- أن أخذت الشمس في الغروب، وراح جدي يجول في الحديقة ينزع أوراق الشجر التي كان قد غطى بها البطيخ أثناء النهار حتى لا تلفحه حرارة الشمس.

وقلت لأخي: «انظر يا أوستاب، هاك بعض الحوزية قد أقبلوا علينا».

وقال جدي وهو يضع علامة على بطيخة كبيرة حتى لا يأكلها الغلمان: «أين الحوزية؟».

وكان ستة من الحوزية يضربون في الطريق يتقدمهم حوذي كلل

المشيب شاربه، وكان لا يزال على مسيرة -ماذا أقول- عشر خطوات منا عندما وقف.

«طاب صباحك يا ماكسيم. إذن فقد شاءت إرادة الله أن نعود فلتلقي هنا».

وزر جدي عينيه.

«آه طاب صباحك، من أين أنت قادم؟ وبولياشكا هنا أيضًا! طاب صباحك يا أخي! يا للشيطان! إنهم جميعًا هنا: كروتوتر يشنكو أيضًا وبيشير يتسيا! وكوفيليك! وستيتسكو! طاب صباحكم!»، وراحوا يقبل بعضهم بعضًا.

وفكوا سروج الثيران وأطلقوها ترعى، وتركوا العربات في الطريق، وجلسوا في حلقة أمام الكوخ وأشعلوا غلايينهم، ولو أنهم لم يفكروا فيها، فما أظن أنهم كانوا يستطيعون أن يدخلوا في اطمئنان وهدوء وقد استغرقوا في رواية القصص وفضول الحديث.

وتناول الضيوف العشاء، ثم أتحفهم جدي بالبتيخ، فأخذ كل منهم بطيخة وأمسك بسكين وراح يزيل عنها القشر في أناقة، وكانوا جميعًا من الرجال المحنكين الذين خبروا العالم وتعلموا كيف يأكلون جماعة، ولست أعالي إذا قلت إنه لم يكن من العسير عليهم أن يجلسوا إلى مائدة سيد مهذب من أفاضل الناس. وما إن انتهى كل منهم من تقشير بطيخته جيدًا حتى ضرب فيها بأصبعه وشرب العصير من الثقب، وأخذ يقطعها قطعًا يضعها في فمه.

وقال جدي: «ما بالكما تقفان هكذا مشدوهين أيها الصبيان؟ ارقصا أيها الجروان! أين مزمارك الغاب يا أوستاب؟ علينا بالرقصة القوزاقية! فوما، ضع ذراعيك في خاصرتك، هلم! أصبت! والآن».

وقد كنت في تلك الأيام فتى نشيطاً خفيف الحركة، ألا لعنة الله على الشيخوخة! فقد أصبحت اليوم لا أستطيع الخطو في رشاقة كما كنت أفعل في شبابي، وقد كانت ساقي تطفران وتقفران، أما اليوم فهما لا تعرفان إلا الزلل والعتار، وظل جدي يراقبنا وقتاً طويلاً وهو جالس مع الحوذية، ولاحظت أن ساقه لا تسكنان تحته، كأنما كان هناك ما يجذبهما.

وقال أوستاب: «لترين يا فوما أن العجوز لن يلبث حتى يرقص».

وما إن انتهى أوستاب من قوله حتى فرغ صبر العجوز، فقد كان يتوق كما ترى إلى إظهار براعته للحوذية.

فقال وهو ينتصب واقفاً ويسط ذراعيه وينقر بكعبيه: «إيه أيها الغلامان! أهكذا يكون الرقص؟ إنما الرقص هو هذا!».

ولا شك أنه كان يستطيع أن يرقص خيراً من ذلك لو أنه كان يصاحب زوجة شيخ القوزاق، وأخلينا له السبيل، وانطلق العجوز يدور بساقيه في البقعة الملساء التي تجاوز أحواض الخيار، وما إن بلغ وسط البقعة وأراد أن يأتي بخير ما عنده فيقفز بعض القفزات وساقاه تدوران في الهواء، حتى أبت ساقاه أن تبارحا الأرض على الرغم من كل ما بذل من جهد!

يا للبلاء! لقد أخذ العجوز يتحرك مرة أخرى إلى الخلف ثم إلى الأمام، وبلغ وسط البقعة، ولكن هيهات! لقد عجز الرجل عن الإتيان بهذه الحركة، وظلت ساقاه ساكنتين كأنما قدتا من خشب: «انظروا، لا شك أن هذا المكان مسحور، وتلك مكيدة من مكاييد الشيطان! إن هيرودس عدو البشرية له يد في هذا الأمر!».

ولا ريب أن الرجل لم يكن يرضى لنفسه هذا العار أمام الحوذية، وكيف يرضى بذلك؟ إذن فليبدأ من جديد، وراح يقفز قفزات صغيرة تافهة كانت متعة للناظرين، ثم مضى إلى وسط البقعة من جديد فعجز مرة أخرى عن الرقص!

«عجباً لك، أيها الشيطان الملعون! ألا فليغص حلقك ببطيخة فاسدة، ليتك هلكت وأنت بعد صغير، يا ابن الكلب، انظروا أي عار جللني به في شيخوختي!». والحق أن شخصاً أطلق ضحكة من خلف ظهره.

وتلفت حوله فلم ير حديقة البطيخ ولا الحوذية، بل لم ير شيئاً، فقد لقي حقلاً ينبسط من أمامه ومن خلفه ومن جانبيه، فهتف: «وي! هذا مستحيل!»، وبدأ يزر عينيه فترأى له أن المكان ليس غريباً عليه كل الغرابة، فإلى جانبه أجمة، وخلف الأجمة عمود يرتفع في الفضاء حتى ليبدو للأنظار من بعيد. ألا لعنة الله على هذا كله! فقد كان هذا الذي إلى جانبه هو برج الحمام في حديقة خضر القس! وذاك الذي على الجانب الآخر شيئاً يضرب إلى السمرة، وأمعن العجوز في النظر، فوجد أن هذا الشيء هو مخزن المكان. وطفق الرجل يدور ويدور فوقع على طريق

صغير، ولم يكن القمر ظاهرًا، وإنما حلت محله بقعة بيضاء تتألق من خلف غمامة سوداء.

وقال جدي يحدث نفسه: «لتكونن الريح شديدة غداً»، ولم يلبث أن ظهر وميض شمعة فوق قبر على بُعد قليل من الطريق، «وي! وي!»، ووقف جدي لا يبدي حراكًا، ووضع ذراعيه في خاصرته وأخذ يتفرس فيما رأى، وانطفأ الضوء، وتلاّأ ضوء آخر على بُعد كبير، فيما وراء الضوء الأول بقليل، فهتف جدي: «كنز! أراهن بأي شيء إنه كنز!»، وهم بأن ينفخ في يديه استعدادًا للحفر، وإذا به يتذكر أنه لم يحمل معه مُجرّفاً، آه! ما أشد أسفي! لقد كنت خليقاً بالاً أنكلف من الجهد أكثر من إزاحة العشب فأجد الكنز النفيس تحت موطن قدمي! ولكن لا حيلة لي في الأمر الآن، وحسبي أن أشير إلى مكانه بعلامة حتى لا تخونني ذاكرتي».

ثم جذب غصناً كبير الحجم لا شك أن الريح أطاحت به من شجرة، ووضعته على القبر حيث رأى الشمعة تتألق، ثم مضى في الطريق. وخفت كثافة أجمة السنديان القصيرة العود، ولمح سياجاً، فراح يحدث نفسه قائلاً: «انظروا! ألم أقل إنها حديقة القس؟ ها هو ذا سياجه، وليس بيننا الآن وبين بستان البطيخ إلا مسافة ثقل عن الفيرست».

على أنه عاد إلى المنزل في الهزيع الأخير من الليل وأبى أن يتناول شيئاً من لقيمات القاضي، وأيقظ أخيه أوستاب وسأله: أو قد انصرف الحوذنة منذ وقت طويل؟ ثم التف بغطائه المصنوع من جلد الماعز،

وسأله أوستاب: «أين استبقاك الشياطين اليوم يا جدي؟»، فأجابه وهو يحكم الغطاء حوله: «لا تسلني، لا تسلني يا أوستاب، وإلا شاب شعرك!». وأخذ يغط غطيظاً عاليًا أفزع العصافير التي كانت قد حطت في بستان البطيخ، فطارت وجلة مذعورة، ولكن كيف كان يستطيع أن ينام؟ على أن الشيخ كان، رحمة الله عليه، رجلاً داهية يستطيع دائماً أن يفلت من أي مأزق، فيلفق في بعض الأحيان قصة يقف لها شعر رؤوسنا.

وما إن حل الظلام في اليوم التالي حتى ارتدى جدي سترته وتمنطق بحزامه وتأبط مُجرِّفًا ووضع قبعته على رأسه وشرب إبريقًا من الجعة ومسح شفتيه بنفسه، ثم مضى إلى حديقة بطيخ القس لا يلوي على شيء، ومر بالسياج وبأجمة السنديان القصيرة العود، وكان يمتد في هذا الموضع طريق يلتف بين الأشجار ثم يبرز في الأرض المنبسطة، فَحَيِّلَ إليه أنه الطريق المعهود، وخرج الشيخ من الأجمة وتراءى له أن المكان هو هو، مكان الأمس، ورأى برج الحمام واضحًا، ولكنه لم يستطع رؤية مخزن الدراسة، «كلا، ليس هذا هو المكان، ولا شك أنه يبعد عن هذا الموضع قليلًا، ويُخيل إليَّ أن الأمر يقتضي أن أنعطف قليلًا ناحية مخزن الدراسة»، وقفل راجعًا ومضى في طريق آخر، فاستطاع أن يرى المخزن، ولكنه لم ير برج الحمام، فانعطف مرة أخرى، فرأى المخزن مختفيًا على مقربة من برج الحمام، وكأنما أرادت السماء أن تكيد له، فأخذت تمطر رذاذًا، وجرى ثانية صوب المخزن فاختنى برج الحمام، وجرى شطر برج الحمام، فاختنى المخزن!

فصاح: «أيها الشيطان ملعون، تمنيت ألا تعيش حتى ترى أولادك!».

ثم انهزم المطر فخلع حذاءه الجديد ولفه في منديل يقيه المطر، وجرى كالرهبان سواء بسواء، ثم دلف إلى الكوخ وقد نفذ المطر إلى جسده وتغطى بجلد الماعز، وراح يتمتم بصوت خفيض ويسب الشيطان سباباً لم أسمع له مثيلاً في حياتي قط، ولو أنني سمعت هذا السباب في وضح النهار لاحمر وجهي خجلاً بلا شك.

واستيقظت في صباح اليوم التالي فرأيت جدي يجول في بستان البطيخ كأن لم يحدث شيء، وراح الرجل يغطي البطيخ بورق الأرقطيون، ثم عاد يتحدث أثناء الغداء ويخيف أخي الأصغر قائلاً: «إنه سيعدل عن مقايضة البطيخة بدجاجة ويتخذ منه بديلاً عن البطيخة. وصنع بعد الغداء مزماراً من قطعة من الخشب، وأخذ ينفخ فيه، ثم أراد أن يروح عنا فأعطانا بطيخة التفت ثلاث لفات كأنها الأفعى، وأطلق عليها اسم البطيخة التركية، ولست أرى الآن لها مثيلاً في أي مكان، والحق أنه حصل على بذور هذا النوع من بلاد بعيدة.

وفي المساء خرج جدي بعد تناول العشاء، وحمل معه مُجَرِّفاً يحفر به مهذاً جديداً لليقطين المتأخر، ومر بذلك المكان المسحور فلم يتمالك نفسه من القول مغمغماً: «يا له من مكان ملعون!»، ومضى إلى وسطه حيث البقعة التي لم يستطع أن يتم فيها رقصته بالأمس، وضربها بالمجرف غاضباً، فلم يلبث أن رأى الحقل المعهود يحيط به مرة أخرى

من كل جانب، ووجد برج الحمام إلى جانبه بادياً للعيان وعلى الجانب الآخر مخزن الدراسة، «مرحى، لقد كان من حسن التوفيق أنني فكرت في حمل المُجَرَّف معي، فها هو ذا الطريق، وها هو ذا القبر! وها هو ذا الغصن المُلقى عليه، وها هي ذي الشمعة المعهودة، آه! لو كنت قد وفقت ولم أقع في خطأ!».

وجرى متسللاً وهو يرفع المُجَرَّف في الهواء كأنه يهم بضرب خنزير ولغ بخطمه في بستان للبطيخ، ثم وقف أمام القبر، وانطفأت الشمعة، وقام فوق القبر حجر غطته الأعشاب، وراح الشيخ يحدث نفسه قائلاً: «يجب أن أرفع هذا الحجر»، وحاول أن يحفر حوله إلا أن الحجر الملعون كان ضخماً، فثبت قدميه في الأرض ودفعه عن القبر، وتجاوب الوادي بصوته وهو يهتف: «أوه!»، ثم أردف: «إن هذا هو الطريق الصحيح الذي يجب أن تسلكه! ولسوف تسير الأمور من بعد في سهولة ويسر!».

ووقف جدي عند هذا الحد، وأخرج صندوق سعوطه ونثر قليلاً من السعوط في يده، وهمَّ بأن يرفعه إلى أنفه، وإذا بشيء يعطس فوق رأسه عطسة اهتزت لها الأشجار وتلطح وجه جدي كله.

وقال جدي وهو يمسح عينيه: «لقد كان أجدر بك أن تدير وجهك على الأقل إن شئت أن تعطس»، والتفت حوله ولكنه لم ير أحداً، فمضى يقول وهو يضع صندوق السعوط في صدره ويتناول مجرّفه: «يبدو أن الشيطان لا يحب السعوط، يا له من أحمق! فما أصاب جده ولا أبوه

شيئاً من مثل هذا السعوط!». .

وبدأ يحفر، وكانت الأرض رخوة غاص فيها المجرف، ثم قعقع شيء، فأزاح التراب فرأى قدرًا كبيرة.

وصاح جدي وهو يدفع المجرف تحتها: «آه! إِذَنْ فهذه أنتِ!». .

وصاح منقار عصفور كان ينقر القدر: «آه! إِذَنْ فهذه أنتِ!». .

وتنحى جدي فسقط منه المجرف.

وثغى رأس شاة من أعلى شجرة: «آه، إِذَنْ فهذه أنتِ!». .

وجأر الدب وهو يطل بأنفه من خلف شجرة: «آه، إِذَنْ فهذه أنتِ!». .

وسرت رعدة في ظهر جدي.

وغمغم يقول بينه وبين نفسه: «وي! لشد ما يخشى المرء أن ينطق

بكلمة هنا!». .

فصاح منقار العصفور: «لشد ما يخشى المرء أن ينطق بكلمة هنا!». .

وثغى رأس الشاة: « يخشى أن يقول كلمة هنا!». .

وجأر الدب: «أن ينطق بكلمة هنا!». .

وقال جدي: «هم!»، وأحس بالفرع يغشى قلبه.

وصاح المنقار: «هم!». .

وثغت الشاة: «هم!». .

وجأر الدب: «هم!». .

وتلفت جدي حوله في فزع، تباركت يا الله! يا لها من ليلة! غابت نجومها واختفى قمرها، ولم يجد فيها إلا حفراً تكتنفه وهوة سحيقة عند قدميه، وصخرة شامخة تشرف عليه، ولا تلبث أن تنحط في أي لحظة فتتهوي فوق رأسه، وتراءى لجدي أن رأساً بشعاً يطل من ورائها، «أوه! أوه!»، ويمتد أنف كمنفاخ الحداد، يلقي بسطل من الماء في كل فتحة فيغيب فيه! وشفتان كأنهما كتلتان من الخشب! وعينان حمران ناتئتان مستشرفتان ولسان برز من الفم ساخرًا متهكمًا.

وهتف جدي متخليًا عن القدر: «فليأخذك الشيطان! ألا لعنة الله عليك وعلى كنزك! يا له من خطم كريح!»، وهم الشيخ بالهرب مكتفيًا من الغنيمة بالإياب، لولا أنه تلفت حوله وتوقف، فقد رأى كل شيء يعود إلى سيرته الأولى، «إنما هي الروح الشريرة تحاول أن تخيفني!». وراح يرفع القدر مرة أخرى، فوجدها ثقيلة أشد الثقل! فماذا يصنع؟ وكيف يتركها بعد؟ وبذل العجز غاية ما في وسعه وقبض على القدر بكلتا يديه.

وهتف وهو يشدها شدًا: «هيا هوب! هيا هوب! أف، فلأروحن عن نفسي بشيء من السعوط!»، وأخرج صندوق سعوطه وتريث قليلًا قبل أن ينشر من السعوط شيئًا، فقد بدا له أن يُلقى حوله نظرة فاحصة ليستوثق من أن أحدًا لا يراه، وخُيِّل إليه أن المكان قد خلا من كل أحد، وإذا بجذع الشجرة يبدو وكأنه يلهث وينفخ ثم برزت منه أذنان ثم عينان حمران ومنخران ينفثان، وأنف مجعد تراءى له أنه على وشك أن

يعطس، فقال جدي بينه وبين نفسه، وهو يدس صندوق السعوط في صدره: «كلا، لن أصيب شيئاً من السعوط، فإن الشيطان سوف يبصق في عيني مرة أخرى»، وبادر إلى القدر فخطفها خطفًا وانطلق يسابق الريح، إلا أنه شعر بشيء من خلفه يخدش ساقيه بالعساليج، فلم يجد في طوقه إلا أن يقول: «آه! آه!» وهو منطلق بأقصى سرعته، فلما بلغ حديقة القس تنفس الصعداء.

ورحنا نتساءل: «ترى أين ذهب جدي؟»، بعد أن انتظرناه ثلاث ساعات، وكانت أمي قد عادت من المزرعة منذ وقت طويل وجاءت معها بقدر من لقيمات القاضي الساخنة، على أننا لم نسمع بأي خبر عن جدي! وتناولنا العشاء مرة أخرى دونه، وغسلت أمي القدر بعد العشاء، فلما وجدت مهاد البطيخ تحيط بها من كل جانب راحت تبحث عن مكان تلقي فيه ماء الغسيل، وإذا بها ترى برميلاً يندفع نحوها رأسًا! وكان الظلام قد بدأ يرخي سدوله، فأيقنت أن غلامًا يتخابث مختفيًا وراءه ويدفع به نحوها فقالت: «هذا خير، ولألقين بالماء فيه»، وأردفت القول بالفعل، وقذفت بما في يدها من الماء الساخن.

وصاح صوت يهتف: «أواه!» فاعجبوا ما شاء لكم العجب، فإن هذا البرميل لم يكن إلا جدي، وي! من كان يتصور هذا! تالله لقد ظنناه برميلاً مندفعًا نحونا، ولست أنكر، على ما في قلبي هذا من إثم، أن منظر جدي وقد غرق رأسه الأشيب في ماء الغسيل ورصعه قشر البطيخ، كان مسليًا يثير الضحك.

وقال جدي وهو يمسح رأسه بهذب سترته: «أيتها المرأة الملعونة! يا للحمام الساخن الذي جُذِّت به عليّ، حتى لكأني خنزير أُعد للذبح قبل عيد الميلاد! أما أنتما أيها الصبيان فسوف تنالان شيئاً آخر غير حلقات الخبز! ثم لترفلان أيها الجروان في الحلل الذهبية»، ثم قال وهو يفتح القدر: «انظروا ما جئكم به!».

فأي شيء انطوت عليه القدر فيما تظنون؟ هلموا فكروا جيداً، وحذروا، أتقولون: إنه ذهب؟ كلا، لم يكن فيها ذهب، بل إنني لأخجل إذ أقول: إن ما فيها كان وسخاً وقذارة، وبصق جدي وطوح بالقدر، ثم غسل يديه.

ومن يومها حملنا جدي على القسم بألا نثق بالشیطان.

وكان يهيب بنا في كثير من الأحيان قائلاً: «لا تصدقوه! فإن هذا العدو للمسيح لا يقول إلا كذباً، فلا تصدقوه، ابن الكلب! فليس فيما يقول خردة من صدق!».

وكان الشيخ إذا سمع أن الأمور قد اضطربت في بقعة من الأرض هتف: «هلمّا يا ولديّ، ولنرسم إشارة الصليب على الشيطان! أحستما! أحستما! ولترسماها على الوجه الصحيح!»، ثم يبدأ في رسم إشارة الصليب. أما تلك البقعة الملعونة التي عجز فيها عن أن يتم رقصته فقد سورها، وأمرنا أن نلقي فيها كل الفضلات والأعشاب والقمامة التي كان يجمعها من بستان البطيخ.

أرأيتم كيف تسيطر الروح الشريرة على البشر! إنني لأعرف تلك

القطعة من الأرض حق المعرفة، وقد استأجرها بعض الجيران من القوزاق من بعد ليزرعوها بطيخًا، إنها لأرض عظيمة تجود دائمًا بمحصول وافر، أما هذا المكان المسحور فلم ينبت قط نباتًا طيبًا، وقد يلقي القوم فيه بالبذور فيحسنون، ثم لا يعلم أحد كيف يكون نبتها، على أنها لا تنبت في الحق بطيخًا ولا يقطينًا ولا خيارًا، وإنما تنبت شيئًا لا يعلمه إلا الشيطان وحده.

«النهاية»

